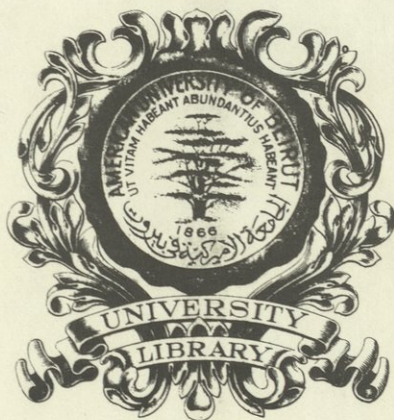


AUB LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

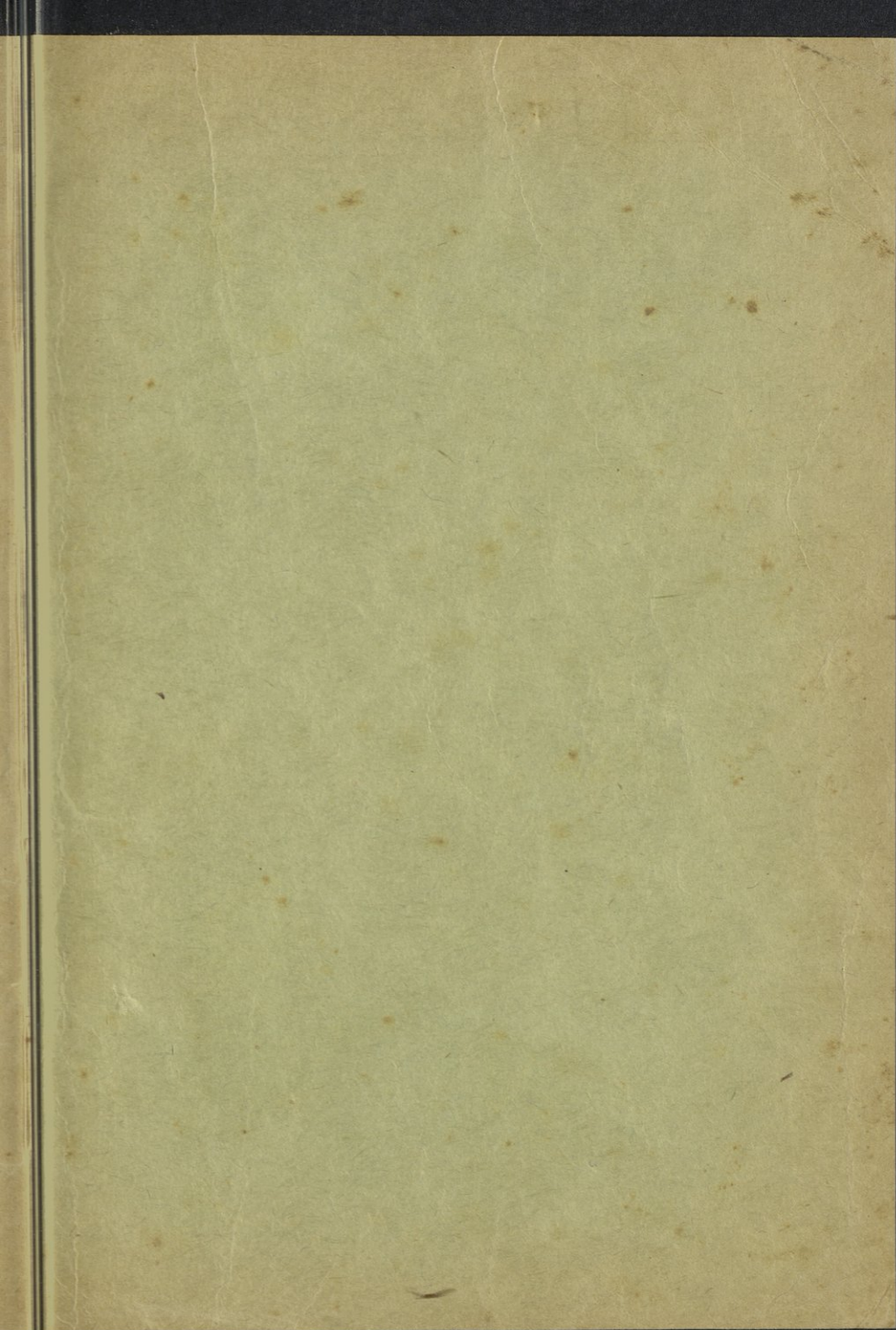


الخطاطى

307.72
A147r A
C.1

الديوان الصغير

مكتبة ومطبعة الورف
القاهرة



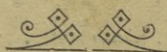
منوالها في بلادنا ، وهناك معدات لدراسة الآفات الزراعية ،
فأرجو أن تبحث كل ما يتعلق بها ، لتستفيد البلاد مما وصلت
إليه أمريكا ، ولنا في كليفورنا قنصل نشيط ومجتهد ،
وكليفورنا مشهورة بإنتاج الفواكه والخضر ، وهي تبعد
سنة أيام عن العاصمة ، ولكنك تستطيع أن تذهب إليها
وترسل إلى الحكومة نتيجة مشاهداتك . »

ولست أجد ما أتوج به كتابي هذا ، أفضل من ذلك
العطف السامى النبيل ، الذى يغمر به جلالة الملك المعظم ،
فلاحنا المصرى العامل . هذا العطف الذى يعرفه كل من
تشرف بمعرفة جلالته ، أو سعد برؤية حال المزارعين
في مزارع الخاصة الملكية ، والذى أثار إعجاب المسيو
« المايير برتو » الخبير الفنى الفرنسى ، فقام فى المجمع الزراعى
بباريس ، فى ٢١ من نوفمبر الماضى ، يتحدث كبار الفرنسيين
وذوى العلم والخبرة منهم ، عن النجاح والتقدم العظيمين ،
الذين شاهدهما فى مزارع الخاصة ، وعن عطف جلالة

الملك فؤاد على طبقة الزراع ، وما لهذا العطف من حسن
التأثير والنفع في البلاد كلها .

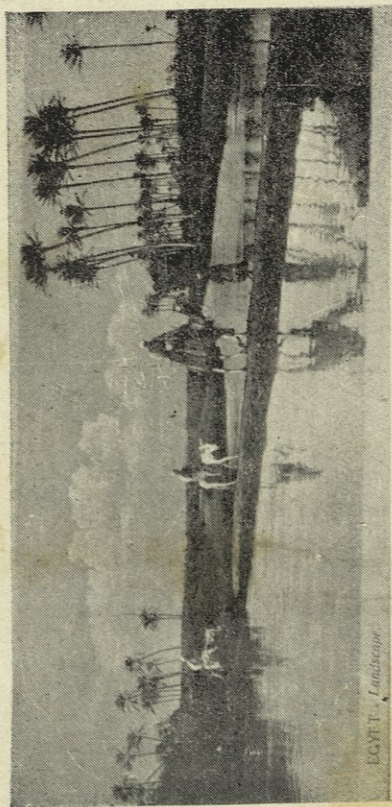
ولن يضيع الفلاح ، مادام له من هذا العطف السامى ،
نور قوى يبدد شيئاً من الظلام الحالك الذى يعيش فيه .

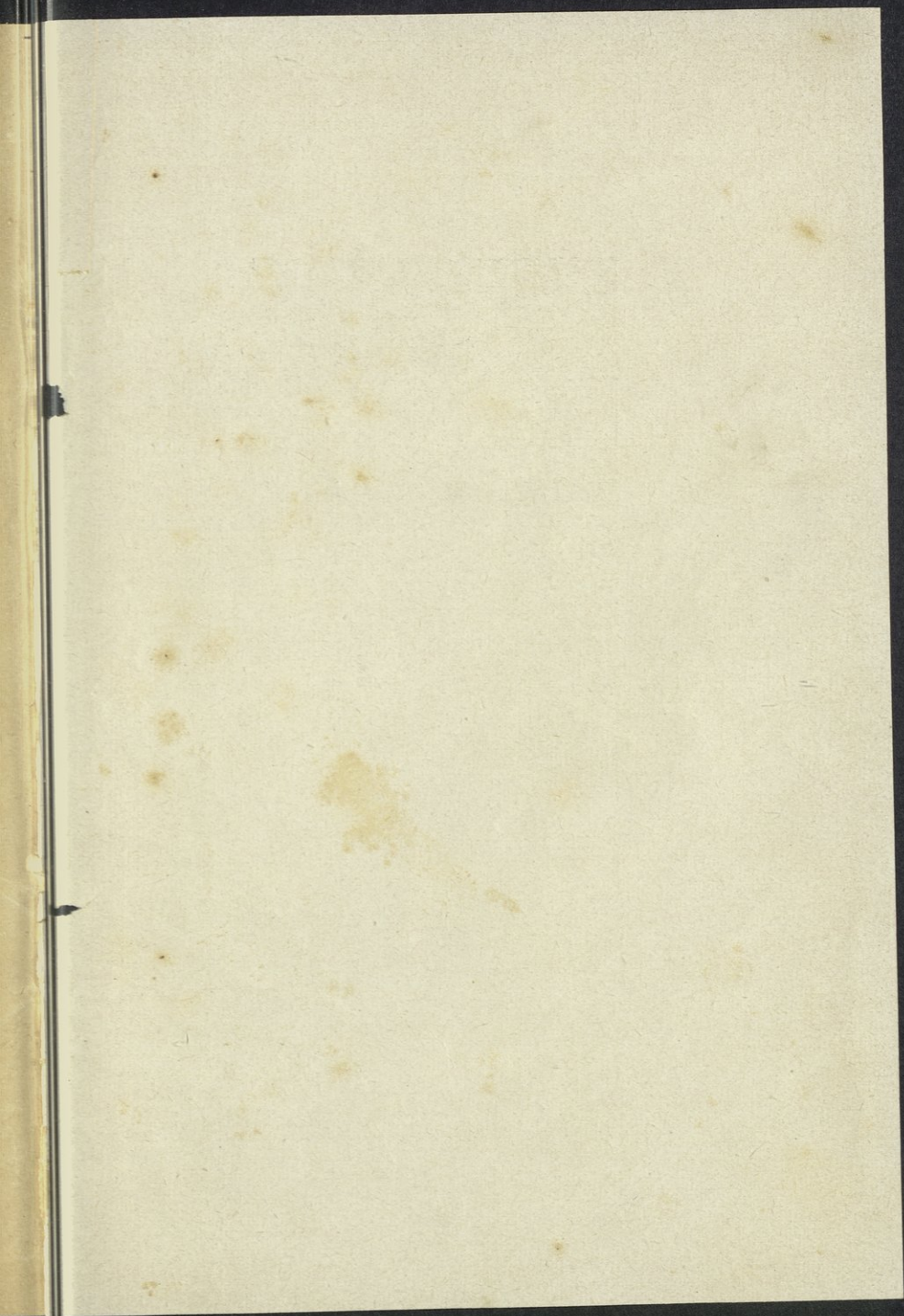
أبنة الصاطىء



6246-9429

مهل الريف ، وفية الطبيعة





القسم الاول

شقاء الفلاح

فهرمنا المسكين ، كم نظمه !

قال لى الطبيب : أسبوع واحد فى الريف المصرى
الجميل ، كفيل بتهدئة أعصابك المتهبة وإراحة نفسك المتعبة
المكدودة :

فذهبت إلى الريف ...

ريف مصر الساحر الوديع ، ألتمس فى سكونه نوعاً من
العزاء ، وأنشد فى بساطته ، راحة البال وهدوء الذهن
المرهق .

دخلت القرية وكأنى خلقت ورأى دنيا الضجيج والثورة
وطالعتنى صديقاتى الريفيات بوجوههن الكريمة المرحمة ،
فرأيت فى ابتساماتهن القانعة ، شيئاً كثيراً من العزاء ،
ووحياً يغربنى بوضع الحمل الثقيل المرهق الذى يرزح
كاهلى تحت ثقله ، ثم استنشقت نفساً طويلاً عميقاً وددت

فيه لو أحتوى كل ذلك الهواء المنعش فى صدرى الملهب .
وفى طريقى مررت بالفلاحين . . . جيش مصر العامل
القنوع ، وكنز رخائها ونعمتها ؟ فأدركت مقدار إهمالنا
هذا الفلاح ، وتنكرنا له وإنكارنا إياه ؟

الفلاح المصرى . . رمز الشجاعة والكرم ، حتى ليجود
بلقمته التى يتبلغ بها ، ومثال النخوة والإيثار ، تتمتع نحن
على حساب دمائه وقوته وساعده ، ثم لا يضحج بالشكوى ،
ولا يبدى التذمر والثورة ، صورة الرضاء والقناعة ، يعمل
طول يومه ثم تكفيه الكسرة اليابسة ، ابن الطبيعة والفطرة
ومثال الصبر والتقوى والإيمان .

فلا حنا المسكين كم نظلمه !

منذ دبت الحياة فى وادى النيل ، والناس ينظرون إلى
نهر النيل الذى تخفق فيه ومنه الحياة ، نظرة الإكبار والدهشة
تسامى هذا الإكبار حيناً من الزمن إلى درجة التقديس
والعبادة ، وارتفع إلى حد اليقين بأن حياة الملايين من سكان
واديه ، تكمن فى مياهه الدافئة العجيبة ، الخائفة الغنية .

وبين تقديس آبائنا لمياه النيل ، وعظم تقديرنا لفائدة النيل ، جحدنا اليد العاملة التى تستغل الحياة السكامنة فى مياه النيل ، وألهانا ذلك السحر العجيب الذى ينفثه النهر فى صميم الصحراء الملتهبة ، فيجعلها جنة ناضرة ، عن ذلك المخلوق الذى أظهر عظمة النيل ، وأتاح السبيل إلى تحقيق المعجزة . . . معجزة وجود الجنة المصرية بين ذراعين ملتهبتين من الرمال التى تغلى الدم وتصهر العظم !
وإلا فليمض الفلاح بعيداً ، هل يكون النيل بعده إلا دموعاً تسيل على الشاطئين فى كرم وإسراف ، كأنما تبكى ابن النيل البار ؟ !

الفلاح المصرى !

اليد الكريمة العمياء فى كرمها ، تعمل وتشقى حتى تحصل على أشهى الخيرات ، ثم تنثرها على بنى وطنها الجاحدين ، ولا تنظر هل فيمن يتمتع بشمرة كدحها عدو جاحد ! فما أبلغ هذا العمى الكريم ، وما أنبل ذلك الكرم الأعشى !
ساعد مصر وعضدها الأقوى ، وابنها القنوع البار ، والجواب الساخر اللاذع لمن يقول إن من يزرع يحصد !

يا رحمة الله ! كم زرع فلاح مصر منذ دبت الحياة في
وادي النيل حتى الآن ! كم يزرع وكم يجد ، فهل حصد
الفلاح ؟ أجل حصد ولكن لكل الناس إلا له ولأولاده ،
إنه يجهز الوليمة دائماً لبطونتنا النهمة ، لا لبطنه الجائع
المحروم .

النشاط الذي لا يفتر ، والجسم الذي لا يستقر ولا
يهدأ ، والآلة التي تعمل ولا تقف ! ولكن ما الذي جناه
ويجنّيه ؟ الطعام يتباغ به ؟ جرعة الماء النظيفة يرتوى بها ؟
الكساء السليم يستتر به ؟ اللهم فاشهد . . .

لقد يمضي النهار طويلاً بطيئاً كأنه عمر من الشقاء ،
وكل ما يناله الفلاح المسكين قرصان من أرغفة الذرة الجافة
وبضعة أعواد من حشائش الأرض مهما تفننا في تسميتها
(شيكوريا ، جعضيد ، جلاوين) فلن تزيد على الحشيش
الذي نشتره للأرانب .

وأما المياه ، ففي كل جرعة يتناولها آلاف الجراثيم ،
تعمل معنا على استنفاد جهود ذلك المخلوق ، واستلاب
قواه ، وتأتي في مهل على ما احتازه من جلد واصطبار ،

وتأى عليه أن ينعم حتى بلمقمته الجافة القدرة ! ولباسه ؟
أقسم غير حائثة ، أن منه مالا يكفي ولو لستر العورة !

ذهبت إلى الريف ...

كانت الأرض تتفجر بالحياة ! حتى لتكاد قطراتها تنز
على سطحها ... امتلأت الأرض شبعاً ورياً فبدأ سطحها
يهتز نباته حياة وجمالاً وسحراً ! وبدأت الأشجار في عنفوان
شبابها وقوتها مشقلة بأثمارها الشبيهة الحافلة بذخر حلاوتها
وقد أثقلها الحمل فأحنت رأسها في حياء العذارى وارتعشت
كلها لامسها الهواء أو غردت فوقها الأطيوار تغريداً يملأ
المسكان سحراً وفتنة وجمالاً !

دنيا حافلة بالروعة ، وحياة ممتلئة بالحياة !

لقد رواها النيل !

نعم ، ولكن لولا اختلاط الماء بعرق الفلاح المسكين
لما كان لهذه الجنة الناضرة حياة ، ولما كان للأرض بالماء
اكثفاء !

وغذاها الغرين والسماد !

أجل ، ولكنه غذاء جاف ما كانت الأرض لتتضممه

إذا لم يمزج بعرق الفلاح ولولاه إذن ماقيمة الماء، وما
نفع الغذاء؟

وهذه الأشجار الفارعة الهيفاء، وتلك الأرض
المكتنزة الحية، هل فكرنا في ثمن حياتها الذي دفعه
الفلاح؟

لا: ولم التفكير وفيهم العناء، مادمننا نرى خيرات
الأرض تملأ الأسواق ناضجة شهية؟!

لقد تثمر الأرض أشهى الثمرات وأطيب الفاكهة،
وأغذى الطعام، فيجمعه الفلاح وبنوه، ويذهبون به إلى
الأسواق لا إلى الدار، ويتعamy المسكين عن نظرات بنيه
الجائعة المحرومة، تحملق في ثمرة جهادهم في لهفة وعجب
بالعين!

وقد تعبث أيدي صغاره بالثمر الشهى الذى لم يتذوقوه،
وتحدثهم نفوسهم الطفلة بتذوقها ولو بدافع غريزة حب
الاستطلاع، فيمنعهم أبوهم متكلفا الجذ، متغافلا عن
الشهوة المحتلجة في أعينهم، وفي قلبه حسرة أليمة لولا الإدارة
لا انفجرت نائرة هدامة، وفي عينيه دموع حبيسة لولا الحياء
لسالت وانهمرت غزيرة ملتبة!

يقتلهم الجوع وأمامهم الطعام الشهى ، ثم لا تستثيرنا
حالتهم ، نحن الذين تتكلف الآسى والحزن حين نردد
قول الشاعر :

والعيس في البيداء يقتلها الظما * والماء فوق ظهورها محمول !
لطالما أجهد الطفل جسمه في مساعدة أبيه ! يسوق
الحمار إلى الحقل عشرات المرات في اليوم ناقلا السباخ ،
تحت لهب الشمس المحرقة ، وفي قسوة البرد العاتى ، ومتى
جاع مديده الشاحبة النحيلة إلى جيبه ، يتناول لقيمات الذرة
الجافة ، لا تسمن ولا تغنى من جوع ، ولقد نراه ونرى
الحمار قد أثقله الحمل ، فشور للحمار ، ولا نرحم الطفل المسكين !
فما أعجب رياءنا ! الحمار أكرم لدينا من الفلاح !
والحيوان ينال من رحمتنا ما لا يناله أخونا الإنسان !

في تمتعنا بجمال الريف وجلاله ، وفي إعجابنا بالزرع
الحى النامى ، ننسى هذه المخلوقات الشاحبة الهزيلة ، تتحرك
كالأشباح المترنحة بين الأشجار النامية الخضراء ، وتعالى
عن النظر إلى تلك الوجوه الصفراء ، وهذه الأجسام
الذليلة المسكينة ، تخدمنا فى صمت أليم ، وتبذل قواها قطرة

قطرة في سبيل تمتع بطوننا الشرهة التي لا تشبع !
والفلاحة في دارها أيضا ؟ ! تصنع الزبد والسمن
والجن وتربي الطيور وتعتنى بالبيض ، حتى إذا ما حان
موعد سوق القرية ، جمعت هذه الأشياء في حسرة ألمية
ظاهرة ، لأنها تعلم مبلغ اشتهاؤها لهذه الأطعمة ، وليس
للرأة الضعيفة مثل جلد الرجل ومداراته ، وباعتها في
السوق ، واستبدلت بها كمية أوفر من الشحم الرديء ،
والزيت الرخيص ، كما باع زوجها القمح في سبيل مقدار
وأفر من الذرة !

وبين تجلد الأب الفلاح ، وجزع الأم الفلاحة ، يقف
الأطفال ذاهلين مبهورين ، لا يفهمون لماذا يأكل الناس
دونهم ثمرة كدحهم ، ولا تساعدهم عقولهم الطفلة على
فهم هذا الظلم المرهق !

فيا لله ! لشد ما نرهق عقل هذا الطفل ، ولشد ما نظلم
الإنسانية فيه !

هذا هو الفلاح فماذا فعلنا له ؟ ؟
لقد تعاونا حكومة وأفرادا على التفنن في ظلمه وإرهاقه ،

فهو لا يسلم من سخریتنا وازدراءنا ، وننسى أن هذه اليد
القذرة - كما نسميها ! - قد مهدت لنا سبيل الاستمتاع
بأشهى الخيرات .

أما الحكومة فلا هم لها إلا إرهاقه بمختلف الضرائب ،
فهل نقت له المياه ؟ أو عاجته من أمراضه أو أصلحت مسكنه
أو علمت أولاده ؟ اللهم لا شيء من هذا كله ، فساكن
الفلاحين لا تعرف الشمس ولا الهواء ، وطرق القرية
تعلوها الأتربة وتمأؤها الأقدار ويعمها في الليل الظلام ،
والمياه التي يشربها قدرة ملوثة تحمل له البؤس والشقاء !
والمضحك المبكى أن الحكومات تأخذ من مال المسكين ،
لتمهد لنا معشر سكان المدن ، حياة ناعمة مترفة ! ترصف
الطرق وترشها وتنظفها ، وتفتح المدارس ، وتنير الطرق ،
وتكثر من المستشفيات ، وتتمتع وإيانا على حساب فلاحنا
المسكين !

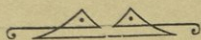
يحلو لي أحيانا أن أفكر في مصير ميزانية الدولة ، إذا
حذفنا من أبوابها ضرائب الفلاح ، وأجر نقل محصولات
الفلاح ، ورسوم تصدير ما ينتجه الفلاح .

ارحموا الفلاح ...

إلى القرية يجب أن تتجه ، وفى إصلاحها يجب أن تبذل الجهود ، والحكومة مسئولة أولا وآخرا عن انحطاط حال القرية ، وعن الشقاء المخيم عليها ، وعن البؤس الذى يعيش فيه المزارعون ، ولئن لم يكن لها يد فى جوعهم وحاجتهم ، فعليها تبعة اللوم فى قذارة المياه ، وانحطاط المساكن وانتشار القذارة والجهل والأمراض .

يظهر لى أن الحكومات المتعاقبة تتجاهل القرية حتى لتكاد لا تشعر بوجودها ، فليت شعرى أية يد رحيمة حازمة ، تلك التى ستوقظ الأمة من تغافلها ، وتنهبها الى واجبها ؟ !

أخيرا لقد عدت من القرية ، دخلتها بأئسة تعسة ، وخرجت منها أشد تعاسة وشقاء ! وعفا الله عن الطيب ، نسى أن فى الريف ما يشوه جماله ، وأن بجانب فتنه بؤسا يبعث الحزن من مكمنه ويشير الأسى من أعماق القلوب !



جرعة ماء !!

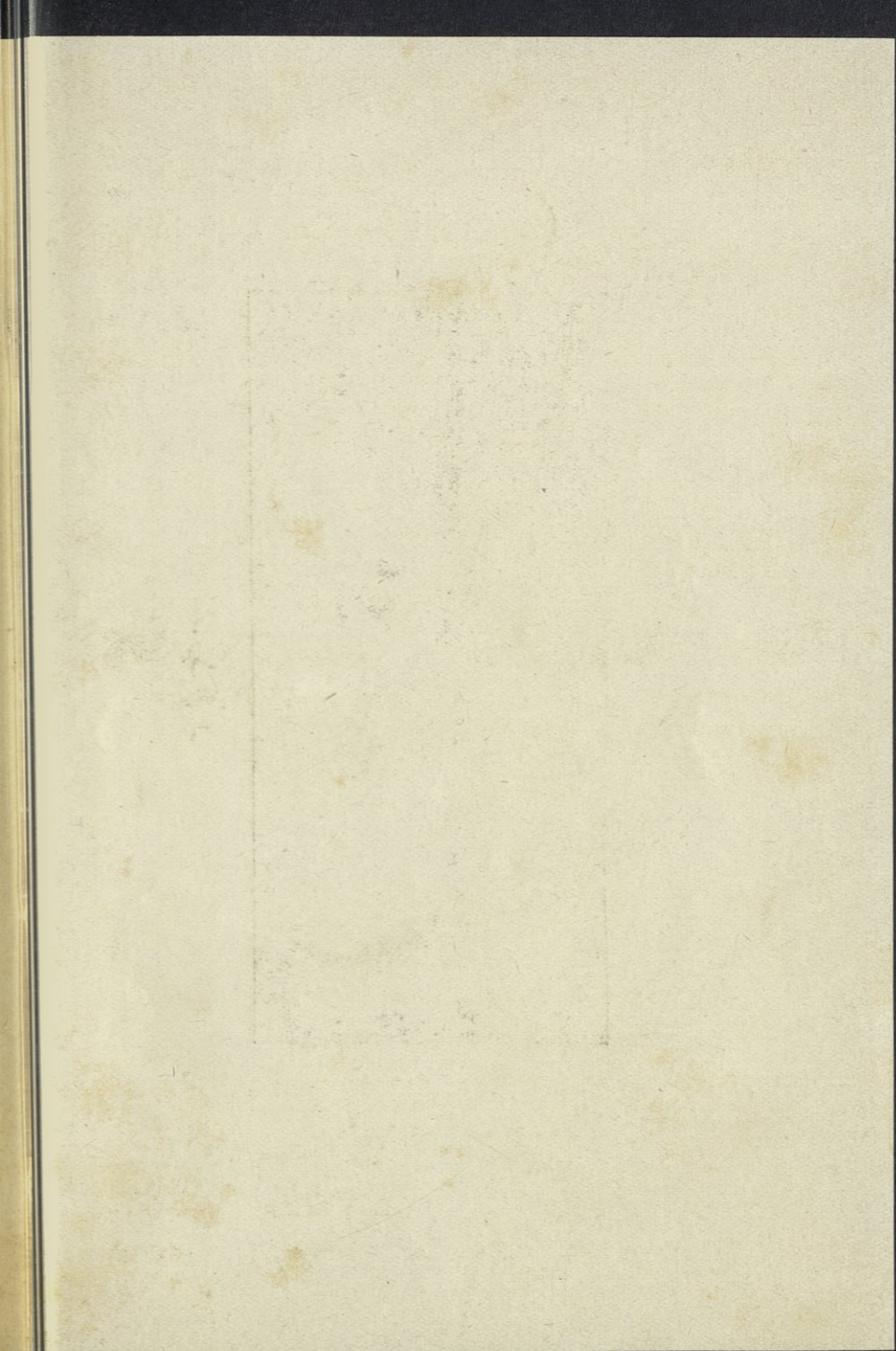
شعرت بالخجل يشيع في جوانب نفسي حين انتهى إلى
حديث أفراد العائلة التي أضافتنى في القرية ، يتناقشون في
فناء الدار حول طعامي — كما توهمت — وأحسست بحزن
أليم يهد كياني حين سمعت صديقتي القروية تقول :
لا . . . أتم تقسون على بالخاصكم ، أنا أخجل من
تقديم مثل هذا إليها !
ارحموني . . .

وقال أبوها الفلاح الشيخ في صوت منخفض :
أؤكد لكم أنني لن أجرو على مواجعتها وفي يدي مثل
ذلك الإيذاء القذر !
كيف تنظر إلينا بعد الآن ؟
وقفزت من القاعة في حزن مجنون ، وتفرست
في وجوههم الشاحبة الذليلة ثم قلت في تأن :

نشرت في الأهرام الغراء في ١٢ من يولييه سنة ١٩٣٥



حاصلون الجرار



- أنتم تخجلونني وتعذوبونني دون أن تشعروا! كيف
يطلب لي المقام بينكم ، وأنتم كما أرى تخجلون من تقديم
طعامكم إلي! كأنني ولدت وفي فمى ملعقة من ذهب ..
وفروا على أنفسكم هذه المشقة ، فلست أكذب حين أوكد
لكم أني أمقت التأنق في الطعام . فكيف به إذا صحبه التكلف ؟
أشعروني بأنني فرد منكم حتى لا أحس بثقل عليكم ، وهذا
وحده لعمرى كرم مبین .. واذكروا دوماً أنني لست ثرية
ولا مترفة !

شيء آخر ، أريد قليلا من الماء البارد ، فإني متعبة
مكدودة أحس بظماً شديداً .

وصمت وصمتوا : ولم يجرؤ أحدهم على رفع نظره إلى ،
وأخيراً عثر كبيرهم على لسانه فقال وهو يتكلف ابتسامة
كاذبة حزينة :

هذه هي العقدة ، فنحن لا نملك ماء ! وفي هذا تناقض
لا حول طعامك كما تتوهمين .

قلت وأنا لا أكاد أفهم : ماذا تعنون يا أصحابي ؟ أو
لا تشربون أنتم هنا ؟

قال الشيخ : نحن نشرب والحمد لله ، ولكننا ماء قدر
ملوث .. وليس لجسمك مناعة أجسامنا واحتمالها . تلك
الأجسام التي تعودت شرب هذا الماء .

وقالت الصديقة وهي تكاد تبكي : لقد ظلمتني يا أختاه
بهذا الموقف الحرج ! لماذا لم تخطرينا قبل قدومك ؟ كنت
على الأقل أذهب إلى بنها وأشتري « نوى المشمش »
لتنقية المياه .

وخاتنتي قواى ، فضيت إلى القاعة أتعثر فى خطاى
لا تكاد تحملنى قدماى ، وارتيت على الحصر وأنا أردد
فى ذهول : فى مثل هذا المكان يتوهم الطبيب أنى أستعيد
هندوئى وقواى ؟ يا بؤسهم ويا بؤسى بهم ! ثم تذكرت المثل
الذى ترده أمى دائماً « يا بختها اتبعها ، أينما راحت روح
(اذهب) معها »

لا يجدون ماء صالحا للشرب ؟ ! ارحمهم يا الله !
وتناولت الكوز وأنا لا أشك فى أنى سأقذف بمائه فى
فى جوفى بلا تردد ، لأثبت لهم تواضعى أولا ، ولأطفيء
ظمئى الملتهب ثانياً .. ولكن شجاعى الكاذبة تبخرت حين
نظرت فى الماء .

كدت أسألهم: هل تثقون في أن هذا ماء؟ فليست له تلك الشفافية المغربية التي تطفىء اللهب، وهذا اللون الأسمر الضارب إلى الحمرة يذكرني بما حفظته وأنا طفلة غريبة في درس « خواص الماء » الماء سائل شفاف لا لون له ولا رائحة.

سألتهم من أين أتيتم به؟
قالت الصديقة: من الترعة.

من الترعة يشربون كما تشرب البهم والدواب وكما تشرب الأرض. وفي الترعة يغسلون أوانيهم التي فيها يأكلون، وينظفون الخضرة إذا تفضلنا عليهم ونصحناهم بغسل الخضرة قبل أكلها!

قطرة من هذه المياه قد تحمل ملايين الجراثيم والديدان يخرج أغلبها مع براز المصابين بالبلهارسيا والانكلستوما - وهم جل أهل القرى باعتراف مصلحة الصحة - فتعوم على سطح الماء، وتمكث هناك في تحفز وترقب وانتظار، حتى إذا ما أحسست بحرارة أجسام إخواننا الفلاحين وأخواتنا الفلاحات، التصقت بها تنشد الدفء وتطلب حقها من الحياة، وفي بطنها تخرق جلد هم الضعيف في

طريقها إلى الأمعاء ، حيث تكمن هناك ، تتوالد وتتكاثر .
وتتغذى بدماء الفلاح المسكين بينما لا يجد هو ما يغذيه !
ولا تصدقوا أن قرويا واحدا أو قروية واحدة تستغنى
عن الذهاب إلى التربة ، إلا في النادر القليل .

وهم يعلمون يقينا أن جرعة الماء تحمل إلى أجسامهم
الداء ، ولكن ما حيلتهم وأين المفر ؟ لم يخلق بعد ذلك إلا إنسان
الذى يموت ظمأ وأمامه ماء ملوث يرفضه . . . وهم قبل كل
هذا بنو إنسان ، يحملهم التشبث بالحياة على قبول آلامها ،
فيجب ألا يخذعنا هذا التشبث منهم عن حقيقة مرة دامية
وهي :

« إن الفلاحين يتشبثون بحياتهم ولا يقدمون على
التخلص منها لأنهم متدينون ، ولأن هذا منشؤه غريزة
الحرص على البقاء وليس حب الحياة لذاتها »

وأى شيء في حياتهم يحب ؟ إن الرجل منهم ليشقى
طيلة يومه وينهك جسمه ، بينما تبخر حرارة الشمس المحرقة
ما أبقته الأمراض من قطرات قواه . وليته بعد هذا كله
يجوع فقط ، ويسلم من قسوة المحصلين ، وسخرية أهل
المدن ، وظلم المرابين ، وعار الدين وفتك الدماء ، وعذاب

النظر إلى الدودة وهى تلتهم ثمرة كده وتعبه أمام عينيه ،
وترك شجيرات القطن الخضراء التى ارتوت بعرقه وقوته ،
عيدانا مجردة ، ينفطر لها قلب الفلاح ، وتتخاذل أمامها قواه .
يا رب يا أرحم الراحمين ، إنهم يشقون لنا ويكدون
فى سبيلنا ، ألئن رفضوا العمل وظلوا عاطلين ، أقتسوه حالهم
عما هى عليه الآن ؟ !

حين يدركننا العطف على الفلاحين والرثاء لهم ، نردد
بضع نصائح صحية ، ثم يتنفس كل منا تنفس الارتياح ،
ويصمت بعد أن أدى واجبه (!!) ومن هذه النصائح
« اغسلوا عيون الأطفال دائما بالماء »

وفى القرية شاهدتهم ينفذون النصيحة مخلصين ، ولكن
بماء التربة . فهم يغسلون تلك العيون المصرية الجميلة التى
تفيض سحرا وحيوية ، بتلك المياه القادرة الملوثة .. فتحمل
تلك المياه بعد ملامستها العين ، كل ما فيها من فتنة وجمال ..
ويا لفداحة الألم حين يلح الإنسان تلك الزهرات الناضرة
البريئة ، يفتك بها الرمد ، ويفترسها الصديد ، ويذهب
بها الماء القدر ، وبنورها العمى الحزين !

وللأثرية المتصاعدة دوا من طرق القرية التي تجهلها
الحكومات ، يد لا تنكر في مضاعفة الداء .
ولذلك أصبحت مصر بلد العميان ، لأن أمتها عن
الفلاح عمياء !

كما افترست البهارسيا والإنكلستوما ملايين الأجسام
المصرية القوية القادرة على خدمة مصر ، لأن الحكومة
تضن عليها بجرعة ماء !

حدثت نساء القرية طويلا في جمال أعين أطفالهم الذي
يذهب به الرمد ، فكان جوابهن الباكي الحزين : مادنا
نرى موضع أقدامنا ، فالشكر لله ! يا لصدق الإيمان ، ولكن
ما أهول هذا الشقاء !

هذه الطفولة الشقية المحرومة ، وتلك الأمومة الذليلة
المعذبة كيف نجروا في مصر على تغافلها ؟ !

إن في هذه الأجسام الذليلة ، دليلا على أننا سائرون إلى
نهاية محزنة ، ورحمة الله لمصر يوم تفتح عينيها فترى أعضاءها
العاملين قد فتك بهم الداء ، وسممهم الماء ، وذهب بقوتهم
الجوع والذلة والشقاء !

ويومئذ ما أتعس مصر بأبنائها الفلاحين الأشقياء !

هؤلاء الذين لو منحوا الفرصة ليعيشوا حياة ممكنة ، لأمدوا
مصر بأمتن ثروة وأقوى حياة ! ورحم الله حافظ بك
ابراهيم شاعر الشعب والبؤساء الذى قال :
أيشتكى الفقر غادينا ورائحنا

ونحن نمشى على أرض من الذهب ؟

فيا حافظ ! لقد مرت على وفاتك سنوات ثلاث ، لم
يذكر القوم فيها آمالك وآلامك . وهاهى الأرض توشك
أن تصير كالماحلة الجرداء ، لأن اليد الوحيدة القادرة على
إخراج الذهب ، أضحت هزيلة ضعيفة ، ونحن عنها لاهون
ولو أنصت القوم لسمعوا صوت قيثارتك الحزينة لا يزال
يرن فى أفق الوادى شاحباً ، داوياً باللوعة والآنين .

لقد وجدتها !

هكذا صاحت صديقتى الفلاحة وهى تحمل فى يدها
الخطب وتوقد النار ، لتغلى المياه قبل أن أشربها ، ولمح
أبوها حرارة الظمأ وشهوة الشرب تلمعان فى عيني فغاب
برهة ثم عاد يقدم إلى « بطيخة » أروى بها الظمأ .

يا للسخرية اللاذعة الأليمة .

ذكرت في ألم مستبد ، تلك الأحواض المنتشرة في أنحاء
المدن ، ليشرب منها الحيوان ، وتمنيت لو أن حوضاً واحداً
ينتقل إلى القرية ليشرب منه أخونا الفلاح . الإنسان !

بجانبى الآن رسالة موقعة باسم - بنات القرى - تفضلت
(الأهرام) فحولتها إلى . وإنها لرسالة حزينة جياشة
الأثر ألمح في سطورها النارية الملتهبة ، ذلك العذاب الأليم
الذى يعجزنا ترفنا عن تخيله . وتبدو كلماتها أمام عيني
مترافضة كأنما تترنح ترنح الأشباح .

« هيه يا ابنة الشاطيء ؟ كم نحن بحاجة إلى قلبك فدعيه
يتكلم ولا يغلبك الأسى علينا فتسكتي ! لقد لمست حقاً
بزيارتك لنا موضع بؤسنا وشقائنا ، قولى لولاة الأمور
يا ابنة الشاطيء الماء . الماء الماء ؟ فقط هذا ما نطلبه ، قولى
لهم وزيدى فى القول إن الماء فى القرى هو أصل البلاء الماء
الذى يحمل إلى أجسامنا الداء ، لقد انتابنا منه ما يكفى لقتلنا
أفلا يكفى كل هذا الزمن ؟ نعطيكم من دمنا وأرواحنا ما فيه

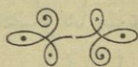
سعادتكم ، فهلا تعطونا مقابل ذلك ماء صافياً ؟ يا لله كم
تظلمونا حقاً »

وهأنذا أصرخ يا أخواتى وأسأل الحكومة هل يعجز
رجالها عن تمهيد الماء الصافى لرعاياها ؟ أنا لا أفهم السبيل
إلى تحقيق هذه الأمنية المتواضعة ، ولكن الذى أفهمه أن
إخواننا الفلاحين يجب أن يعيشوا ، وأن ينالوا جرعة
الماء التى يطلبونها .

لقد قرأت منذ عهد بعيد ، أن لجنة اجتمعت لبحث
مسألة الماء فى القرى ولكنى قليلة الايمان بفائدة اللجان فى
مثل هذه المسألة الحيوية ورأيت أن المسألة أخطر من أن
تبت فيها لجنة يجتمع أعضاؤها ساعة وينصرفون على أن
يجتمعوا فى فرصة أخرى ، إننى أريد علاجاً حاسماً شافياً .
إن عمق شعورى بشقاء الفلاحين ، يشل ملكة
التفكير فى دماغى ، ولكنى أفهم أنه قد آن الأوان لأن
تنشأ فى مصر البلد الزراعى المحض ، مصلحة دائمة تدعى
- إصلاح القرية - وأعرف أن الحكومة التى استطاعت
أن تمهد لسكان المدن ماء نظيفاً مرشحاً ، تستطيع أن تفعل
مثل ذلك فى القرى تدريجياً بحيث تبتدى بأشدها ازدهاماً

بالسكان وإلا فهل قدر هؤلاء المساكين أن يعيشوا إلى
الأبد ، تلك الحياة التي لا نرضاها للحيوان عندنا ؟ اللهم
فارحم .

وبعد فيقيني أن ولاية الأمور في مصر لن يرضوا على
ظامئ بجرعة ماء لو لم يجدها لمات ظمأً أو تناول ماء يحمل
الداء ، ولا على هؤلاء التعساء بنظرة عطف ، لو لم يلبسوها
في وجوهنا لجحدوا وأنكروا الرحمة في قلب الإنسان .



الجمال المسوّه الحزين

لعل مضيفتي القروية أحست بكبريائها جريحة مكرومة
حين لمحت مرارة الفشل وألم الخيبة يبدوان في قسوة على
وجهي حتى ليجوز في الرثاء ! فلم يكمد يستقر بنا المقام حتى
علاها ذهول واجم حزين ، ثم أشرق وجهها فجأة ودنت
منى وهى تقول فى نبذة هادئة :

- أشعر فى أعماقى بأنك لم تجدى فى الريف الراحة التى
كنت تبغين ، ولكن فيم اليأس ؟ يجب ألا يصرفك أول
الشيء عن آخره ، وإن وراء هذا الشقاء الذى يبدو لك فى
القرية ، جمالا فاتنا ما أشك فى أنه سيفتنك عن القاهرة
بضجيجها وضوضائها ، وعن الجيزة بسكونها وجمالها !

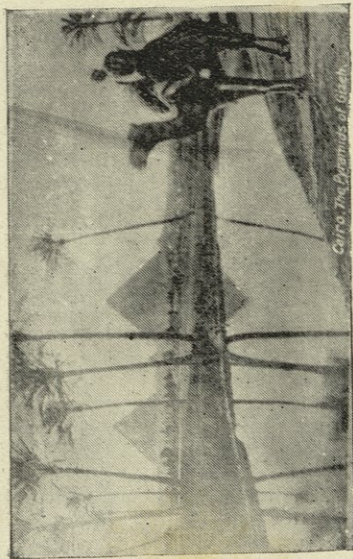
وكانت الصديقة تعلم أننى لم أقصد الريف لأقضى فراغا
ضقت به ذرعا ، أو أعالج مللا شعرت به من حياة تجرى
على وتيرة واحدة ، وإنما هى رغبة الطبيب التى لا ترفض ،
وأمره الذى لا يرد .

وسألتها فى رفق حنون ما ذا أعددت لنا فى القرية

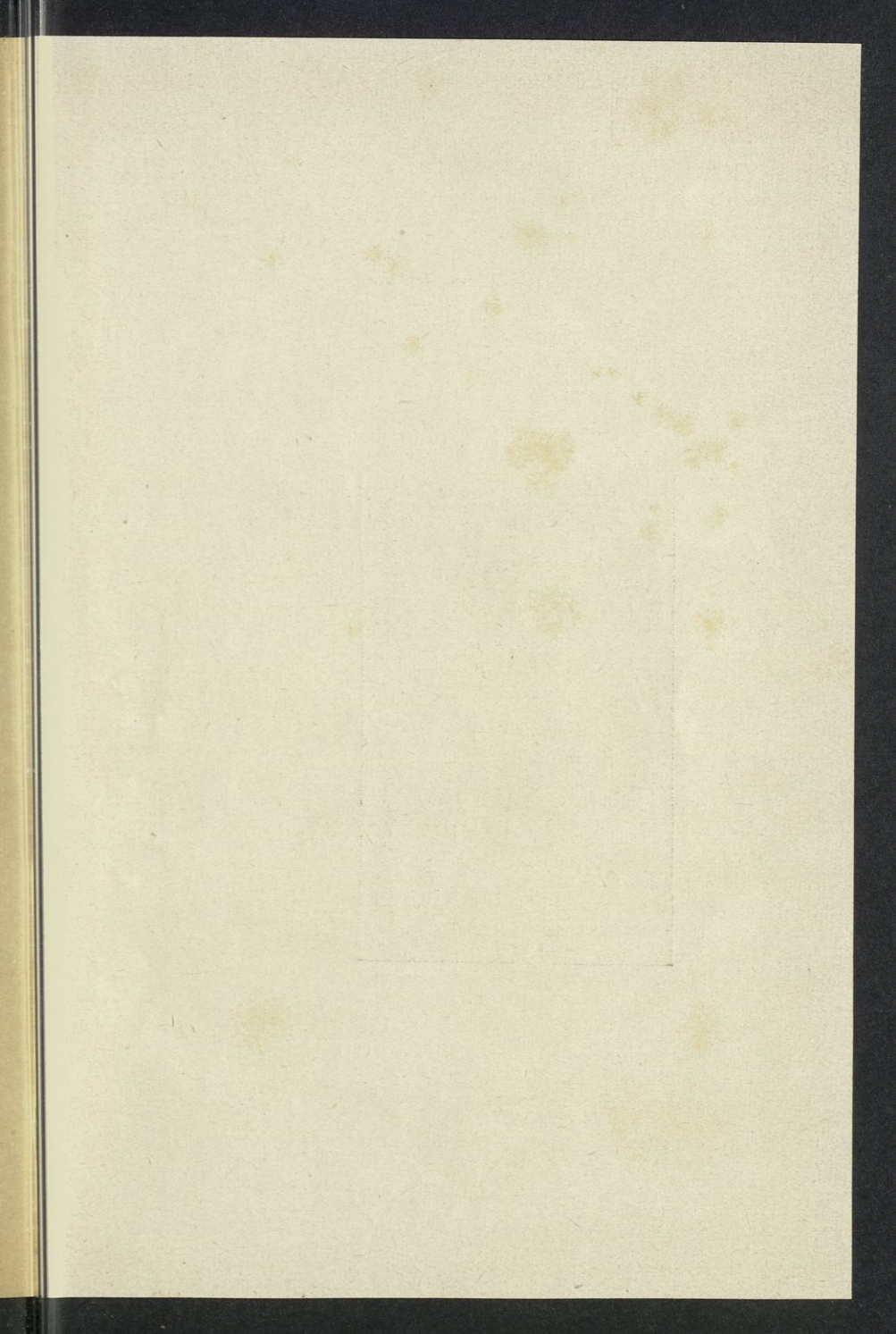
يا أختاه؟ قالت : حين تتثاءب القرية بعد ليلها المظلم أى ظلام ، وحين تدب الحياة فى كل الكائنات بها ، سيوقظك حفيف الشجر وخرير الماء وتغريد الطيور التى هى أسعد طيور العالم جميعا ! وسينذكرك هذا بضجيج العربات والترام والباعة المتجولين فى القاهرة ! وفى لحظة قصيرة تكونين قد لبست الثوب القروى الواسع الفضفاص ، متحررة من قيود أزياء المدينة وما تسلب من وقت وتضيع من فائدة صحية محققة ، وبين الحقول صباحا نسير ، نستنفذ بأعيننا وعقولنا وقلوبنا جمال الشروق الرائع ، ونملأ صدورنا هواء طيبا باردا .. وتلحين عن كשב كيف تنهض القرية كلها من الرقاد ، وكيف تبعث من موت يفرضه عليها الطبيعة والظلام ، وتفتح ذراعها للنور والهواء ... تلك تعزية صادقة ... هل تنكرين ؟

وأشرق الصباح رائعا ..

كان أجمل شروق شاهدت ، يطلع على أتعس قوم عرفت ! كانت الأشعة الذهبية الصفراء تتغلغل بين النباتات الخضراء فتمنحها الدفء والحياة بما يكمن فيها من سحر ،



الخلود والروعة والحياة في
 اهرام مصر وبريفرا ونيلها



وتلمس سطح الحقول بعصاها السحرية ، فتحدث فيه رعدة
حية ، تبدو في موجات متتابعة متلاحقة ، تذرع الحقول
جميعا في حنان بالغ عجيب ، بينما تلتوى القنوات بين الحقول
وتنسب ، في خرير متسق هادئ ، له نوع من الموسيقى
الغامضة الساحرة !

إن مجرد التفكير في متاعب النفس وآلام القلب ،
نوع من الجناية والامتهان لقدسية ذلك الجمال ، وفيه انتهاك
لحرمة تلك الفتنة الرائعة !!

ولكنني نهضت - ولا أدري كيف وفقت - إلى التحرر
من أثر ذلك السحر والتفت حوالى أتأمل وأرى عجبا ...
بجانب هذه الأشجار الهيفاء الحية المثقلة بأحماها ،
أجسام نخيلة شاحبة مثقلة بالآلام والمتاعب والأمراض ،
تبدو كأنما تدب إلى القبر ، وتهدى إلى حياتنا العاجلة آخر
أنفاسها .

وفي جوار هذه الحقول التي تنبض بالقوة والحياة
والشباب ، برك راكدة ، تحمل في ثناياها وعلى سطحها
عوامل القضاء على فلاحنا المسكين ، وتكاد أبخرتها العفنة

تسبب الهواء الذى يستنشقه ، وتطغى على عطر الرياحين ،
وعرف الورود ، وشذا الأزهار .

وهذه الطيور التى سعدت بموسم الحصاد ، وأحست
بالربيع وهو شباب الدنيا ، يبعث فى أجسامها النشاط
وشباب الحياة ، تملأ الفضاء بتغريدها الحنون ، كأنما هى فرقة
موسيقية اتحدت نغماتها واختلفت أصواتها ، يكاد الإنسان
ينسى ما فى صوتها من حنين وحنان ، بتلك الجيوش من
البعوض والذباب ، التى تطن فى أذنه بشكل مزعج مخيف ،
كأنما تذكره بالحقيقة المرة القاسية التى اعترف بها الدكتور
محمد حلمى السعيد مدرس علم الصحة فى كلية الطب فى قوله :
« لقد أصبحت الملاريا خطرا داهما على حياة الكثيرين
من أهل جلدتنا ، حيث وجد فى صيف العام الماضى أن
٦٥ ٪ من سكان بعض القرى فى شمال الدلتا مصابون به ،
وهو لعمري رقم هائل ينذر بسوء العاقبة إذا لم تضاعف
الجهود فى استئصال هذا المرض الذى اكتسح قرى بأكملها
فى أواسط أفريقيا ، فأصبحت قلعا صفصفا بعد أن كانت
أهلة بالسكان »

وأما المياه ذات الخزير الهادىء الحنون ، فيشوها

ما تحمل من جثث الحيوانات وبقايا القاذورات ، بينما يتكاثر على حواف الترع ، جموع الفلاحات زرافات ووحداً يغسلن الثياب المهلهلة ، وينظفن الأوعية النحاسية التي يعلوها الصدا ، ويتجملن بعمل - التواليت - بمياه التربة ، مليات طبيعة المرأة التي لا تتأثر بزمان ولا مكان ، ويملأن الجرار ، ويتركن في نفس الرأى أثراً من الحزن عليهن عميق القرار .

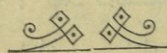
بقي من جمال الريف ، شمس الساطعة التي كثيرا ما يحدثنا عن فائدتها الأطباء ، وهوأوه الرحب الطلق ، الذي لا تحجبه المباني المتراصة العالية الزاهية في السماء ، وأعترف بأن الفلاح ينال من هذين المنبعين ، شيئاً من القوة ، يعينه على مقاومة شقاء معيشته ، واحتمال ما يفتك بجسده من أمراض ، ولكن في آخر النهار ، حينما يغادر الفلاح الطبيعة الحانية عليه ، الرفيقة به ، ويأوى ودوابه جميعاً إلى تلك الأبنية القذرة المظلمة ، التي لا يجوز لنا أن نطلق عليها اسم المسكن أو المأوى ، ضاع أكثر ما اكتسبه من أثر الشمس والهواء وتبخرت تلك الكمية الضئيلة من الصحة التي أفادته إياها الشمس ، في الأبنية الطينية الواطية المسقفة بالقش والغاب والتي لا يرتفع أكثرها عن سطح الأرض إلا قليلاً ، ولا

تعرف الشمس ولا الهواء ، سبيلا إلى داخلها ، اللهم إلا شعاعا ضئيلا من النور ، ينفذ من كوة صغيرة في الجدار ، ليلقي الضوء على ما يخفى الجدار من تعاسة وعوز وشقاء ، يحملها الفلاح صابرا قانعا ، لا يئن ولا يجأ بالشكوى والاحتجاج ، بينما تسير بنا الأيام إلى مستقبل محزن رغم ما يكتشفه من غموض ، وإلى نهاية أليمة إذا ظل ولالة الأمور يتجاهلون وجود الفلاح ، ذلك الاسم الذي يجب أن يصبح رمزا للشقاء والحرمان ، لا كناية عن بقرة حلوب لا يفرغ اللبن من ضرعها ، تملأ خزانة الدولة مالا ، وأسواقها خيرات وغذاء شهيا طيبا !

إن لا أكثر أغنيائنا وحكامنا - إن لم يكن لهم كلهم - مصالح تربطهم بالريف ، والفلاح المسكين هو اليد الوحيدة التي تحيل أراضيهم الزراعية بإذن الله ذهابا نضارا يتدفق في خزائهم ويتيح لهم ما هم فيه من نعمة ورفاهة عيش ، فإذا أثار دهشة أحدها ، أن الفلاح يشقى في أمة زراعية ، يقوم على أمرها كبار الملاك الزراعيين ، وإذا تساءل الإنسان كيف لا يكون هذا الاتصال سببا في تعرف الأغنياء بشقوة الفلاحين البؤساء ، وبالتالي سببا في سعي الأغنياء

في تهيئة حياة صالحة لهم ، إذا دهش المرء فإن دهشته تزول ، حين يقرأ تلك الحقيقة الهائلة الصادقة ، التي ذكرها اللواء رسل باشا حكامدار العاصمة : « أتمنى أن يتعلق الشباب المصرى ببلاده تعلقاً شديداً ، ولن يكون ذلك إلا بحب الريف ، وأنت تجد الشبان المومنين لا يعرفون موقع أطيانهم ، ولم يذهبوا قط إلى عزبهم ، ويجهلون اسم الخولى الذى يحرس أموالهم »

وهكذا نحن دائماً ، نلهو عما يحيط بنا من أخطار ، ونجهل عن مصر وأهلها ، حقائق يعرفها غير المصريين ، ولا نزال فى لهونا حتى يتحدث الأجانب بحمقنا وجهلنا وضعفنا ، وهذا الحديث هو - مع الأسف الشديد - إنذار من الحياة يلوح لنا ونحن فى رقادنا مستسلمين لأحلام الخيال ، كما تسوق الطبيعة الرعد والبرق ، إنذاراً بالعاصفة. فهل آن لنا أن نستيقظ ؟ من يدرى ! !



وراء الستار

كان عجيباً من صديقتي القروية أن تلج في إخفاء نقودي وحلي طالما أنا في القرية ، وأن تنكر على خروجي إلى الطريق وفي معصمي ساعتى ذات السوار الذهبى . وفى أصبعى الخاتم الماسى الذى لا يفارقه ! وكلما هممت بالسؤال والاحتجاج احتمت من إلحاحى بالصمت والمراوغة . وأشارت إلى أن أسكت فأمثل لأمرها .

سألتنى ذات مساء : أين تضعين حليك ونقودك ونحن نيام ؟ .

- أين ؟ فى يدي يا أختى وعلى هذا الكرسي فى جوارى ،
لا زلت أعجب من اهتمامك بإخفاءهما ألا تتكلمين ؟
- كان على أن أتكلم ، لولا أنى أحب ألا أزعجك فى مابقى لك من هدوء الريف ! لقد تكشفت لك زيارتك لنا عن شقاء شعب عليك حياتك وسلبك راحة البال وصدق

اليقين . أفتحسبين أنى أجرو على إزاحة الستار أمام عينيك
عما خفي عليك من شقاء الريف ؟

- ولكنك بكتانك تثيرين فى نفسى المأعاصف غلاباً
لا طاقة لى به !

- يا أختاه ! إنك تلحين فى القرية أقسى أنواع الفقر
والعوز والشقاء ، ولكن لو قدر لك أنك تتغلغل فى صميم القرية .
ولو كشف لك الحجاب عن قلوب القرويين ، لانكشف لك
ستار الشقاء عن مشهد أفظع هولاً ! ولاملك أن يستبد
بالقرويين ظلم جرى كأن لم يكف ما هم فيه من فقر وبؤس !
إن فى القرية لصوصاً يا صديقتى ! أنا أعرفهم . وكل فرد
فى القرية يعرفهم ، ولكننا لا نملك حيالهم إلا الصمت بل
والرضاء .

- ما أفضح هذا الرضاء منكم ولـكم كما أعلم نفوس أبية !
- إنها لا تزال أبية يا أختاه ! وهذا الرضاء منا ليس
خضوعاً وذلة لصغر فى نفوسنا ، ولكنه رضاء من يعلمون
حقيقة ظلم البشر ، أو لست القائلة فى قصيدتك « وحنى
الشاطئ » ؟

يلاقى الهوان فيرضى به * رضاء العليم بظلم البشر ؟ !
إن زعيم العصاة تربطه بالعمدة صلة القرابة . وهو
يتحكم فينا معتمداً على هذه الصلة . يسرق ويهاجم ثم
لا يسأل عما يفعل لن أنسى يا أختاه ليلة هاجم
الصوص فيها خالتي ، وهى كما تعرفين تتجر فى الطيور
وتمتلك بعض المال وتحيا وحيدة بعد وفاة وحيدها . لقد
كنت حسنة الظن بالناس إلى حد بعيد . نشأت فى الريف
فألفت بساطته وظلت بعيدة عن دوافع الشر التى تقنح نفس
الإنسان من أضعف ناحية فيه وهى حب المال . فتقذف
به وراء الإنسانية وتحيل ضميره قطعة من الحلوى تلتهم
فى آخر النهار ! وكنت أسمع الهمس يكثر فى مغامرات
لصوص القرية ، وأنصت إلى ما يتحدث به الناس عن
قسوتهم واستهتارهم ، لكننى ما فتئت أتهم فيها الإسراف
والمبالغة ، حتى ذلك اليوم المشؤوم ! لقد هاجمها لصوص
أربعة ملثمون فى منتصف الليل . وهمت بالنهوض من
فراشها فخذلتها قواها وارتمت على الأرض شبه ذاهلة !
بقيت لها عيناهما لتشهد بهما وحشية البشر وقسوة الإنسان
على أخيه الإنسان ! وفى توحش عجيب سلبوها كل ما تملك

من حبوب ومن مال . وتركوها ذل الفقر وقسوة المرض
وأثر الخوف الهائل !

- وبعد ؟

- وبعد فلا يزال اللصوص يسطون ويسرقون . ولولا
اهتمام رجال كل أسرة بحراسة الدار ليلا بالتناوب لكانت
المصيبة أعم !

- وعمدتم نائم في داره مطمئن . لا تقلقه أشباح شقائكم
وأصوات ضحاياكم ولا يردعه وجود الحكام والقضاء
واحتمال ثورة كبار المزارعين ؟

- وما العمدة ياسيدتي ؟ إنه الحاكم المطلق التصرف في
القرية . ونحن صغار المزارعين خدمه المسخرون ! أما
كبار الملاك فهو يعرف كيف يرضيهم بأساليب نعرفها نحن ،
لأنها على حساب قوتنا وقوتنا !

وأغمضت عيني ليؤرقني سهد طويل . وبدأت لي متاعب
القرويين كأنها سلسلة آلام لا نهاية لها ! لئن استطاع الفلاح
أن يحمل أثقال فقره وعوزة بما وهب من قناعة وصبر .
فبأي ثمن يحمل وطأة الظلم وهو الكريم النفس الذي يأبى
الضيم ؟

فى عهد الإقطاع . وفى صميم العصور المظلمة الوسطى .
كان الفلاح خادما للأمير المقاطعة . يزرع له الأرض
ويحصل المحصول . ثم هو مكلف بان يعصر كرومه فى
معصرة السيد ويطحن حبوبه عنده . وعلى السيد واجب
واحد ، هو حماية مقاطعته من الأعداء والفاشين .

والآن بعد أن اندك صرح الاستبداد بمعاول المصلحين .
وبعد أن أعلنت حقوق الإنسان وأصبحت سلطة الحاكم
مستمدة من الشعب لا من الحق الإلهى المزعوم . يقوم
العمدة غالبا بتمثيل دور السيد فى القرية . والفلاح المسكين
لا يجرؤ على شكوى ولا يقوى على احتجاج .

إن دودة القطن مثلا ، فى سبيل تشبثها بالحياة ، لا تميز
بين حقل العمدة وحقل الفلاح المسكين ، بل تمضى فى
طريقها وسط الحقول لتلتهم النبات النامى الناضر ، دون
أن تمنعها عن الحقل الأول سطوة صاحبه وقوة بأسه ،
ودون أن يصرفها عن حقل الثانى شقاؤه وجوعه وضعفه .
وفى أراضي العمدة يجتمع آلاف القرويين . يحاربون
الدودة وينزعون الأوراق المصابة . وقد نشط إلى جمعهم
خفراء القرية . يمر كل خفير فى منطقة معينة وتكفى نظرة

قاسية مهدة من عينيه ، لتزرع الفلاح المسكين من حقله الصغير الذى ينتظر محصوله ليسدد ديونه المرهقة . وليحصل على ما يقيم أود أولاده الجياع . فيترك حقله لترعى الدودة فيه دون رقيب ، إلى حقل العمدة ليحمى ثروته من مجرد النقصان ! والأجر المعروف المصطلح عليه فى القرى هو رضا العمدة سيد القرية !

وفى مناوبات الرى ، حين يهجر الفلاحون دورهم ليلا . أحوج ما يكونون إلى بعض الراحة من شقاء الفقر والجهاد ، ويسهرون فى حقولهم على حواف الترع منتظرين المياه ، كم يطول بهم الانتظار ! إن المياه محرمة على أراضيهم قبل أن تمتلئ أراضي العمدة وكبار الملاك شعباوريا وحتى تصيبها التخممة فتلفظ ببقايا الماء إلى أراضي الفلاحين التعساء ! وفى موسم الحصاد ، يخرج الرجل فى الصباح الباكر حاملا منجله ، ومودعا زوجه لتلحق به فى الحقل . ويسير فى الطريق ذاهلا يحلم يوم يبيع فيه القمح ويشتري رطل لحم لأولاده المحرومين الذين طال تشوقهم إلى اللحم ، وثوبا من القماش لزوجته التى أذلت رجولته وكبرياءه بثيابها المهلهلة البالية ، ولا يزال يحلم حتى يوقظه صوت الخفير ،

ينزعه من أحلامه إلى الحقيقة المرة ، ويذهب به إلى حقول
العمدة حيث ينتظره القمح النامي ! والويل له إن أبدى
ألما أو تذمرا ..

ارحموا الفلاح !

إن حياته أصبحت جحيمًا . طال عليه العهد وهو ينتظر
الإصلاح البطيء . وطال به الانتظار حتى ضاع منه الأمل
الضئيل الذى كان ينير دجنة حياته الحالكة السواد . ولم
يبق له إلا شقاء الفقر ومرارة اليأس وذل الاستبداد !
هناك بعيدا ! فى القرى التى نجهل شقاءها وشقاء من
فيها . يفرض العمدة نظاما هو أعجوبة الأنظمة فى القرن
العشرين . أى بعد مرور ثلاثة قرون على صرخة المصلحين
أمثال موليير ومونتسكيو وفولتير ، بأن الحاكم الصالح هو
خادم الشعب !

إن العمدة لا تجرى عليه نظرية فصل السلطات التى
تجرى على الوزراء وكبار الحكام ، ففى يده سلطة الاتهام
والحكم والتنفيذ . والحكومة لا تعلم عن هذا شيئا كثيرا .
لأن صغار القرويين لا يجرؤون على الشكوى والصراخ

خشية الاضطهاد والاهانة . بينما لا يجد كبار المزارعين ما يشكون منه لأن العمدة يكلف الفلاحين الأجلاف بدفع ثمن سكوت السادة الأغنياء . وفي ذلك يقول « الفلاح المسكين » في رسالته إلى بالاهرام الغراء ١٤ - ٨ - ٩٣٥ « لو وقف شقاء الفلاح عند هذا الحد - فداحة الضرائب - لكان الأمر أسهل مما تظن الحكومة ولنادى الفلاح بعالي صوته . الفلاح الصغير في حاجة ملحة إلى حمايته من اضطهاد حضرات العمدة ومشايخ وأعيان القرى . فدافعوا أجور الخفر هم الفلاحون الفقراء . ورجال تنقية دودة القطن في زراعات العمدة والأعيان هم الفلاحون الفقراء . وواضعو فوانيس الإنارة أمام منازلهم في القرى هم الفلاحون الذين لا يتمكنون من إنارة مساكنهم »

« تذاكر التمثيل والجمعيات التي يتبرع حضرات العمدة والأعيان بتوزيعها ، تحصل أثمانها من فقراء الفلاحين . وتطهير مساقى الأعيان وتسهيل الطرق لسياراتهم في داخل قراهم ، وفعلة مبانئهم ، وخدمة منازلهم ومزارعهم هم الفلاحون البؤساء التعساء . الذين إن اشتكوا أهينوا وإن صرخوا عذبوا »

هذه الصرخة الداوية التي يرسلها « الفلاح المسكين » من أعماقه يجب أن يكون لها صدى في قلوبنا وفي عملنا . شقاء الفلاح وصل إلى درجة لم يعد ينفع معها علاج الكلام . والفلاح نفسه أصبح لا يطمئن إلى سياسة الوعود الخلابنة التي يلوح بها المصلحون . والحاجة ملحة إلى علاج عملي عاجل .

إن التمثيل الحكومى معدوم فى القرية كأنماهى كم مهمل على الهامش ، وكأن مصر ليست « بلدا زراعية قبل كل شئ » . ولا يزال أهم قوام معيشتها مرتكزا على الزراعة . فهى لمصر أهم بكثير منها لإيطاليا مثلا » وانعدام التمثيل الحكومى ، والإشراف الفعلى على عمل العمدة ، يفسح المجال لعبث صغار النفوس منهم ، واستبدادهم بصغار المزارعين دون خشية أو رقيب ، والمثل العامى يقول « المال السايب يعلم الناس السرقة » . وبين تغافل حكام المراكز ، واستبداد العمدة ، يلاقى الفلاح صنوفا من الهوان والذل والشقاء ، لم يعد فى إمكانه تحملها ، وليس من العدل الإغضاء عنها . هذا « الفلاح المسكين » أتاحت له « الأهرام » الغراء فرصة الاحتجاج . فأرسلها من قلبه صرخة أليمة حافلة

بالمرارة والشقاء ! ترى كم من صرخة تقف في حناجر غيره
من القرويين ، ولا تجد مجالا للانطلاق ، لأن صاحبها
لا يملك ثمن طابع يريد يحمل شكواه إلى منبر الأهرام ،
فتعذبه وتضنيه ؟!

لست أطلب تحقيقاً حكومياً في ذلك الموضوع . لأنني
موقنة بصحة كل ما جاء في خطاب « الفلاح المسكين » بل
إنني لأعلم يقيناً أن ما خفي علينا من شقاء الريفيين أكثر .
والعمدة لا يعدم مئات من الشهود ، يبيعون ضمائرهم
برضاء العمدة . ويلفقون التهم على الأبرياء فراراً من قسوة
الاضطهاد . أجل لست أطلب تحقيقاً ، ولكنني أتساءل هل
تعجز الحكومة عن الإشراف على القرى ؟ إن في المراكز
وعواصم المديرية آلاف من الموظفين ، يعملون أعمالاً
تافهة . ويشغلون وظائف لا تتناسب أسماؤها ومرتباتها مع
ما يقومون به من عمل فعلي ، وقد آن لهم أن يفهموا أن
الوظائف كما قال حضرة الأستاذ حسين عنان السكرتير العام
لوزارة الزراعة . « ليست أرائك للجلوس عليها . ولكنها
مراكز محفوفة بالتبعات » فإذا لو أشغلت الحكومة بعض
هؤلاء الموظفين في حماية رعاياها القرويين ؟ وما الذي يمنع

من أن يختص كل واحد منهم بوضع قرى . يتغلغل في دور
صغار مزارعيها . ويستمتع إلى صرخات الأطفال . ويصغى
إلى شكوى النساء . ويكشف الستار عما تخفى صدور الرجال
من ألم مكبوت وثورة مكبوحه ؟ وعما يجري في الريف
من مهازل لا تليق بعصر يسمونه عصر الحرية والنور ؟
ارحموا الفلاح !

لا بل ارحمونا نحن ! ارحموا الأجيال القادمة من هول
المستقبل إذا ظل الفلاح كما هو كتلة ذليلة مهملة ، ارحموا
أبناءنا وأحفادنا واذكروا واجبنا نحوهم .
لقد تستطيع الحكومة أن تلمس لنفسها بعض العذر
في بطل الإصلاح . ولكنها لن تجد عذراً في التقصير عن
حماية مواطنيها التمساء من استبداد بعض الأفراد . ولا بد
للفلاح من قانون حازم يحميه من الظلم ومن القسوة
والاضطهاد !

إن مجرد التأمل في نظام العمدية ، يكفي للدلالة على
استبداد شهوة الحكم ببعض الأفراد . فالعمدة لا يقبض
مرتباً ولا ينال على مركزه أجراً ، وكل ما يكسبه رسمياً هو
إعفاء بعض أطيانه من الضرائب ، وإعفاء أولاده من واجب

القيام بالخدمة العسكرية - وتلك لعمري مهزلة ! - فلو كان
العمد يدركون مسؤولية المركز حق الإدراك ، لما استماتوا
في سبيل العمدية ، ولما استفحلت العداوة بين كبار الأسر
في الريف من أجل العمدية ! هل يمكن تعليل تلك الاستماتة
بغير شهوة السلطة ، وبغير الأرباح التي يجنيها العمدة ظلماً
وعدواناً من استغلال صغار المزارعين ؟! إن الثمن البخس
الذي يناله العمدة بالإعفاء من بعض الواجبات ، لا يغري
بتحمل أعباء المسؤولية ، لولا أن الكثيرين لا يفهمون أن
للمركز أعباء وتبعات ولا يجعلون منه إلا أداة تحكم ورياسة
واستبداد واستغلال .

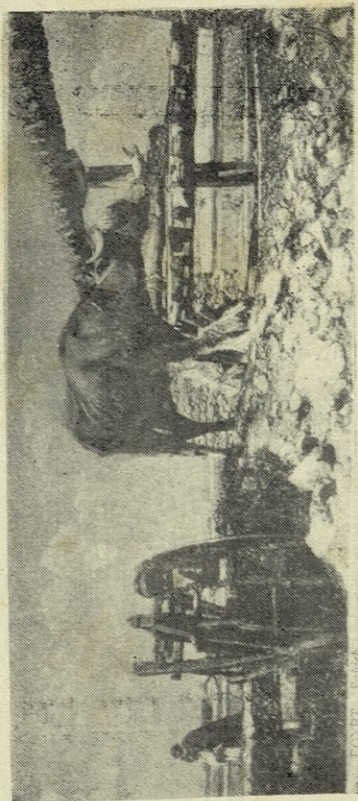
الضرورة قاسية ملحة ، وقلم قضايا الحكومة لن يكلف
الخزينة شيئاً في سبيل القيام بوضع القانون المنشود . وقد
آن لحضرات العمد أن يفهموا أنهم وصغار المزارعين
سواء أمام الحق والعدل ، وأن أكرم الأفراد على الوطن ،
أكثرهم قياماً بواجبه ، وهم لن يفهموا ذلك إلا إذا حال
بين الفلاح وبين استبدادهم وتمسكهم قانون حازم . يوقف
كل فرد عند حده لا يتعداه . ويحمي الفلاح المسكين من
قسوة الظلم وفاحش الاستغلال .

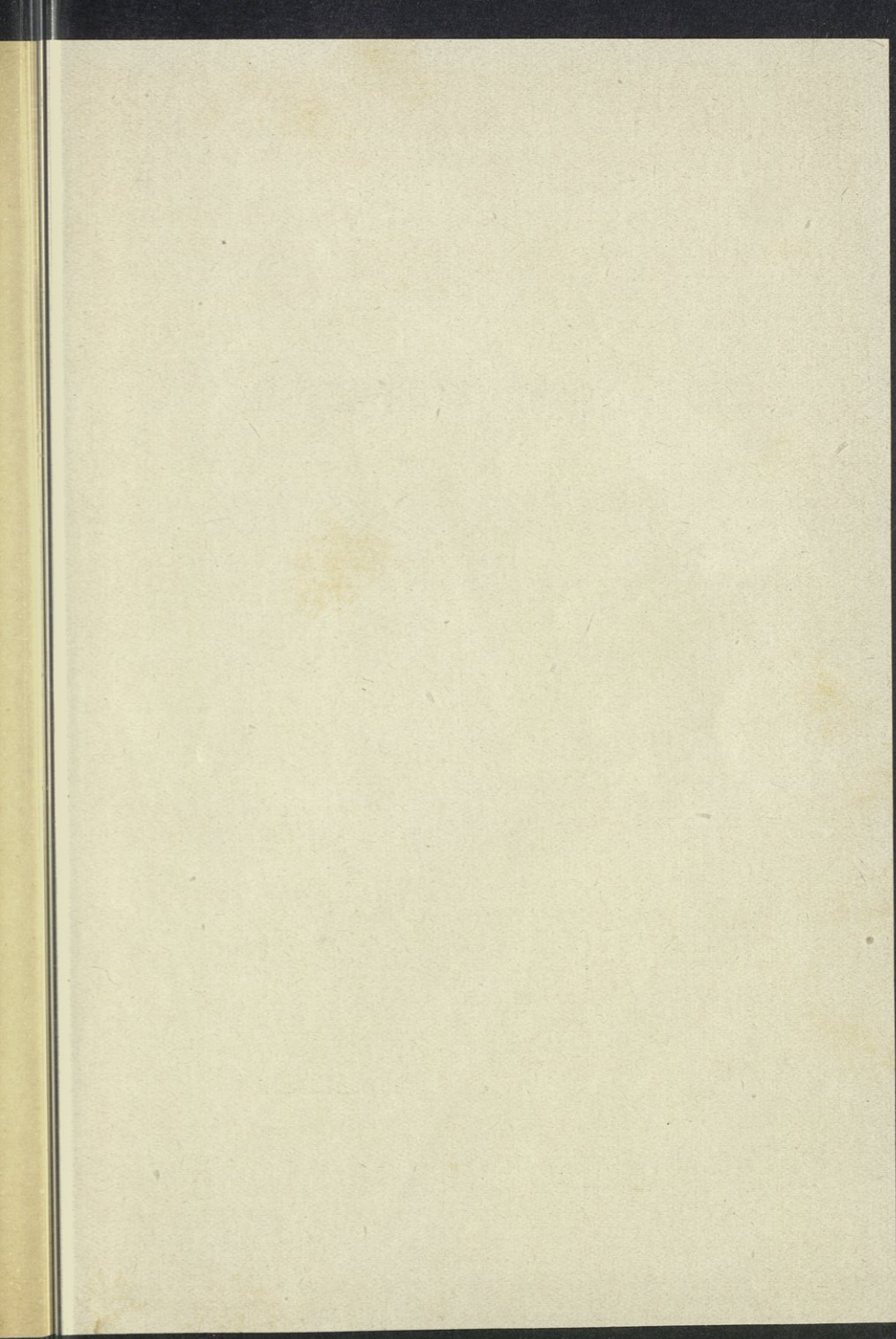
في قبور الارباء المجاهدين

آن لنا أن نفتش في القرى المهملة عن قبور الأحياء
المجاهدين ، وأن نزيح عنها الأغصية الزائفة لنرى الجثث
الحية ، يقتلها الجوع وتمشها الأمراض .

قال لي البعض : لم تدعى في قاموس البؤس كلمة واحدة
إلا استعنت بها على وصف شقاء الفلاح ، أما أن لك أن
تهدئي ؟ ! فأذهلني ذلك التعبير ومضيت أفكر . ذكرت أنني
حين مررت في طرقات القرية ، وحين تغلغلت في دورها
القدرة المظلمة ، وأنصت بقلبي إلى الأنات اللاهثة الضعيفة
التي تذيب القلب وتضنيه ، وحين ازدحمت الآلام في دماغي
تستبد به وتريد انفجارا ، لم أكن أفكر في أن للبؤس
قاموساً ، وأن الكلمات التي نعبّر بها عن الألم قد تنفذ إذا
طالت بالإنسان الشكوى وطال منه الحديث ، والآن أنساءل
أحقا قد تنفذ الكلمات ؟ أتراني قد أقف مكتوفة اليدين
صامتة اللسان وأنا أرى أمواج البؤس تطغى على الفلاح

۴۲۱





الشقي المجاهد فتغمره وتغمره حتى يختنق ، ثم أقتش في دماغى
 فلا أجد كلمات جديدة تصف بؤسه ، ولا أستطيع أن أرسلها
 من أعماق صرخة حزينه تهيب بالناس أن أنقذوا الفلاح؟!
 فى صميمى ، أعتقد أن نظرة شاردة عجلى ، يلقيها الإنسان
 عرضاً على فلاح مهدم يدب على الأرض وكأنه يخطو إلى
 القبر ، ويعمل فى الحقل وكأنه يذيب قواه وقطرات حياته
 فى الأرض التى يحرقها ، نظرة واحدة تكفى لأن تحمل
 إلى قلوبنا ، حديثاً بليغاً عن الشقاء العجيب .

لو أن طائفة المزارعين كانت أقلية ضئيلة لاستطعت
 أن أخنق فى صدرى لهفة عطفى عليهم ، ولقلت فى شجاعة
 متكلفة : لا بأس ، فمة قليلة تشقى لتسعد الأكرثين ، إذا
 كانت سعادة المجموع لا تأتى إلا بشقاء البعض وتضحية البعض
 وإذا كنا نحن أنانيين بطبيعتنا ، فقيم يا قلب التألم وفيم الأنين؟
 ولكن القرويين هم الأغلبية الساحقة فى مصر الزراعية .
 بضعة ملايين تشقى وتتخبط فى ظلمات مرضها وعوزها
 لتسعد الآخرين ، فلو أفناها الشقاء كان فى فنائها هلاكنا
 جميعاً .

« شقاء الفلاحين فادح ، وإصلاحه يقتضى جهوداً

جبارة ، وليس من المستطاع أن نصلح قرى كل ما فيها يقتضى إصلاحا « هكذا يقولون دائما ، ولكن هل تدعو فداحة الشقاء إلى الصمت والسكون ؟ وهل كون كل ما فى القرية يقتضى إصلاحا ، يقعدنا عن الإصلاح ؟ إذا كنا فى مصر نفهم ذلك ونهضمه فى سهولة ويسر ، فالتناس جميعا يعتقدون أن فداحة الشقاء تدعو إلى الإسراع فى الإصلاح ، وأن جهودنا يجب أن تتناسب مع قسوة الواقع ، وهكذا يفهم غيرنا ، وهكذا علينا أساتذة المنطق .

لست أخشى أن يتهمنى البعض بأننى خيالية ، وما أسهل اتهم الفتيات بذلك ! - حين أتحدى جميع المصريين متسائلة هل فىنا من لا يعترف بشقاء الفلاح ؟ وهل من فرد ينكر أن الفلاحين غالبا ، هم أشقى الناس وأشدهم عوزا ؟ قد أفهم أن يتردد البعض فى وجوب الإصلاح ، وقد أفهم أيضا أن يظن البعض أن الفلاح لا تزال لديه قوة الاحتمال ، ولكنى لا أصدق أن إنسانا يقول - وهو يعنى ما يقول - إن الفلاح (أحسن من غيره !) نحن إذن مسلمون جميعا بشقاء الفلاح ، ولكن هذا

هذا التسليم معناه فى بلادنا أن يسخر الفلاحون فى أعمال
مضنية مرهقة ، والأجر هو سلسلة من الشتائم القذرة
الآلمية ، يقذفها أصغر موظف منتدب المراقبة ، فى وجه
الفلاح (الجلف الحمار ابن الحمار .)

عند ما تمتلئ منابع النيل العليا بالماء ، ويدفعها التيار
قتسير فى طريقها إلى البحر الأبيض ، قوية صاخبة دافقة ،
حاملة بين أمواجه الحياة والموت ، وحين تمضى إليناثائرة
غلابة ، تطغى أحيانا على الشواطئ ، وتغرق الأراضى
المنخفضة بسيل من المياه وكأنما تقول للفلاح الحزين : إذا
كنت تريد فى سماءك التى تمدك بالحياة بإذن الله جل شأنه
فلا تنكر أن يكون لى مع أنوارى سحب ورعد وبرق !!
وعلى جسور النيل الثائر يحتشد الفلاحون
الفلاحون المحرومون الأشقياء ، ليصدوا هجوم المياه
بأجسامهم الناحلة المنهوكه المريضة ، وليعملوا طول النهار
تحت رحمة المندوبين السادة وفى قسوة الظهيرة ! ينتزع
الرجل من حقله ومن بين أولاده ، ويرحل إلى مكان بعيد
لتنم المهزلة ! ليعمل مسخرآيينما تعمل الآفات والمياه الثائرة

في أرضه الصغيرة التي لا يكاد ثمن محصولها يرحمه من قسوة
المحصلين وظلم المربين ! وبينما تخط دودة القطن في حقله
سطور ذله وعاره وخرابه !

يا رحمة الله ! الفلاح الشقي المجاهد ، الذي يؤدي واجباته
نحو الوطن كاملة ، والذي لا يظفر بعد جهاده وتعبه بمال
يدفعه للضرائب المرهقة ، الفلاح الذي تلتهم الملايا
والبهارسيا والانكستوما والبلاجرا والأنيميا قواه ،
وتهد كيانه هدأ ، ثم يسكن إلى آلامه ويحتملها صابراً صامتاً
لا يئن ولا يتوجع ، فيعاني الموت البطيء حتى لا يكلفه ذهابه
إلى مستشفى المدينة ترك أرضه التي لا تكاد تمدد بالكسرة
يتبلغ بها والسترة يستر بها عورته ، هذا الفلاح ، ينزع قهراً
واعتسافاً إلى جسور النيل في أى مكان ليعمل مجاناً ؟
وليحمى ثروتنا الزراعية من النقصان ولو كلفه ذلك حياته !
ومهزلة المهازل أن ينتدب الموظف المنعم لمراقبة
تسخير الفلاحين التعساء فيمنح مكافأة إضافية فوق مرتبه
كأنما كان في مكتبة بالقاهرة عاطلاً فهو يمنح مرتباً إضافياً
حين يعمل ، مع اعتبار مرتبه الأصلي ميراثاً أو رثه إياه
آبائوه أو أجداده من قبل ! أو كأنما ننسى أن الموظف الذي

يندب لعملٍ ما ، لا يحق له أن يأخذ مليماً واحداً فوق مرتبه
الأصلي ، لأنه لا يعمل عمليين في وقت واحد . . . لقد ترك
عملاً وندب لعمل آخر فكيف يكافأ على العمل الواحد
مرتين ؟ .

المال لمثل هذه المكافآت الظالمة موجود ومتوفر والحمد
لله ، وإن استنفد ففى الاحتياطي العام ما يسد الفراغ ويملأ
الجيوب المنتفخة الأنيفة ، ولكن المال لإصلاح القرى ،
المال الذى قال «الدكتور أبولس بولس» إنه الداء والدواء ،
هذا المال من نوع آخر . . . من عملة أخرى لم نهتد إليها بعد
ولا محل لها من خزانة المصروفات فى مصر !

مائة ألف من الجنيهات أنفقت كاملة فى هذا العام
لمقاومة الفيضان من وزارة الأشغال ، وما يقرب من
نصف هذا المبلغ فى وزارة الداخلية ، وما كان لنا أن نشكو
هذا الإسراف ، لو لم تقترن به حقيقة فادحة وهى أن هذا
المبلغ الضخم ينفق فى فيضان يقاومه الفلاحون الفقراء
دون أجر مطلقاً !

وأعجب من هذا ، أن يحدث ذلك فى وقت يكاد أكثر
الفلاحين يموتون فيه جوعاً وأن نطلب نصف هذا المبلغ

لا نقاذ آلاف من المزارعين الذين هم ثروة الأمة ، فتصاب
الحزينة فجأة بصداع هائل وشلل في اليد ومرض الإرهاق
والعسر !

معالي وزير المالية أجدر الناس بالعطف على تلك الفئة
الضالة ، وأعتقد يقيناً أننا لا نطلب محالاً حين نسأل أن
يكون الفلاح آخر شخص في مصر يفكر في تسخير
وتشغيله دون أجر ! حسب شقاؤه ومرضه وعوزة ! حسب
الحياة الوضيعة المنحطة التي يتخبط في ظلامها ! حسب
المذلة والاحتقار وكونه لا يحيا كإنسان !

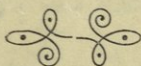
مسألة عدم مكافأة الموظفين المراقبين حين الفيضان
لا يعدو أثرها حرمان الموظف من صيف تمتع يقضيه في
أوربا وتحت ظلال الأرز في جبال لبنان الساحرة ، أو
تغيير السيارة طراز سنة ١٩٣٠ بأخرى رشيقة « موديل
١٩٣٥ ! » بينما مسألة عدم منح الأجور للفلاحين ، هي
مسألة حياة وموت ! له ولنا وللأمة جميعاً !

آن لنا أن نبش قبور الأحياء المجاهدين !
يترك الموظف عمله الأصلي ، ويندب لمراقبة العمال

- وهو مركز أديب يطيب للبعض التمتع بما يلبسه من رياسة وسلطنة - فيمنح أجراً مضاعفاً ، ونفقات انتقال ، وبدل اغتراب ، ثم يعود فيجد في انتظاره خطاب شكر رقيق من المصلحة ، وخطاب تمجيد لبطولته ينشره النفعيون الصغار في الصحف ، وتبحث معنى عن العمل المجيد الذي قام به ، فتجده ممثلاً في أوامر قاسية مستبددة وقحة . يذل بها الفلاح المسكين ، ويتمتع بشهوة الأمر والنهي حين يبتعد عن أوامر رؤسائه ونواهيهم ، ويجرب في الفلاح مقدار استعداد حضرته لمراكز القيادة وكراسي الرياسة !
وينزع الفلاح الجائع المريض من أرضه للعمل ، فيكون جزاؤه الإذلال والحرمان ، ثم يعود فيجد في انتظاره الخراب حيناً ، والعمل المتراكم أحياناً !
ورغم هذا كله نعتز جميعاً بشقاء الفلاح ، وهذا هو أقسى ما في الأمر كله !

كم من المصريين يعرفون أن حفر ترعة المحمودية وحدها سنة ١٨١٩ أهلك اثني عشر ألفاً من الفلاحين المستخرين ؟ إنها حقيقة صادقة دامية ، ومع هذا دارت عجلة

الحياة في سيرها المعتاد ، وظلت السماء زرقاء صافية ، ولم تجعلها دماء الضحايا التي تبخرت مع الشمس ، حمراء قانية ملتهبة ! والآن ؟ كم من ضحية لقانون العونة حين الفيضان كل عام ؟ لا أدري ! فقد تعودنا أن نقرأ إحصاء دقيقاً عن الأموال التي أنفقت ، وألا نقرأ شيئاً عن عدد الضحايا وعدد الأسر الريفية التي قد يهدمها ذهاب عائلها إلى مناطق المقاومة دون أجر ! ولعل إغفال هذه الناحية فيه نظر وإلا فمتى كان لأرواح الفلاحين سعر وثمان في سوق التعامل ؟ ولكنني أخيراً ، أرجو ألا يخذعنا أن عجلة الحياة تسير ، وأن السماء ليست دامية حمراء ، فلا تزال لها زرقها الصافية الفاتنة !



لن يهبط في هذه الدنيا

القسم الثاني

متى نستيقظ ؟

خطر نارو عنه فيارو بنا

بدا صوته مرتعشا تخفق فيه رجولة تأبى أن تكون
ذليلة ، فيكبح جماحها ويتكلف عدم الاكتراث وهو يقول :
فقط أريد أن أعيش .

قلت ولـكنـك تسألني البحث عن عيش ذليل .

- ذليل ؟ إن جوع يوم واحد يا سيدتى ، كفيل بأن
يمحو هذه الكلمة من قاموس ريائنا العجيب ، وقد يقذف
بالإنسان وراء إنسانيته وإنسانية الناس جميعا ، فلا يهمه
في سبيل تهدئة ثورة أمعائه ، هل يهيم مع الحيوان يأكل
العشب ويقتات بقشور البطيخ وورق النبات ، أو يشور
على القوانين فيسرق ويختلس .

- إذن فأنت تصر على أن أبحث لك عن منزل تخدم
فيه ؟ إنى لمشفقة على رجولتك يذها الزمن ، فتال لقمته
مغموسة في الذل والمهانة .

- وما العار في أن أكون خادما ؟ أو أنال طعامى أجرا

نشرت في الأهرام الغراء في ٢٧ من يونيه سنة ١٩٣٥

على عملي؟ ومع هذا فأرجو أن أوفر عليك شفتك . فأنت لا تشفقين على رجولتي ، وإنما - اغفري لي صراحتي - تخجلين من أن يعمل رجل تربطك به صلة قرابة بعيدة ، في منازل معارفك كخادم . لا ألومك على هذا بل أؤكد لك أنني سأخفي عن الناس جميعا ، أن أخي كان زوج ابنة خالة أليك . لماذا يبدو عليك الألم هكذا؟ أو تظنين أنني أتألم؟ أنت إذن غبية ، معذورة في غبائك . لقد مرت علينا في الريف أيام كان كل منها عمرا من الشقاء كاملا ، كنا نضع في « المشقة » بضع لقمات من الخبز الجاف ونجلس حولها - أنا وأمي وزوجي وطفلي - أتناول اللقمة متباطئا ، وأضعها في فمي في ببطء أشد . ثم أطيل المضغ حتى أترك للباقيات فرصة الأكل دون أن يشعرون بأنني إنما أظاهر بالأكل . كانت هذه العملية تضغط على قلبي بألم ، لولا نبل التضحية ، لكاد يهدمني . غير أنني نظرت عفوا إلى زوجتي نظرة شاردة عجلي ، فأحسست بأنني أختنق . والتفت عامدا إلى أمي فاذا بقلبي ينخلع ، وكأني من هول الألم في ذهول عن الألم ، كانت كتابتهما تتكلف الطعام وتعاني التجربة الهائلة التي كنت أعانيها ، كان كل منا يخدع نفسه ويضلل رفقاءه ، أبعده هذا تظنين أن في خدمة

البيوت مذلة ومهانة ، وأية عزة أبقتهالى نظرتى إلى أُمى وإلى زوجتى ، وهما تتظاهران بالأكل ، وتبطنان فى المضغ كأنما هما موكلتان بتنفيذ الحكمة الطيبة « أطيلوا المضغ » فى دقة بالغة ، لقد عدت حينئذ طفلاً ذليلاً مسكيناً يود لو يسكى ويسرف فى البكاء ، وأحسست بسهم يخترق أحشائى حين سمعت أُمى تردد فى مسكنة وخضوع ، الحديث الشريف « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » .

قلت وأنا أغلب الدمع :

- إلى هذا الحد المؤلم وصلت بكم الحال فى الريف ؟
ومع ذلك فأنا لا أفهم فيم يأسك وعلام الحزن ؟ الرأى عندى أن تعود إلى القرية الحبيبة ، فاستأجر لك فداناً .

- وبعد ؟

- ازرقه قمحاً ثم ذرة ، تأكلون منهما طول العام ، ثم ازرقه فى المرة الثالثة قطناً لسداد الإيجار ، وأجر السماد والعمال .

- كل هذا جميل ومعقول ، بشرط أن نسمعه ونقوله ، أما إذا تعدى القول إلى العمل ، فهنا يتبخر المنطق ، ويطير العقل ، وتسخر منا الحقيقة المروعة ، لكى أستأجر فداناً

يجب على أن أدفع عشرة جنيهات للمالك ، وخمسة للعمال حين
الرى وحين محاربة الحشرات ، وحين الجنى والحصاد .
وثلاثة جنيهات للسماذ في ثلاث زروعات ثم يجب أن يكون
لدى حمار وجاموسة ، وأن يتوافر لهما طعام ليتنا نجده
لنا كله نحن .

فإذا دفعت هذا كله من المحصول ، فلن يبق لنا إلا
ما يكفيننا شهراً واحداً مع شديد التساهل ، خبز فقط ، ثم
لا كساء ولا طعام ، وهذا هو ثمرة جهاد عام طويل .
يا سيدتى ، أنا لم أفر من القرية إلى المدينة إلا بعد
أن أجهدت نفسى فى التفكير فاحتسبها يدا عند الله ، لن
نساها لك ، وابحثى لى عن عمل خادم ، فسأجد ما آكله ،
وأبعث أجرتى إلى من أشقاهم الله بى ، وبعد فلست أطلب
إلا عملاً شريفاً ، لا أمد يدي للسؤال ، وإنما أبحث عن عمل
أعيش به .

قام المسكين إلى الصلاة ، فالفلاح المصرى يذكر ربه
فى السراء والضراء ، يذكره فى الأولى شاكراً ، وفى الثانية
راضياً ، قام وتركنى أفكر ؛

وهاجمتني الذكريات . . .

ذكرت أن هذا البائس هو أحد الآلاف الكثيرة التي
نزحت وتنزح من الريف إلى المدن ، في سبيل لقمة ذليلة
متواضعة .

ذكرت ثلاثة من أقوى شبان قريتنا ، جاءوا منذ شهرين
إلى القاهرة ، واشتغلوا في أحد المخازن ، يحملون (العجين)
من البيوت ويعودون به خبزاً في آخر النهار قانعين بثلاثة
قروش لكل منهم وخمسة أرغفة شهية .

وذكرت أخوين من جبرتنا في القرية ، يهزان بالضعف
ويحتملان أشد الجهد ثم لا ترى للتعب أثراً عليهما ، تركا
القرية واشتغلا بخدمة أسرتين ، فأما أولهما ، فيحمل سيده
الطفل ويدله ، ويسير بسيدته الشابة التليذة بالسنية
الثانوية ، وأما الآخر فيحمل السلة ويذهب إلى السوق ،
يشترى الفجل والبصل والخيار .

ومددت يدي أمسح دمعة حارة ، ألهمت وجنتي حين
ذكرت أبا إحدى صديقاتي الريفيات . كان في رغد من العيش
وسعة يعيش على غلة أفدنة ثلاثة ، ويعمل مع ولديه في الحقل
راضين قانعين ، ثم ألحت عليهم الأزيمة فاستحال عليهم دفع

الأموال الأميرية . ثم أعلنهم المحصل ألا فرار من بيع
أفدتهم - وهى حياتهم - بالمزاد . فقر وعار فأين الرحمة ؟
رأتها أعينهم العمياء فى بنك رهونات . وفى عام واحد
غلق الرهن ! قتشنتوا فى البلاد لم يعرف أحد مصيرهم ، إلا
أنى رأيت أحدهم يتقدم إلى ذليلا بأوراق اليانصيب ،
يا سبحان الله ! ألئن باع فى يومه خمس ورقات ، فكى يكون
مكسبه فيها ؟ قرش ، قرشان ؟ اللهم رحمتك !

يابائع الفجل بالمليم واحدة * كم للعيال وكم للجلس البلدى ؟
دسست فى يده خمسة قروش ، فتفرس فى وجهى ثم
قدفها على الأرض ، وفر من أمامى كالجنون لا يعى .

ثم ذكرت أيضاً خمسة شبان أعرفهم كانوا يشتغلون فى
زراعة أحد أقاربى ، واستغنى عنهم ، فجاءوا إلى القاهرة ،
وانضم أربعة منهم فى سلك حرفة عجبية ، يحملون الخیار
فينادى أحدهم (خيار يالوبيا) فيرد الباكون بصوت واحد
فيه حزن رغم ما له من جرس (عشرة بقرش) .

آه ! إن صوتهم لا يزال يلاحقنى فى كل مكان داويا
حزناً متهدجا . وأما الخامس فيبيع أكياس النفطالين . ومحل
المختار سلم (الترام) . وأقسم لقد سمعته بأذنى عند باب الخلق

يقول : « ما حدث عنده نفتالين في البيت ؟ نا كل إحنا
وأولادنا نفتالين بأه يا ناس يا هوه »

والآن إلى مصر المسكينة . . .

أرأيتم هذا المصير المحزن الذي يصير إليه أبناءها الأقوياء ؟
لقد فكرنا طويلا في جيوب الأجانب ، تلتهم الثروة
المصرية ، فجاهدنا في تشجيع الصناعة المصرية ، وفكرنا
طويلا في البحر الأبيض المتوسط ، يفغر فاه فيلتهم ماء
النيل أحوج ما نكون إليه ، فأنشأنا الخزانات وأقمنا القناطر
والسدود .

وفكرنا في المخدرات تتقد ناراً ، وقودها ثروة أبناء
مصر ، فتبخر قواهم وعقولهم وحيويتهم ، فأنشأنا مكتب
المخدرات ، تساعده مصالح الحدود وخفر السواحل
والطيران .

وفكرنا في كل شيء ، إلا شيئاً واحداً هو مع شديد
الأسف أخطر الأشياء .

لم نفكر في المدن تجتذب شبان الريف ، لأن انحطاط
مستوى المعيشة في القرية ، يغري أبناءها بالنزوح إلى المدينة ،
وفيها عيش وماء نقى ، وفيها لهُو ميسور .

لم نفكر في الأعمال الحقيمة ، يشتغل بها أقوى شبان الريف ، وأقدرهم على خدمة مصر .

إنهم يدللون الأطفال ويخدمون في البيوت فهل يسمع المصلحون ؟ وهناك في الريف ، أرض خصبة غنية تحتاج إلى سواعدهم ، وثروة مخبوءة في الأرض ، تريد أبناء الريف الأشداء .

وإذا مضينا في تغافلنا عن هذا الخطر ، فمن للقرية والزراعة إذن ؟ ألا فاسمعوها كلمة صريحة : إن استمرار نزوح الشبان من القرية ، واحترافهم أبسط الحرف في المدينة ، سيؤدي بنا إلى المجاعة ولن يشفع لنا حينئذ خصب التربة المصرية ، وسحر ماء النيل .

لقد اشتغل بعض الشبان في مخبز ، وآخرون في خدمة البيوت ، فهل خسروا شيئا ؟ لا ، فهم يعيشون عيشة إن لم تكن أفضل من معيشة الريف فلن تنحط عنها ، ويشربون ماء نقيا منعشا ، ومصر هي التي خسرت وتخسر ونحن لا هون .

والآن أتساءل ، إذا كان هذا هو مقدار النازحين من قرينتنا ، وهي في صميم (المنوفية) أخصب بقاع العالم ، فما هو

حال قرى شمال الدلتا والوجه القبلى ؟
ثم لا تنسوا أن أبناء الصعيد الذين يملئون المدن
وخاصة مدينتى مصر والإسكندرية ، هم من صميم الريف .
حدثنى أحد كبار الملاك فى مديرتى الشرقية والدقهلية
قال : إن مائة فدان من أرضنا لا تنتج ما تنتجه عشرة أفدنة
من اراضى المنوفية ..
لا تحسبوه مغاليا .

والعلة ليست ضعف الأرض كما توهمت وكما توهمون ..
بل هى فى قلة الأيدى العاملة .

مصر بلاد زراعية ، وستظل هكذا ما عبد الله فى
الأرض ، ثروتها فى أرضها ونيلها ، وحياتها فى يد الفلاح
الجائع المحروم ، فلا تنسوا هذا واذكروه دائما .
هل نلوم الفلاح ؟ إنما إذن نكون كمن :

ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له * إياك إياك أن تبطل بالماء !
أصلحوا القرية فيتشبث هو بالبقاء فيها ، مهدوا له عيشا
سهلا ميسورا فى تواضع ، فلا يستبدل به حياة المدن . إنه
يعشق الريف وهو يتركه محسورا ملتاعا بعد أن تعنيه الحيل ،
وبعد أن يجد العيش فيه غير مستطاع .

حين تفكر الحكومة في مصايف الأطفال ، يجب ألا تنسى أن في الريف أطفالاً قد لا يجدون كسرة أو ستره ، يذهب الرمد بجمال عيونهم وتضرب عليهم الذلة والمسكنة .
وحين تفكر مصلحة السكك الحديدية في تسهيل النزهة لمتوسطى الحال ، بقطر البحر والنزهة ، يجب ألا تنسى أن في الريف رجالاً مصريين ، يشربون الداء مع الماء ، ويحيون حياة لا نرضاها لحيواناتنا .

إن أول الواجبات هو تيسير العيش الممكن ، لمن صارت حياته أقل من الممكن .

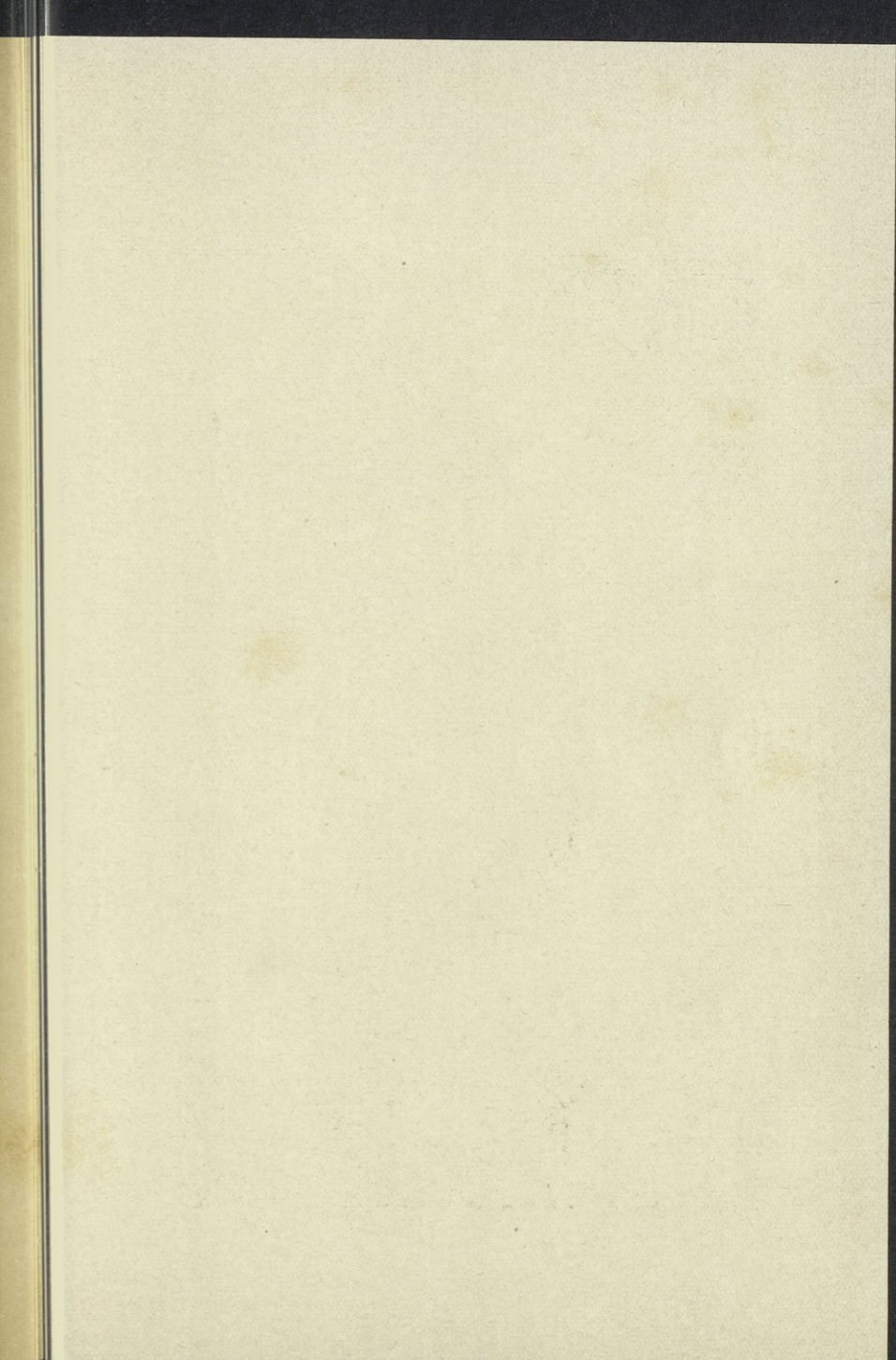
نحن لا يضيرنا أن نقضى الصيف بعيداً عن السواحل فلكل بلدة في مصر مغانيها ومناظرها الجميلة ، ولمصر في ليالي الصيف هواء منعش جميل ، ولن تفارق أرواحنا أجسادنا إذا لم تسعفنا الحكومة بتسهيل وسائل الترف لنا ، ولكننا جميعاً ، باهمالنا الفلاح ، نخسر اليد العاملة التي تمدنا بالطعام ، والخادم القنوع الأمين الذي يفنى في سبيلنا صابراً صامتاً .
وكلنا في الخسارة سواء .

إن الفلاحين - سواء رضىنا أو كرهنا - هم أعضاء من
جسم الأمة ، لا يجوز التغافل عنهم وإلا فالويل لنا منا .
فلنفكر جدياً في مصلحة القرية وإصلاحها ، ولنصلح
حال الفلاح بمال الفلاح ، فإن مهزلة المهازل أن يكون لنا
معشر سكان المدن الحقوق ، وعلى الفلاحين الواجبات -
القرية ! إن فيها مقتل الأمة ، كما أن منها حياتها .





صنعة وجمال (طرى القرية ، كما يجب أنه تكونه)



ماذا أعددتنا للغمر ؟

أفتغفر لى صديقتى القروية ، جهرى بما يغمرها من
فقر وشقاء ؟ لقد تشبثت بى يوم الرحيل ، تسألنى فى تواضع
ذليل أن أنسى الصور المحزنة التى طالعتنى فى القرية وأن
أذكر دواما جمال الريف وسكونه وفتنته ، حتى أحن إلى
زيارته ، ثم تفرست فى وجهى ، وأحسبها لمحت فى عيني
صورة الألم الدفين فأشاحت بوجهها ثم قالت وكأنها تحدث
نفسها : ستشغلين عنا وسنشغل بك ! متى العودة ؟ هل
أطلب محالا إذا سألتك أن تنسى شقائى وشقاء الريف وألا
تدعى تلك الذكري تفسدك علينا وتفسد عليك حياتك ؟
وتحرك القطار وهو يلهث فى حشرة بطيئة ، وظلت
هى تشير بيديها إلى أن ابتلعها الظلام ، وبذلت مجهوداً
جباراً لأنسى القرية فلم أوفق ، كانت الصور التى شاهدها
هناك ، تتتابع سراعاً أمام مخيلتى ، متلاحقة مترنحة ، مستبدة
بأفكارى .

ويح الفتاة التعسة ! إن كبرياءها تخفى الكثير من الألم
العساف وإن لها جلدأ عجيباً ، كان أبوها يملك ثلاثة أفدنة
يوم بنى بأمها ، وأحاطت به ظروف عصيبة كفيلة بابتلاع
عشرة أفدنة وعشرين ولكنه ظل محتفظاً بها حتى اليوم ،
بعد أن كلفه ذلك ثمنأ غالياً . واليوم ؟ لقد أصبح رب عائلة
كبيرة فله ابنته الشابة وابنه المراهق ، وثلاثة أطفال ، وقد
مات أخوه ولم يخلف شيئاً إلا زوجة حزينة محطمة وأربعة
أولاد أذلهم اليتم والفقر ، والرجل يعول هؤلاء وهؤلاء
بأفدنته الثلاثة .

وتلك مسألة المسائل في الريف اليوم ، فالأراضي
الزراعية في مصر لا تزداد ، بينما يزداد عدد السكان في
سرعة عجيبة . ومصر التي تبلغ مساحتها حوالى مليون
كيلومتر مربع لا يصلح للزراعة منها إلا « ٣٢٠٠٠ ك
م م » أو أقل من ١/١٠ من المساحة الكلية ، وهذا الجزء الصالح
للزراعة يسد حاجة عدد محدود من السكان ، ويزدحم
بالسكان إلى حد كبير ، فأكثر من ٩٩٪ منهم يسكنون
في الأراضي الزراعية المحدودة والموزعة في الوادى والدلتا .
ثم إن هذه الآلاف المعدودة من الكيلومترات

المربعة الصالحة للزراعة ، موزعة بين الأفراد توزيعاً عجيباً ، فعدد الذين يملكون من عشرين فداناً إلى مائة ومائتين قليل في حكم النادر ، بينما يتضخم عدد كبار الملاك الذين يملك الواحد منهم أقل من مائتي فدان إلى عدة آلاف ، تضخمها هائلاً لا يشبهه في الكثرة إلا عدد صغار المزارعين البؤساء ، الذين يملك الواحد منهم أقل من خمسة أفدنة ، وأحسب أن ضخامة عدد كبار الملاك توهم البعض منا بأننا قوم أثرياء ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، ففي هذا التقسيم دلالة على فقد التوازن في تملك الأرض الزراعية ، وعلى أن العدد الضخم الذي يعبت بالنضار ويتراكم المال لديه إلى حد الحيرة في كيفية إنفاقه ، يقابله عدد ضخم كذلك ، لا يكاد يجد الكسرة من الخبز يتبلغ بها .

وفئة صغار الملاك تسير إلى نهاية أليمة ، إذ لم يوفق أولو الأمر إلى إيجاد حل حاسم عاجل ينقذها . . . إن الموظفين المصريين مثلاً ، ينعمون بحياة مترفة إذا قيست بحياة الفلاحين الأشقياء ، ومع هذا نحن نصغي دوماً إلى صيحات عالية ، يشكون بها من إطالة فترة العلاوات ، نصغي إلى شكواهم وهم يتساءلون كيف يسير المرتب سيراً بطيئاً

وأُسرة الموظفين تزداد فتكثر مطالبها ؟ بينما تنبعث من الريف صيحات خافتة لاهثة ، ترسلها حناجر منهوكة أضعفها المرض وذهب بقوتها الشقاء ، تتساءل هي الأخرى كيف يعول الرجل أسرة يزداد أفرادها كل عام بالزواج والتناسل ، بقطعة أرض لا تزيد إن لم تنقص ؟ تنبعث هذه الصرخات خافتة ولكنها لا تصل إلى آذاننا ، إما لأننا عنها في شغل ، وإما لأنها لا تملك من الوسائل ما يساعدنا على إبلاغ صرخاتها إلى الرأي العام ، قوية عالية ، فيها قوة الحق ومرارة الاحتجاج ، ودوى الشقاء .

لم تعد الأرض مصدر ربح لصغار المزارعين ، كما اعترف بذلك سعادة وزير المالية القائم على ثروة البلد ، والفلاح اليوم يدفع الضرائب التي كان يدفعها منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، ولا يزال يسرى عليه الأمر العالى الذى وضع قئات الضرائب على أساس ٢٨٠٦٤ ٪ من قيمة الإيجار المقدرة بمعرفة لجان شكلت خصيصاً لهذا الغرض فى عامى ١٨٩٥ ، ١٨٩٦ لا بمعرفة لجان مركزية تشكل

في كل عام ، وتقدر الايجار تبعاً للزمان والمكان . وفي القرية يحيا المزارع حياة أليمة لا تساعد على كثرة الإنتاج أو على الاحتفاظ بمستوى إنتاجه العادي ، وتقترسه الأمراض ، وتلتهم الآفات الزراعية ثروته ، فإذا استطاع بعد هذا كله أن يخلص بأرضه من براثن الأزمة ، وأنياب المربين ، فذلك مجهود جبار نقع به منه وتلك نتيجة سارة يشكرها هو لله جل شأنه .

وفي هذا جواب لمن يتساءل كيف لا تزداد ثروة الفلاح بعمله وباستغلالها . اطلبوا الماء من الحجر الصلد واسألوا الجبل أن ينتقل من مكانه ، ولكن لا تسألوا الفلاح أن ينمي ثروته . إن الضرائب تبتلع نصف إنتاجه وثمان المحصولات في تدهور مستمر ، والفلاح بشر ، ولا حتماله حد معقول لا يتعداه . هذا الحد أشبه بما يعرف في علم الطبيعة بدرجة نهاية الضغط ، حيث تتشم الأجسام عندها مهما عظمت صلابتها . والفلاح المصري كما يقول سعادة وزير الزراعة « وهب صبرا على العمل وقناعة في المطالب ، وبساطة في العيش » ولكنه لم يوهب قوة فوق البشرية . فحسبنا منه إذن أن يحافظ على ملكيته الصغيرة

أما أن نعجب لعدم نمائها . فاسألوا عن ذلك حياة الفلاح .
ولكن لا تسألوا الفلاح !

ونحن نحيا في بلاد تزدحم بالسكان إلى حد التخمة ،
وتكاد تضيق بنا لولا رحمة الله ! والفلاح يتزوج ، ويفعل
ذلك مبكراً لا يعوقه عن الزواج فقره وعوزه مهما اشتدا ،
والقرية لا تعرف شيئاً اسمه أزمة الزواج ، فيكفي لصدّق
الفتاة ما يمكنها من شراء لوازمها الضرورية المتواضعة ،
ويكفي لتأثيث البيت صندوق خشبي للملابس ، وحشية من
القطن نادراً ، ومن قش الأرض حيناً ، وقطعة من الحصير
أحياناً ثم عدد قليل من الأوعية النحاسية تدخرها الفتاة قبل
أن تتزوج .

والفلاح يرغب من النسل ، لا يزهده فيه عوز ولا
فاقة ، ولا يرغبه عنه جوع واحتياج . ولست تدري السر
في ذلك ! قد يكون لأن عيشه بلغ من الضعة حداً لا يمكن
تجاوزه ، فوجود الأولاد لن يزيد في شقاء عيش هو غاية
الشقاء ، أو كما يقول الشاعر :

ولو أنى استزدتك فوق ما بي

من البلوى لأعجزك المزيد .

ولو عرضت على الموتى حياة

بعيش مثل عيشى لم يريدوا .

وقد يكون لأن الفلاح يحيا على الفطرة ويؤمن بالله ،
ويشق في أن خالق الطفل كفيل برزقه ، وأن المولى عز
وجل أرحم بالولد من أبيه وأمه .

وفي سرعة عظيمة يزداد عدد سكان القطر المصرى ،
ولسوف يزد من هذه السرعة ارتقاؤنا في الشؤون الصحية ،
والنقص الظاهر في الوفيات تبعاً لذلك ، ويقابله دون شك
زيادة في المواليد ، ولو كانت هذه الزيادة ناشئة من ازدياد
الأسر الغنية الموفورة الرزق لما قابلناها إلا بالغبطة والحمد ،
ولسكن الأغنياء في مصر هم المتعلمون في الغالب ، ولهم من
مالهم وعليهم ما يجعلهم يتحكمون في عدد الأولاد إلى حد
ما ، وأغلب الشبان المترفين لا يعرفون الزواج المبكر ،
حيث تلهيهم عنه ثروتهم التي تفتح لهم أبواباً من اللهو والمتعة
لاحظ للفقر فيها ، بينما الأسر الفقيرة تزداد ويزداد فقرها
وكل زيادة في عدد سكان البلاد هي زيادة في عدد مواطنينا
الفقراء .

وانى لألمح شبح العاصفة في نهاية الأفق يقترب في بطء .

ولكن بالتأكيد ، فهل نأهوا عن الخطر كعادتنا حتى نصبح
وننسى فإذا بمصر تضيق بسكانها ، أم ماذا أعددتنا لهذا الغد
الخطير ؟

ليس لمصر مستعمرات حتى يجد أبنائها مكانا لعيشهم ،
وحق السودان الشقيق ابتلعتة السياسة الانجليزية في جوفها ،
وتمخضت لنا عن نظام هو أعجوبة الأنظمة في القرن
العشرين . فرضت علينا أتاوة ندفعها سنويا للحكومة السودان ،
كأنما هي الجزية التي كانت الأمم المغلوبة على أمرها تدفعها
للدولة الحاكمة الغالبة ، ويبقى لنا بعد هذا كله ، قطعة واحدة
من الأرض يحدها البحر الأبيض المتوسط شمالا والسودان
جنوبا والبحر الأحمر شرقا والصحراء غربا ، وفي هذه
القطعة سكن أبناء مصر في أوائل القرن التاسع عشر حين
كان عددهم مليونين ، وفيها سكنوا في أواخر ذلك القرن
حين كان عددهم لا يتجاوز سبعة ملايين ، وفيها سكنوا في
الربع الأول من القرن العشرين حين كان عددهم اثني عشر
مليوناً ، وهم يسكنون فيها الآن بينما يتجاوز عددهم ستة عشر
مليوناً ، وفي تلك الحالات كانوا يستغلون المزرعة المعروفة ،
التي لا تنمو إلا ببطء عجيب . فهل سيستغلون القطعة نفسها

حين يصبح عددهم عشرين مليوناً في القريب وثلاثين أيضاً؟
أنا أضع الآن أرقاماً رسمية توضح مقياس زيادة
السكان ، التي تكاد تتضاعف في فترات متقاربة ، كما حدث
في سنة ١٨٤٦ حين زاد عدد السكان بقدر الضعف في
ربع قرن ، ولمصلحة الصحة برنامج صحي للمستقبل ، لا أشك
في أنه سيجعل الزيادة أكثر إسرافاً وسرعة ، وهذه الأرقام
وحدوها تدعو الى التأمل وتقتضى منا اليقظة :

عام	عدد السكان	مصدر الإحصاء
١٨٠٠	٢٠٠ر٤٦٠	من الحملة الفرنسية
١٨٢١	٤٠٠ر٥٣٦	من كشوف الضرائب
١٨٤٦	٤٤٠ر٤٧٦	من تعداد المساكن
١٨٨٢	١٣١ر٨٣١	من تعداد الأفراد
١٨٩٧	٤٠٥ر٧٣٤	من تعداد الأفراد
١٩٠٧	٣٥٩ر٢٨٧	من تعداد الأفراد
١٩١٧	٩١٨ر٣٥٠	من تعداد الأفراد
١٩٢٧	٨٦٤ر٢١٧	من تعداد الأفراد
		(الإحصاء الأخير)

سيرة مهملات

طال حديثي عن الريف ولكن ما حيلتي؟ كلما حاولت الصمت التماسا لهدنة ذهني المكدود، شعرت بأني إنما أطفئ النار بالزيت. وأقسم غير حاشة، أتى يوم ذهبت إلى الريف لم أكن أنوي أن أكتب حرفا واحدا لأن الطبيب أمرني ألا آخذ معي كتابا واحدا، وأن أنقذ نفسي من أكدياس الكتب وضوضاء المدن، ولكن كل ساعة قضيتها في القرية، وكل دقيقة، كان لها حديثها وشقاؤها، وأثرها البعيد القرار في نفسي، وكانت كل خطوة في أرض القرية، تنكشف لي عن شقاء أليم يصعب تصوره. ولقد أفلح الطبيب وأفلحت أمي في الحيلولة بيني وبين الكتب، ولكنهما عجزا عن شل ملكة التفكير في دماغي، وسلب قوة الإبصار من عيني! كان يجب أن أكون ساذجة عمياء حتى لا أفكر ولا أرى، أما وقد كنت غيرهما، فقد رأيت وما أهول ما رأيت! كنت أشهد شقاء القرويين، وأنا

نشرت في الأهرام الغراء في ١٧ من أغسطس سنة ١٩٣٥

حمامة مكتوفة اليدين ، ثم ما كدت أعود إلى المدينة حتى شعرت بالأفكار تزدهم في رأسي وتشقيني وتريد انفجارا ففزعنت إلى قلبي ، أحاول أن أنفث فيه بعض الآلام المتجمعة في رأسي ، وأن أخفف به شيئا من الضغط الهائل الذي أشعر به جاثما على صدري وفي دماغي .

مساحة القرية : ٣٥٤ فدان .

عدد السكان : ٦١٣ نسمة .

عدد المزارعين وأفراد عائلاتهم : ٥١٣٢ نسمة .

المتوسط بالنسبة للمزارعين ١٤ نسمة لكل فدان تقريبا .

لم أكد أشهد هذه الأرقام حتى زالت دهشتي من فقر

قوم يمشون على أرض من الذهب ؛ أربع عشرة نسمة

يأكلون ويكتسبون ويدفعون الضرائب ويطعمون

حيواناتهم بريع فدان واحد ؛ إن الفدان يؤجر هناك بثمانية

جنيهات ، يدفع الفلاح منها ١٦٤ قرشا ضريبة أطيان

وتسعة عشر قرشا ضريبة لمجلس المديرية (١٢ ٪ من ضريبة

الأطيان) وثلاثة وثلاثين قرشا ضريبة للخمر ، ويبقى بعد

هذا كله مبلغ يزيد قليلا عن خمسة جنيهات ونصف . أمن

السهل أن يتصور أحدهنا إمكان كفاية ذلك المبلغ التافه ،
لمطالب شخص واحد عاما طويلا ؟ كلا بالتأكيد ، ولكن
من السهل أن ندرك جميعا إلى أية درجة انحط عيش الفلاح
ما دام ذلك المبلغ هو قوام حياة أربعة عشر نفرا !
وفي الغد ؟ سيزداد عدد سكان القرية دون شك ،
وستبقى مساحة القرية كما هي دون أقل ارتياب ، فمن لى
بعقل آخر أتصور به إمكان حياة الفلاحين فى ذلك الغد
القريب ؟

لقد بينت فى كلمتى السابقة كيف يتضخم عدد السكان
فى سرعة غريبة ، وكيف يزداد عدد مواطنينا الفقراء
بازدياد عدد سكان القطر ، لأن الفقراء والفلاحين هم
أسرع المصريين تكاثرا ، وأبعدهم عن فكر قى الزواج
المتأخر وتحديد النسل ، كما بينت أنه بينما تزدحم الأراضى
الزراعية فى الوادى والدلتا ازدحاما لا طاقة لهما بأكثر
منه ، توجد أراض أخرى فى مصر أيضا ، لا تكاد نسبة
عدد السكان فيها تبلغ نسمة واحدة لكل ثلاثة عشر كيلو
مترا مربعا .

ليست المسألة مسألة الأرض التى نحيا فوقها ، وإنما

يمكن الخطر في الأرض الصالحة للإنتاج، فالقرية التي تسكنها مائة أسرة وفيها مائتا فدان مثلاً، ستبقى كذلك حتماً من حيث المساحة، حين يزداد عدد الأسر إلى مائتين. ترى هل يحتمل الفلاح شقاء أقصى مما يتخبط فيه الآن؟ ونحن لا نملك حيال هذه السرعة العجيبة إلا أحد حلول ثلاثة، أولها تحديد النسل حتى نحفظ النسبة بين عدد السكان، وبين الأرض الصالحة للإنتاج، فنحفظ التوازن بين حاجة الاستهلاك والكمية المعروضة له، وثانيها استغلال ثروتنا غير الزراعية، لأن سياسة الاقتصار على استغلال الثروة الزراعية لم تعد صالحة للتنافس في عصرنا الحافل بالاضطراب، ولن تقوى مصر بها على الكفاح في المحيط الاقتصادي العالمي المضطرب، وثالثها إصلاح الأراضي البور حتى نجد منفذاً لتضخم عدد السكان وحتى يكفى الإنتاج لسد حاجة المستهلكين الآخذ عددهم يقينا في الازدياد.

فأما تحديد النسل فلا سبيل إلى البحث فيه، لأن هذه المسألة تتصل اتصالاً وثيقاً بالناحية الدينية، ولأن

الفلاح كما قلت يرغب فى النسل ، ولا يزهد فيه عوز ولا فقر ، لثقته فى الله عز وجل من ناحية ، ولانحطاط مستوى معيشته ، انحطاطاً كلياً من ناحية أخرى . على أن تحديد النسل لا يخلو من خطر ، من حيث الناحية الاجتماعية ، فليس من المعقول أن تتقدم بنا الأيام وعدداً لا يتغير ولا يزداد . ثم إن الأمم التى أخذت أبناءها بهذا المبدأ ، عادت حكوماتها تجار بالشكوى من قلة النسل ، كأنما هى تخشى الانقراض . وفى إيطاليا قانون يمنح الأسرة إعانة كلما ازداد عدد أفرادها بالتناسل ، وينظر إلى رب العائلة نظرة خاصة فى الوظائف وأجور المساكن ، وفى ألمانيا قضى هتلر بأن تمنح العاملة إعانة لتزوج وتترك عملها ، ولها أن تحل خطيئها العاطل محلها ، ولها أن تؤثب بيتها على أن يدفع الثمن أقساطاً متباعدة معقولة ، لا تشعر بضيق أو إرهاق ، وقد يبدو هذا كعلاج للبطالة ، ذلك حق ، ولكنه فى صميمه تشجيع لإنشاء الأسر الجديدة ، وازدياد عدد الأفراد .

وفى فرنسا تمنح الأم إعانة معينة إذا بلغ عدد أولادها حداً معيناً ثم يزداد مقدار الإعانة بازدياد عدد الأولاد .

ونحن أمة تجتاز الآن فترة انتقال حافلة بالقلق والاضطراب ، وعلى كتفها أعباء ثقال من أثر الجهاد في سبيل الحياة منذ عهد البطالسة حتى مارس سنة ١٩٢٢ ، وفي سبيل الحرية والاستقلال غير المزيف حتى اليوم والغد . ولا بد لها في هذا الجهاد من قوة معنوية تستمدّها من أبنائها وقد يكون من الجناية عليها منع التكاثر في الأولاد .

أما استغلال ثروة مصر غير الزراعية فلست أقصد بها مجرد الاهتمام بالصناعة والتجارة ، وإنما يجب أن يتعداهما إلى الثروة المعدنية والحيوانية ، ومصر غنية بهما إلى حد يجهله الكثيرون . إن ارتفاع سعر الذهب حالياً فرصة يجب ألا ندعها تفلت من أيدينا ، فمناجم الذهب في الصحراء الشرقية أهمل استغلالها لعظم النفقات لا للشك في وجود الذهب بها . وتلك العقبة لم يعد لها أثر منذ ارتفع سعر الذهب ، والأمراً لا يحتاج إلا إلى شيء من العزيمة والمثابرة ، ثم إن الأبحاث التي ساهمت فيها مصلحة المناجم

والمحاجر ، أثبتت وجود خامات الزنك والرصاص بالقرب من القصير ، ويتراكم حجر الزبرجد في البحر الأحمر إلى درجة كبيرة ، وحجر الزمرد جنوب القصير ، هذا إلى وفرة البترول والأحجار في مصر .

فأما الثروة الحيوانية ، فيكفي دليلاً صادقاً على إهمالنا إياها كوننا نستورد سنوياً من الأغنام ١١ر٠٠٠ رأس ثمنها ١٠٠٠٠ ج م ومن الجبن ٢٤٠٠ طن ثمنها ٢٠٨٠٠٠ ج م ، ومن الأسماك المملحة والمحفوظة ٤٧٢٧ طن ثمنها ٢٠٨٠٠٠ ج م ، بينما تملك مصر من الماشية عدداً ضخماً يكفي لتوفير تلك المبالغ الطائلة لو أحسن استغلاله ، ففي إحصاء وزارة الزراعة لسنة ١٩٣٤ ما يأتي :

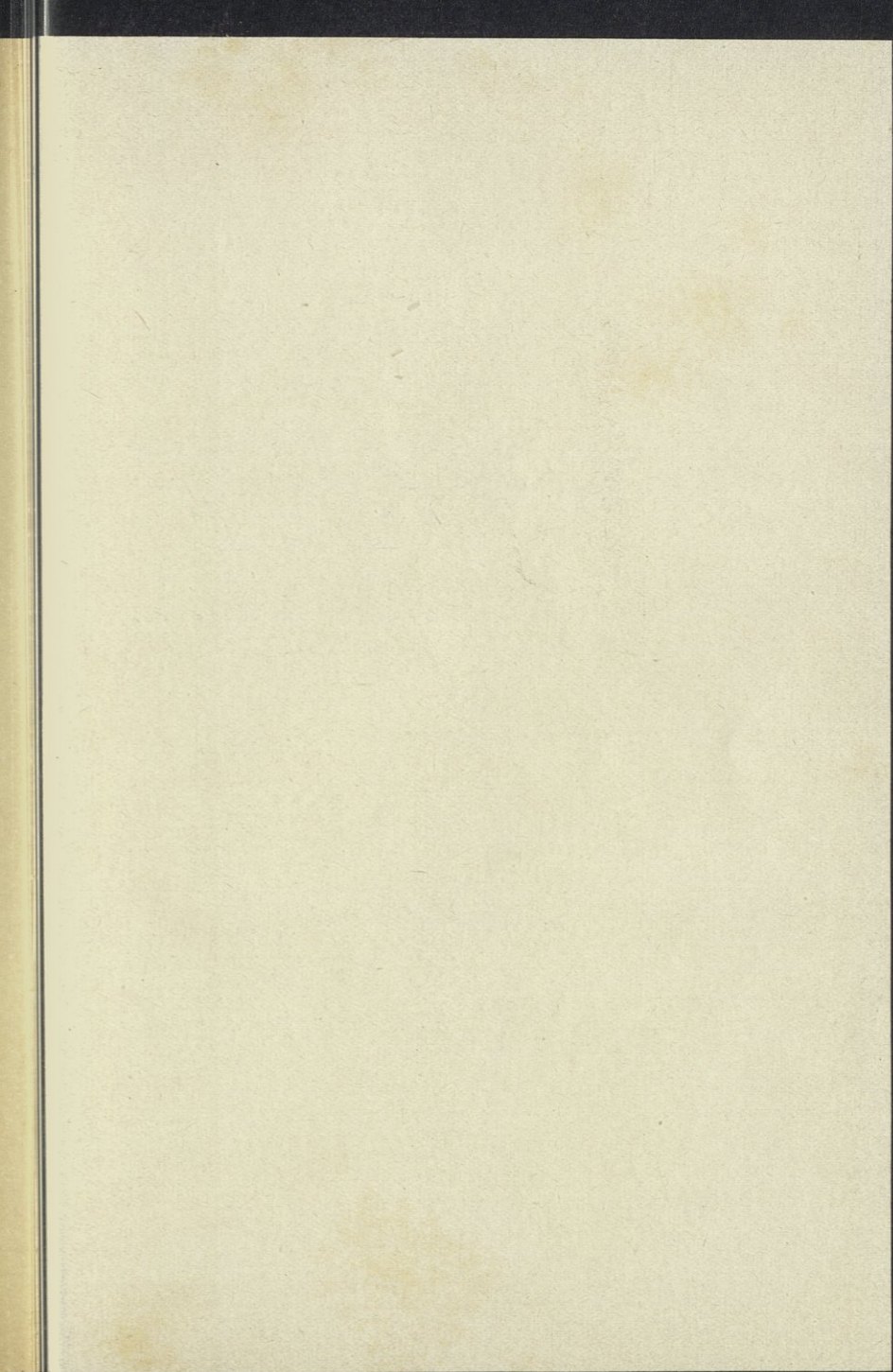
٢٩٢٠٣٤ ثوراً و ٦٣٢١٧٤ بقرة فتكون الجملة ٩٢٤٢٠٨ رأساً .

و ٤٣٠٨٣ ذكر جاموس و ٨٤٤٤٩٣ جاموسة فتكون الجملة ٨٨٧٥٦٦ رأساً .

و ٢٧٣٣٣٧ خروفا و ١٣٤٣٠٣ شاة فتكون الجملة ١٤٠٨٧٤٠ رأساً .

الرعى





و ١٨٠١٣٤ جديا و ٥٠٨٢٢٧ عنزة فتسكون الجملة
٦٨٨٣٦١ رأسا .

وهذه الأرقام تشير إلى أنه قد آن الأوان للاهتمام
بصناعة منتجات الألبان ، كصناعة رئيسية مضمونة الريح
موفورة الخامات ، ثم إن الأسماك تتراكم في النيل والمياه
البحرية ، وفي البحيرات المصرية ، وقد شاهدت بعيني
رأسى أكواماً من السردين في بور سعيد ، لا تجد من
يشتريها ولو بأبخس الأثمان ، والسردين المصرى كما صرح
سعادة خيرى باشا لا يقل جودة وصلاحيه للحفظ ، عن
الأنواع الأجنبية ، ويبقى لى بعد هذا كله أن أصرح فى
حق و يقين ، أن للأجانب بعض الحق إذا « استغفلونا »
واحتلوا أسواقنا الاقتصادية ، مادمننا نهمل موارد الثروة
العجيبة فى بلادنا ، وإلا فقيم الشكوى من الفقر ، وموارد
الثروة لدينا مفرطة شاذة ؟ وفيم سكوننا عن استغلال الثروة
السكامة فى كل شبر من أرض مصر ومياهاها ؟

لقد طال علينا الأمد ونحن نتغنى بمصر الزراعية ،
ويبدو لى أن تلك الفكرة قد دعتنا إلى الاستكانة ، وحببت
إلينا الدعة والسكون ، ولكن ها هو ذا الفلاح المصرى

يد مصر العاملة ، لم يعد فيه شيء من القوة يعينه على القيام بحاجة ملايين المصريين ، فحياته البائسة الشقية قد استنزفت كل ما فيه من قوة ، وهى فى طريقها إلى التهام ما احتازه من جلد واصطبار ، وهاهى ذى الأراضى الزراعية تضيق بسكانها اليوم ، وسيشتد ضيقها غدا ، أفما آن لنا أن نفسح المجال لصناعتنا المصرية كي تأخذ نصيبها من الحياة ، وتظفر بمكانها اللائق ؟

إن لبنك مصر من المجهود الجبار فى إحياء بعض الصناعات ، ما يكفى ملء شيء من الفراغ العظيم فى نهضة مصر الصناعية ، ولسكن هناك بعض الصناعات التى تقوم على غير المنتجات الزراعية ، ولا تنال حقها من الرعاية والاهتمام ، ولست أشك فى أن قليلا منهما ، كفيل بأن يبقى فى جيوب المصريين مبلغ ٥٠٦٣٤ ج م متوسط قيمة الوارد من الأثاث سنويا . ومبلغ ٧٤٠٠٠ ج م ثمن ما نستورده من الأحذية . ومبلغ ١٥٣٠٠٠ ج م ثمن ما نستورده من الصابون المنزلى العادى . ويحضرنى فى تلك اللحظة ، حقيقة مؤلمة ذكرها حضرة الرجل المصلح فؤاد أباطة بك عن دمياط الصناعية ، عند افتتاح المعرض العام ١٩٣٠

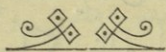
حقيقة لا تزال تترك في قلبي أثرا داميا كلما ذكرتها - وقليلًا ما أنساها - أكد ما معناه أن الأحذية المحلية تفوق الأجنبية جودة ومتانة، ولكنها لا تروج لأن بعض الأغنياء المولعين بالظهور الزائف، يفتخرون بلبس الحذاء الأجنبي، ويرون أن أحذية الشاذلي والرفاعي مثلاً - هما صاحباً مصنعين للأحذية بدمياط - لا تأتلف مع أقدامهم الأنيقة الرشيقة، وقد رأى بعينه أحذية مصرية، مصنوعة في دمياط، تنزع بطاقتها الداخلية ليكتب عليها زورا وبهتاناً أنها مصنوعة في خارج مصر. وكل ما أرجوه أن يكون المصريون قد أدركوا الآن واجبه نحو أمتهم، وأن من غير المعقول أن تنهض صناعتنا، دون عطفنا وتشجيعنا ولو اقتضى ذلك منا بعض التضحية.

والأثاث المصري أصبح يضارع الأثاث الأوربي، ويمتاز عنه برخص الثمن. ولم يعد ينقصه إلا الكثير من اهتمامنا وتشجيعنا.

والحل الثالث والأخير لمشكلة ازدياد السكان، هو

إصلاح الأراضي البور . إن في شمال الدلتا وحده ،
مساحات واسعة من الأراضي البور تبلغ مساحتها نحو
مليون فدان ، موزعة في مديريات الدقهلية والغربية والبحيرة ،
وهي لا تستغل ولا تنتج ولا تخفف شيئاً من ضغط السكان
في الأراضي الزراعية . وإلى هذه الأراضي يجب أن نتجه
بأنظارنا ، وأن نهتم بها كنفذ للزيادة المطردة في عدد السكان .
لدينا الآن مئات من متخرجي مدارس الزراعة ينتظرون
عملاً ، وتحشد في أدمغتهم نظريات عملية يودون لو تتاح
لهم الفرصة لتحقيقها عملياً . ولدينا مئات الآلاف من
القرويين ، يريدون العيش ومن واجبنا أن نمهد لهم ،
وينتظرونا في الغد ملايين من المصريين يريدون مكاناً جديداً
ومنتجات أخرى ، ولئن أقعد الحكومة عن الإسراع
في إصلاح تلك الأراضي كلها قلة المال ، ومشاكل السياسة
الداخلية والخارجية ، فإن الجمعية الزراعية الملكية ذات
الأثر المشهود في حياتنا الزراعية ، ترحب بالعمل ، وقد
عرضت فعلاً على أولى الأمر ، أن تمنحها الحكومة من
عشرين ألفاً إلى أربعين ألف فدان ، لتصلحها الجمعية بمعرفة

وعلى نفقتها وبإشرافها ، وعرض خريجو مدارس الزراعة
مثل هذا الطلب على الحكومة ، فلو تعاونت الهيئات
الثلاث - الحكومة والجمعية وخريجو الزراعة - على إصلاح
تلك الأراضي التي لا نستفيد منها شيئا ، لصارت في القريب
العاجل أراضى زراعية يدفع أصحابها الضرائب للحكومة ،
ويتسجون القطن وهو أكسير الحياة الذهبي للخزينة المصرية ،
وقد تكون النتيجة إصلاح حال الفلاح الذي يهيم في ظلمات
الجوع والعوز والشقاء .



ترف بالغ وحقاء أليم

ما أقسى شعور الشقي بمرور لحظات السعادة القصيرة التي تلوح في حياته التلسة كالبرق يلمع لحظة في السماء المظلمة ثم يتلاشى ! ولشد ما يعذبه شعوره بها وهي تمر سراعاً مخلفة له مرارة الذكرى ولوعة الحنين !

لقد قضيت لحظات هادئة سعيدة في بهيم ، وهناك بين الفلاحات السعيدات كنت أنظر إلى ساعتى فى حركة عصبية مؤلمة ، وكنت أود لو أوقف عقريها حتى لا تشعرنى دقائقها بأن الزمن يلتهم فى جوفه لحظات الهدوء والسعادة التى نعمت بها هناك ، لولا علمى أن ساعة الحياة تسير فى انتظام ، غير مكترثة بآلامنا وآمالنا إلا بقدر ما تكثرت الرياح بذرات الغبار المتطايرة فى الفضاء ! ومرت الساعات وعدت إلى المدينة ، ولكن ظلت لى غيبوبة الحلم !

وانتزعتنى من أحلامى رسالة قصيرة من الأنسة

« م . أحمد بالحويتية » حملها إلى بريد الأهرام الغراء صباح اليوم الثانى من سبتمبر ، كان كل ما فيها « لن تبخلى علينا بلحظات

نشرت فى الأهرام فى ٦ من سبتمبر سنة ١٩٣٥

قصيرة تقضيها في قرينتنا الحوتية على مسير ثلاث ساعة من
كوبرى الزمالك . نريد أن نراك وأن نلمس في وجهك
نظرة العطف التي يفيض به حديثك عن الريف ، ونريد
أن نبكى بين يديك وأن نريك بؤسنا ، لا لتتقدينا منه ولكن
لنشعر بعزاء الرحمة والحنان »

وساقتني قدماى إلى هناك ، رغم يقينى أنى إنما أسير إلى
البؤس والشقاء . لم يكن فى استطاعتى أن أصم أذنى عن
النداء المتلهف الحار الذى فى سطور خطاب الأخت الفلاحة .
قضيت فيها ساعة واحدة ، وكأنا كانت وحدها عمراً
كاملاً من الشقاء ! لقد أثر فى قلبى ترحيب القرية وأهلها
كرم لقاء أهلها عن التطلع إلى أجسامهم الهزيلة الشاحبة ،
ولكنى لم أكّد أتجول فى القرية ، وأشهد نوع الحياة الوضيعة
الذليلة التى يحيونها حتى شعرت برغبة فى البكاء ! وحتى
أيقنت أن من المحال أن تنهض مصر ، وفى جسمها تلك
الأعضاء المريضة التعسة !

فلنعترف بريائنا !

إن فى الكثير من أعمال الإصلاح شيئاً من الرياء ،
وتلك حقيقة يجب الاعتراف بها رغم مرارتها ، ذلك لأن

الباحث المدقق حين يقرب المجهر من بعض المشروعات الإصلاحية الهامة ، يرى أنها لم تكن خالصة لوجه الإصلاح المحض ، وإنما قصد منها نوع من الغرور والتظاهر الزائف ؛ ونحن في حاجة إلى عيون نفاذة بصيرة تخترق ستار الرياء الذى يلف الشقاء المنحط الكامن فى صميم مصر ، وتتخطى المدن الجميلة المزوقة إلى القرى التى أصبحت وكأنها تحمل العوامل الهدامة فى نهضة مصر بعد أن كان تاريخ مصر كما قال حضرة الأستاذ حسين عنان السكرتير العام لوزارة الزراعة « يكاد يكون جهاداً فى استثمار الأرض ، فقد أقام الشعب المصرى مجده على أسنة الفئوس »

ولست أجد وصفاً أبلغ فى الدلالة على حالنا من البيت الكبير ، يروك ما على جداره الخارجى من نقوش ورواء ، حتى إذا ما تغلغلت فيه طالعت منه بناء خرب مهدم ، تتصاعد منه رائحة نكتة عفنة ، وتحتل الحشرات ضيافة منه .

هذه المباني الفخمة التى تملأ المدن والتى شيد أكثرها أغنياء فروا بأموالهم من سكنى الريف القدر ، وتلك الطرق النظيفة الممهدة ، والمدارس المنبثة فى كل حي من أحياء المدن ، والمستشفيات الكثيرة التى تسهر على صحة السكان ،

هذه الأشياء وأمثالها ما كان أصدقها في الدلالة على نهضتنا
لولا أن وراءها قرى يحيا فيها ملايين المصريين ، حياة
لا يشرق فيها شعاع واحد من أشعة الإصلاح والاهتمام ،
حياة شقية أليمة مريضة ما أشك في أنها ستبث سمومها في
المدن كما يقتل الجسم عضو واحد مريض !

هذه المشروعات الإصلاحية ما كان أجدرها باسم
النهضة لولا أنها طلاء مزوق لبيت خرب مهدم !
وبعد هذا يخدعنا ويطربنا إطرء الأجانب حين يهدئون
شهوة غرورنا ويؤكدون لنا أن مصر صارت حقا قطعة من
أوروبا ؟

أقول الآن - وأنا أغنى ما أقول - أنهم يسخرون منا
ويتفكحون بنا ، وإلا فما هذه المساخر والأكاذيب ، التي
يفترها كبار الكتاب الغربيين على مصر وأبنائها في كبريات
صحفهم ومجلاتهم ؟ وفيم تشبههم بالتهامنا ما داموا يعترفون
بمدنيتنا الأوربية ؟ وهل ترى يغنيننا هذا الاعتراف يوم
نطالب جديا بحقوقنا وحين تريد لهم أهواؤهم على إنكار
ما أكدوه من قبل ؟

إن المؤرخ المحقق ، حين يهمة أن يسجل لمصر نهضتها ،

لن يكتفى بالنماذج التي نقدمها له ممثلة في المدن ، وإنما سيتجول في نواح أخرى غير هذه المدن ، ليشهد من شقاء الفلاح وانحطاط مستوى معيشته ، ما نحاول دائما أن نتغافله وتتناساه ، كيلا يشوه علينا ترفنا ونعيمنا ! ومثله في ذلك مثل المفتش الماهر حين يفاجئ المدرسة بزيارته ليرى جهودها في التعليم ويحكم لها أو عليها ، فهو يتغافل عن نماذج « الكراسات » التي يجتهد المعلمون في اختيارها ، ليجتهد في كراسات يطلبها بنفسه من التلاميذ !

والأجنبي ، حين يهيمه أن يقف على حال مصر لغرض في نفسه ، أو لمجرد المتعة ، أو لمحض الاطلاع ، أترى يشرفنا عنده جمال المدن وبهاؤها حين ينتقل فجأة من القاهرة إلى شبرا البلد مثلا ، وكأنما يقذف به من النعيم إلى الجحيم ؟ أتراه لا يحتقر زيفنا ورياءنا حين يسير به ترام الهرم من الزمالك إلى الجيزة ، فيشهد عن يساره أنوار العائمات الساطعة تخترق الظلام متمزجة بضحكات أهل الثراء والنعيم بينما يرى عن يمينه قبيل « العجوزة » أكوأخا حقيرة واطئة لا يصلح أحدها لسكنى الحيوان ، وتضىء كلا منها ذبالة ضئيلة باهتة لا تقوى على اختراق الظلام ، بينما تختفي في

حيات الهواء أنات ضعيفة من أجسام منهوكة مريضة، تتراكم
في هذه الأكواخ وقد هدمها العوز وأذلها المرض والشقاء.

بينما كان أعضاء المؤتمر الجغرافي الذي انعقد في القاهرة
في إبريل سنة ١٩٢٥ يزورون القصير طبقاً لبرنامج الزمة
الذي أعدته لهم الحكومة المصرية، أرادت آنسة بلجيكية
في كثير من الإلحاح أن ترى «عزبة مصرية؟» ثم اختفت
الآنسة وكأنما ابتلعها الأرض؟ أين عثروا عليها بعد
الجهد؟ في قرية مصرية من القرى البائسة التي لا تشرفنا
بالطبع وفي يديها آلة التصوير تلتقط بها مناظر شقية قدرة،
لا أقوام يتخبطون في ظلمات الفقر والمرض، لتعود بها إلى
بلادها وقومها وترتهم نماذج من حياة المصريين! ولعلها
نسيت أمام ذلك البؤس الأليم، الصور الشيقة التي أعدها
البرنامج! ومن يدري؟ ربما أصبحت هذه الصور وثائق
في يد السياسة الغربية، تقدمها دليلاً على انحطاطنا وقت
الحاجة، كتلك الصور التي يلوح بها موسوليني، ويرى فيها
مبرراً لإخراج الحبشة من عصبة الأمم، حتى يخلو له الجو
ولا يفسد احتجاج جنيف عليه لذته وهو يلتهم القريسة
في نهم واستمتاع؟

لست أجهل أن نسبة الإصلاح لا يمكن أن توزع
عادلة على جميع البقاع المصرية - وهى ليست كذلك فى
أوروبا - ولست أجهل ما لنظرية التفاوت فى الثروة من
أثر كبير فى حفظ كيان المجتمع ، ولكنى أفهم أن التفاوت
فى الثروة ، ليس معناه أن يكون نصف الناس ملوكا ،
ونصفهم شحاذين مثلا ، كما أفهم أن صعوبة حفظ النسبة
فى توزيع الإصلاح ، ليس معناه أن ترفل المدن فى ترف
بالغ وتهيم القرى فى شقاء أليم !

أصلحوا المدن ، ارتقوا بها إلى عظمة المدن الأوربية
لكن لا تنسوا القرى ومن فى القرى !

اجعلوا المدن قطعة من صميم أوروبا كما تريدون ، ولكن
على ألا يكون الفرق بينها وبين القرى ، فرق ما بين السماء
والأرض !

لقد توهم البعض أنى أبتغى إنهاض الفلاح ، عن
طريق رفع سعر الحاصلات الزراعية ، حتى يبقى له بعد
دفع الضرائب وأجر السباد والرى ، ما يمهده حياة معقولة ،
ولكنى لم أفكر فى هذا ولن أفكر فيه ، ذلك لأن الأخذ
بتلك النظرية الخاطئة - إن أمكن ذلك جدلا - معناه القضاء

على ثروتنا ، واضطراب ميزانية الدولة ؛ لأن انخفاض سعر القطن مثلاً ، هو أكبر العوامل التي تمنحنا قوة المنافسة العالمية وتثبت أقدامنا في المحيط الاقتصادي المضطرب ، وقد أيد ذلك الرأي ، الأستاذ جون تود كبير خبراء القطن في إنجلترا فقال : « كان القطن المصرى يخشى عليه من مزاحمة أقطان السودان وبيرو وإفريقيا الشرقية ، ولكن الآن وقد أصبح القطن المصرى أرخص أقطان العالم نسبياً ، فقد بدأ يسترجع مكانته ، وأصبح ينافس الأصناف المتفوقة من القطن الأمريكى منافسة جدية » ، فإصلاح حال الفلاح عن طريق رفع الأسعار يكاد يكون مستحيل التنفيذ والفائدة .

إصلاح الفلاح يجب أن يقصد به تمكينه من زيادة الإنتاج ، ولن يتيسر له ذلك إلا إذا مهدنا له حياة صحية ممكنة ، وإلا إذا عملنا على تخفيض نفقات الإنتاج . يقوم الفلاح المصرى بواجباته نحو الوطن كما لا يقوم بها سواه ، إنه يطيع القوانين ، ويدفع الضرائب الفادحة ، ويتقدم إلى الخدمة العسكرية دون أن تساعد ظروفه المادية العصبية ، على تمثيل مهزلة البدل النقدى ، الذى يعتبر وصمة

في جبين المصريين، وهو بعد يعمل نهاره وليله في ملء
أسواقنا بالخيرات، وخزانة الدولة بالمال، فأما حقوقه،
فأما واجباتنا نحوه، فعبثا نعر على شيء منها ولو بمصباح
ديوجين!

إن الفلاح الذي يملك ستة أفدنة دخلها أربعون جنينا،
يدفع اثني عشر جنينا ضريبة سنوية للأموال، عدا ضريبة
الحفر، وهو بعد هذا لا يشعر بأننا نحس بوجوده إلا
ساعة يطالعه وجه الصراف، بينما يدفع ساكن المدينة ثلاثة
جنيهات عن مثل ذلك الدخل فتمهد له الحكومة سبيل
العيش الآمن الصحي الراق، فهل تكون القرية جزءا خارجا
عن الحدود المصرية؟ هل هي من القلة والتفاهة بحيث
لا يؤثر شقاؤها ومرضها في جسم الأمة، ولا يعوق سير
القافلة؟ أم قد فرض القانون حقوقا لسكان المدن وواجبات
على القرويين؟

يقول «الفلاح المسكين»: «لقد عزم كثير من إخواني
الفلاحين على الهجرة من أوطانهم، فهل لك يا سيدتي أن
ترشدينا إلى بلد نعيش فيه آمنين مطمئنين، ولك من الله
الأجر الجزيل؟» وأنا لا أملك إلا أن أوصيهم بالصبر

إن كان إلى الصبر سبيل . إن الفلاح يفارق القرية الحبيبة إليه وفي قلبه لوعة وفي عينيه دموع حبيسة توشك أن تنهمر لولا الحياء المدارة . والفلاحون يتحملون هول الفراق لو كان هناك مكان آخر يعيشون فيه آمنين مطمئنين ، ولكن أين هذا المكان وكل الأراضي الزراعية في مصر تضيق بسكانها ، وكل القرى المصرية يغمرها الشقاء ؟ لم يبق إلا أن نتظر كلمة المجلس الاستشاري لمصلحة الأملاك في مسألة إصلاح الأراضي البور ، ويهمني والمجلس على وشك الاجتماع كما جاء في الأهرام الغراء ، أن أردد ما قاله سعادة مدير الجمعية الزراعية الملكية : « إذا لم يستنفع بهذه الكميات العظيمة من المياه التي صرفت الملايين من الجنيهات المصرية في سبيل الحصول عليها ، لتحسين وسائل الري الحالية وإصلاح الأراضي البور ، فإنها تترك لتذهب سدى في البحر الأبيض ، وهذا يبدو أمرا عجيبا أمام العالم ، مهما قدمنا المعاذير والأسباب فالواجب القيام بأسرع ما يمكن في العمل على إصلاح البور من الأراضي ، حتى يمكن الانتفاع بهذه المياه ، وتشغيل الأيدي العاملة العاطلة التي تضيق بها

الأقاليم المصرية ، وتكتظ بها المدن ، فيمكن تخفيف
الضغط عنها واستغلال رؤوس الأموال المخزونة في الإنتاج
النافع فيقل العاطلون »

فإذا ما سعت الحكومة إلى الإصلاح العاجل ، فيومئذ
نوفق إلى إنشاء مناطق زراعية جديدة يفر إليها الفلاحون
الذين ضاقت بهم قرَاهم ، وضاقوا هم ذرعا باستبداد العمد ،
فيجدون شيئاً من الرحمة والرخاء ، ينسيهم ما قاسوه من
ظلم وقسوة وشقاء .

لقد قست الحياة على سكان الصحراء الغربية ، من
المصريين الأعراب الذين يعتمدون على الزراعة في عيشهم
ففرّوا إلى الإسكندرية ، مفضلين ذل الخدمة وقسوة العمل
في المباني ، على الموت جوعاً ، وأحسب أن هجرتهم يجب
أن تكون نذيراً لنا ، كي نفكر في البؤس الأليم الذي انحط
إليه عيش الفلاح ، أما إذا تغاضينا أو اعتمدنا على الإصلاح
الاسمي البطيء الذي لا يتناسب مع فداحة شقاء الفلاح
فإن العاصفة ستفاجئنا ويومئذ لن نملك إلا قولنا « ليتنا !! »
حين لا تنفع ليت .

القسم الثالث

اصلاح القرية

في حجة الريف !

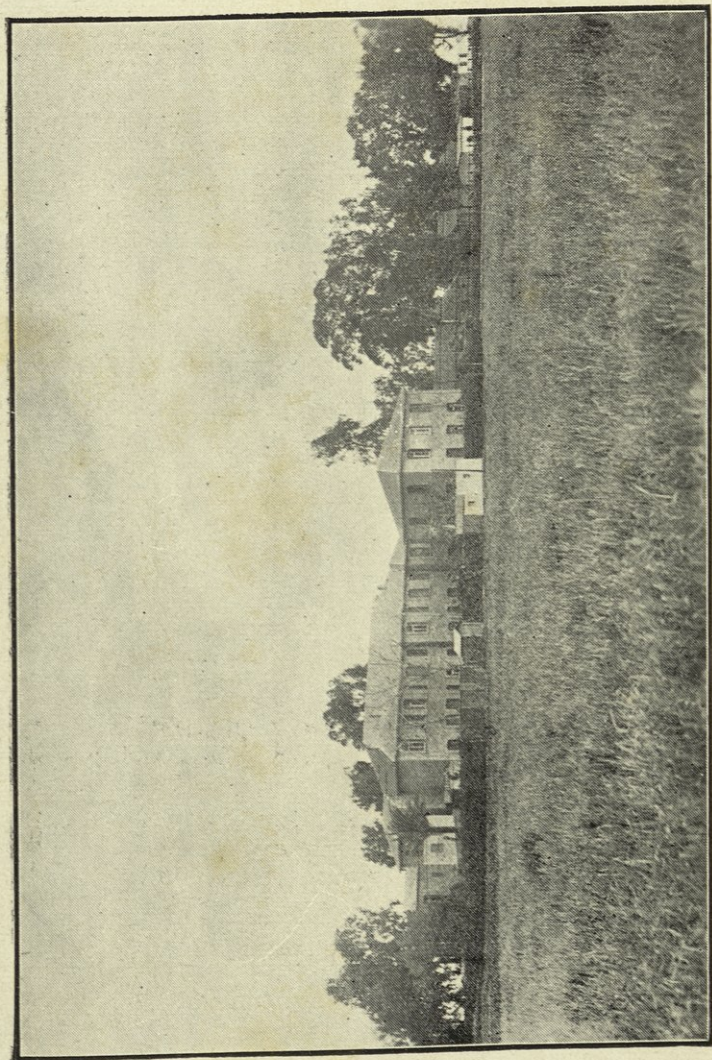
١ - بين الحقيقة والخيال :

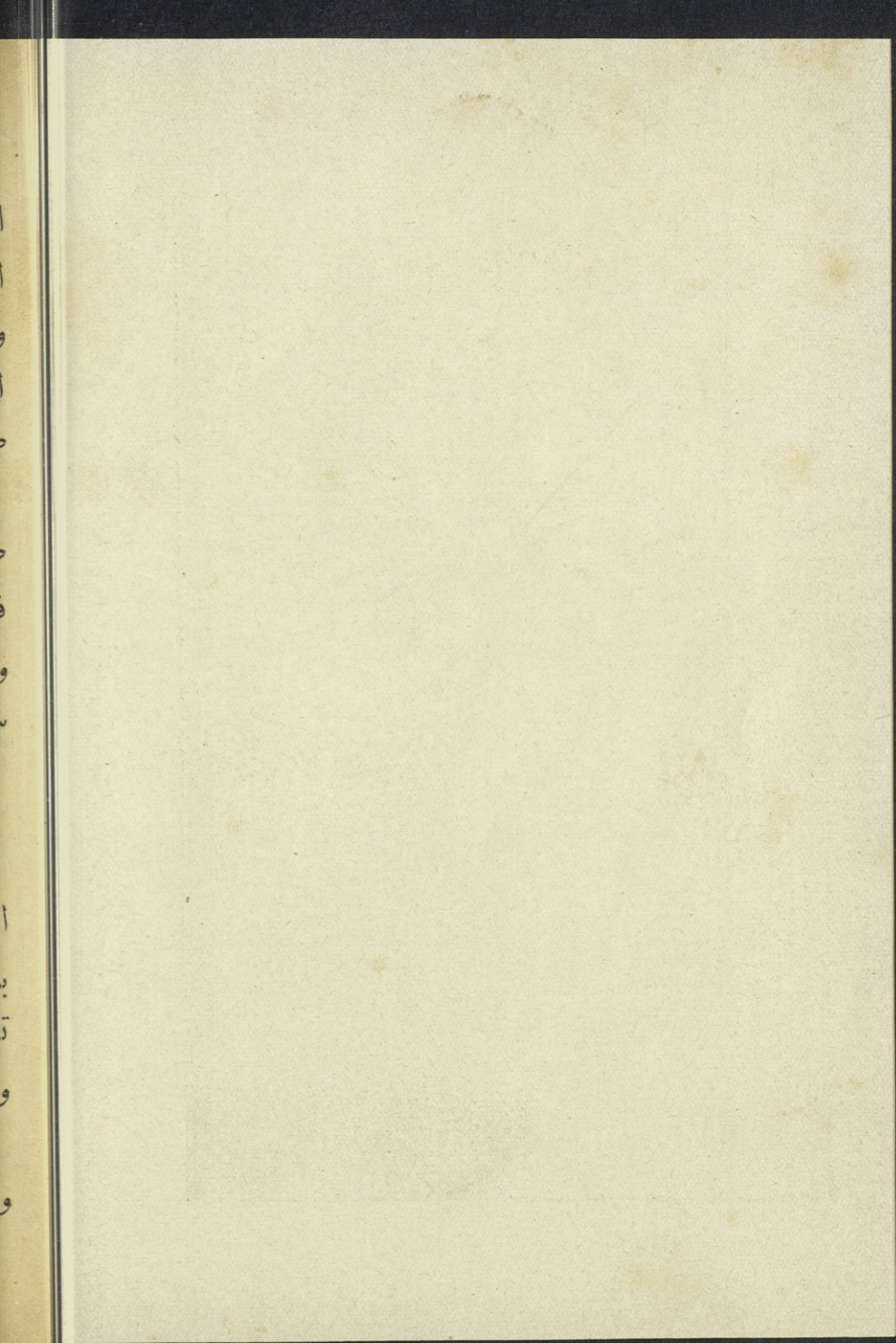
أما أن قرية بهتيم النموذجية كانت تلوح لي في أحلامي
فاتنة رائعة الجمال فهذا ما لا شك فيه ، وأما أن خيالي
استطاع أن يصور لي حقيقة تلك الفتنة ومقدار ذلك
الجمال ، ففي هذا الشك وفيه الارتياب !

لقد اعتدنا أن نقرن الخيال بالإسراف والمبالغة ،
وتعودنا منه أن يجمع فيرينا صوراً أروع من الحقيقة والواقع
ولكن هذا الخيال قد يعجز أحياناً عن السمو إلى روعة
الحقيقة ، ولا يقوى بجناحيه على التسامي بنا إلى جمال الواقع .
عزبة بهتيم ليست مدينة صغيرة بديعة وسط المزارع
كما توهمت ! وكما كنت في هذا التوهم ساذجة حمقاء ، لأنها
لو كانت نموذجاً مصغراً للمدينة ، لكانت أشبه بالغراب
الذي فتن بالطاووس ، فغطى جسمه بالريش الزاهي البديع
واندس بين أسراب الطاووس ، فأهاجها حمق ذلك الدخيل

نشرت في الأهرام بتاريخ ٢٩ من أغسطس سنة ١٩٣٥

منازل موظفى قرية براتيم فى أمضاة الحقول والأشجار





المفتون ، وأرغمته على الابتعاد عن حظيرتها ، فلما حاول الرجوع إلى حاله الأولى ، كان قد نسي مشيته وعوائده ، وكل ما ناله هو التعلق بين السماء والأرض ! لا يقوى على الصعود إلى سماء الطاووس فيهدأ غروره ، ولا يذكر طريق النزول إلى أرضه فيستريح !

وعزبة بهتيم . . . أين يكون سر الجمال فيها لو أنها كانت صورة للمدينة مصغرة ؟ أكانت تسمو إلى المدن الكبيرة فتذكر بينها ؟ أكانت تعد شيئاً مذكوراً بجانب أبسط المدن وأصغر المراکز ؟ لا والله ، وتكون بعد هذا فقدت سحر الريف وسداجة القرى وفنة البساطة !

٢ - كيف وضع المشروع ؟

حين عمدت الجمعية الزراعية الملكية إلى إنشاء المثل الأعلى للقرى ، لم تفكر في المدن كما فكرت أنا ، ولم تلق بالآ إلى نظام المعيشة والمباني ، وإنما عمدت إلى الريف ، تستلهم من عيوب القرى وانحطاط مستوى المعيشة فيها ، وحيّاً لتصميم العزبة النموذجية !

لقد نشأ مدير الجمعية في صميم الريف وشاهد عن كثب وهو طفل ، أى نوع من البؤس يهيم فيه الفلاح ، فلم يملك

له إلا التآلم والرتاء ، ولكن هذا التآلم كان نواة المشروع ،
التي نمت مع نمو الطفل ! فلها شب غلبت عليه نزعته العملية
الصميمة فرأى أن نظام تأجير الأطيان غير عادل ! ذلك
لأن تأثير الظروف الجوية والمائية على كمية المحصول ،
وتأثير تقلب الأسعار وكثرة المضاربات في سعر المحصول
يجعلان أحد الطرفين - المالك والمستأجر - ظالماً ، والطرف
الثاني مظلوماً ! وأرقه التفكير أياماً وليالى حتى اهتدى
وهو في سن العشرين ، إلى نظام الاشتراك ، يزرع الفلاح
الأرض ويقتسم هو والمالك ما ينتج منها !

ثم مرت الأيام ، وأتاح له عمله كمدير للجمعية الزراعية
الملكية ، أن يعيد التغلغل في الريف ، وأن تعاوده ذكرى
الشقاء الأليم الذي شاهده بعينه يستبد بالفلاح المجاهد !
وتحركات بذرة المشروع في رأسه تطلب الحياة ... فحمل
أوراقه وقاد قافلة رجال الجمعية إلى القرى ! وهناك ...
في الغرف الضيقة المظلمة التي يملؤها دخان الفرن ورائحة
روث البهائم ، وضع تصميم غرف مزرعة بهيم ! وبجانب
حظيرة المواشى التي تحتلط بغرف الدار وتملأ المسكان
رائحة نتنة قدرة ، وضع تصميم حظائر بهيم الصحية

النظيفة ، وفي كتاب القرية حيث يحتشد الصغار أمام «سيدنا»
وتحت رحمة عصاه الغليظة القاسية ، وضع تصميم مدرسة
بهتيم الصحية المشمسة الواسعة ، وعلى حافة التربة حيث
تكثُر القرويات يملأن الجرار ويغسلن الثياب البالية
والأواني المتواضعة الرخيصة ، وحيث تعوم جراثيم
البلهارسيا والانكاستوما ، منتظرة أجسامهن الدافئة
لتلتصق بها وتفترسها ، وضع مشروع مياه بهتيم ، التي ترفع
بالآلات الرافعة من بئر ارتوازية إلى خزانين مرتفعين ،
يغذيان مرافق العزبة بالماء النقي الطهور ، وهكذا تم المشروع ،
في صميم القرى ووسط غمرات شقاء الفلاحين ، وليس في
المدن كما توهمت وكما يتوهم غيرى كثيرون !

٣ - في الطريق إلى جنة الريف :

محطة شبرا ، مفترق الطريقين ، المدينة والمزارع !
تطلعت من نافذة السيارة إلى القاهرة ورأى تتضاءل
وتتلاشى بضجيجها ، وتطلعت أمامي إلى الفضاء المتسع
الرحب الذي لا يدرك نهايته الطرف ، وإلى الحقول الحية
تترامى منبسطة حتى نهاية الأفق نابضة بالقوة والحياة والجمال
شم . . . تطلعت إلى السماء وفي عيني أذل أنواع الضراعة

والابتهاال : رب إني بائسة تعسة ، وأعلم أن من المستحيل
نسيان الآلام العاصفة التي تستبد بي ، ولكن يا رب ! هبني
النسيان !

وانسابت السيارة بنا وسط المزارع الرائعة ، وكلها بعدت
عن المدينة وتلاشى الصوت ، خف ضغط الألم الذي يجثم
على صدري ، ثم ما كادت السيارة تجتاز بنا مرشبرا (المزلقان)
حتى تحررت من أفكاري - لا أدري كيف ؟ - وأحسست
كأنما أنا بعيدة عن العالم بشروره ومتاعبه ... كم وددت
لو أغادر السيارة ، وأغمر وجهي الملهب ، برطوبة سيقان
القطن الفارعة الخضراء ، ثم أصلي ركعتين لله العلي العظيم !
ولمنا عن بعد لافتة كبيرة عليها « مزارع الجمعية الزراعية
الملكية » فعلمنا أننا مشرفون على معقل الجهاد والوطنية
العاملة ، ثم انحرفت بنا السيارات يمينا وكأنما هي تنحرف بنا
إلى حياة أخرى غير الحياة المقيدة التي نعرفها ! وبدأت
أفواج القرويات تطالعنا وتهتف بي أن ألتفت بحية !
فانصرفت بوجهي وقلبي إليهن لأشهد وجوهاً مشرقة
بسامة تفيض سحراً ووداعة ، ولأذكر الوجوه
الشاحبة الذليلة التي تشوه جمال الريف المصرى ، ووجوه

النساء السكاذبة المزيفة المصنوعة التي تظالعا في المدن ! ولم
أملك أن صحت من أعماق : ما أجملكن !
أين نحن ؟

في العزبة القديمة ! آه ... كأنما خشيت الجمعية على
زائريها قسوة المفاجأة ! أو كأنما أحبت أن تدع لنا فرصة
المقارنة ...

وأحاط بي الأطفال يسألوني في سذاجة محبة إلى النفس
عن اسمي ، وكأنهم ينكرون على سعادة المدير عدم تقديمي إليهم !
ولما أحبت مطلبهم عادوا منتصرين ، وسمعت زينب الطفلة
الصغيرة الوديعه تهمس في أذن أخيها الصبي : أنت مش
عارفها يا عبيط ؟ دى ست فلانه ! وألحوا على أن أزور
دورهم ، فاستسلمت في ضعف مضحك ، وقادتني زينب إلى
الدار ، حيث كانت أمها تقطف ورق الملوخيه في نشاط
وبشر . وقدمتنى إليها فرحبت بي أكرم الترحيب .

وسألتهن ... ألا يؤلمكن العيش هنا في العزبة
القديمة ؟ فأجبن جميعا : حفظ الله سعادة البك ، سيبنى لنا
عزبة ثالثة إن شاء الله ، لأن الجديدة لا تتسع لنا جميعا ...
دور القرية القديمة لا تختلف عن الدور الريفية المعتادة

ولكن ساكنيها ينعمون بعيش هنيء إذا قيس بحياة غيرهم
من القرويين ؟ ففي الدور خبز وافر وجبن مخلل ، وفي
أغلبها طيور وحبوب كثيرة ، وعلى المواقد شاهدت أواني
البامية والملوخية والفاصوليا . ووجوه المزارعين تشعر
بأنهم يحيون حياة بسيطة معقولة .

إلى العزبة الجديدة إذن ؟ لا وإنما إلى معامل التجارب
وحظائر الماشية واصطبلات الخيول أولا ؟ وأشرفنا على
فناء متسع رحب ، على جانبيه اصطبلاب صحية جميلة
التنسيق ، تضم أكبر وأجود مجموعة للخيول العربية
الأصلية . وأعطيت الإشارة ففتحت الأبواب ، ووقف على
كل منها سائس ممسك بعنان جواد وأشار إلينا الجميع
مرحبين ثم سارت الخيول أمامنا في استعراض دائري
عجيب ، يتقدمها « ابن ريدان » الجواد العجوز الذي سُم
المجد وكسب معارك السباق ما يقرب من عشرين عاما حتى
لم تعد تغريه ، فهو ينظر إلى بقية الخيول وكأنه يدل عليها
بتجاربه وسعة علمه ، وكأنما تبدو له آمالها صغيرة ساذجة .
وتبعه خميس وعمره تسع سنوات ، مثال الجواد العربي !
ضامر البطن طويل السوق والعنق ، مرفوع الرأس في شيء

من الدل والكبرياء ، وانتهى الاستعراض « بابن ابن ريدان » الصورة المصغرة من « ابن ريدان » الشيخ في سن الثمانية ، ومثال الجمال والقوة والشباب — أخبرني يا دكتور ! أنذا أعقب « ابن ابن ريدان » مهرا ، أقسمونه ابن ابن ريدان أم ابن حفيد ريدان ؟

فعلا ضحك الجميع وأنبت أن الجمعية ستختار له اسما آخر كما ستغير اسم جواد أوربي الاسم .

وانطلقنا إلى ضيافة البقر والعجول ! فحيتنا صغارها بالقفز والوثب ، وحيثنا كبارها تحية رزينة حيث ضربت الأرض بحوافرها لتشعرنا بقوتها وهيبتها .

وشاهدت بقرة لها لون نادر لا عهد لنا به في مصر ، وأخبرني حضرة الطبيب البيطرى أنها أوربية ، اشترت لتجربة الإنتاج المختلط ولأنها تدر لنا أوفر من البقرة المصرية ، وإن يكن مقداره أقل مما لو كانت في موطنها . فقلت : هذا كرم منها ! واستدرك الطبيب : لا ولكنها تأكل طعاما أكثر من البقرة المصرية — يا سبحان الله ! حتى البقر الأجنبي لا يعطى شيئا إلا بالشمع !

واسترعى سمعنا صياح الديكة ، فلبينا النداء وانطلقنا

إليها فإذا بها حبيسة في أمكنة ضيقة ! هل جنت ذنبا ؟ لا .
ولكنها تجربة لمعرفة أثر قلة الحركة في زيادة « السمنة » .
وتركت حضرة الأخصائي يشرح نظرياته ، وذهبت
إلى أسراب الأوز التي فتنت عيني بريشها الأبيض الناصع
المنفوش كأنه ريش النعام !

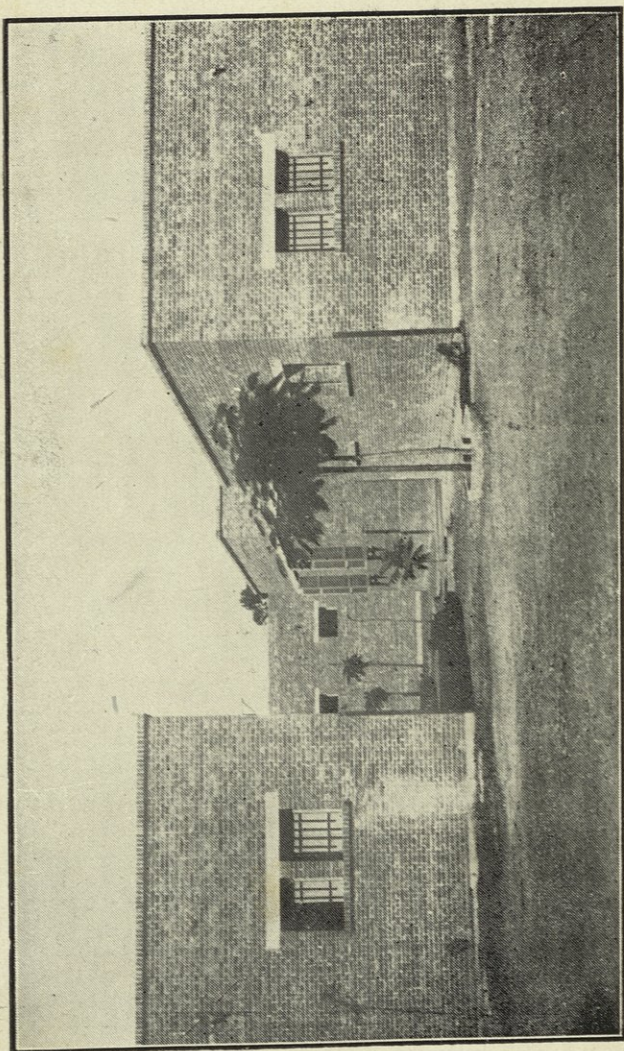
٤ - في جنة الريف !

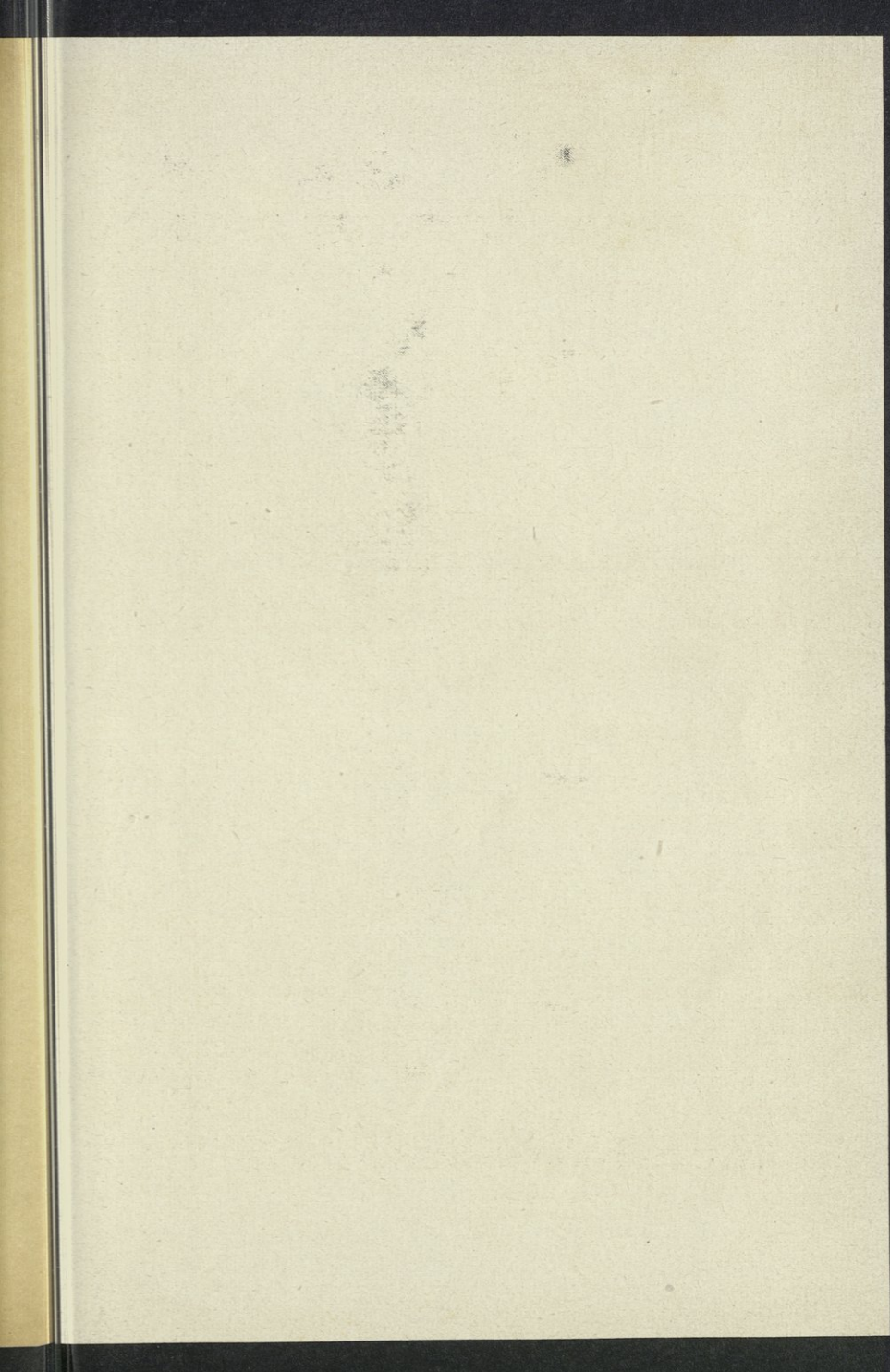
واحتوتنا بعد هذا العزبة النموذجية لتفتتني عن حياة
المدن ، ولتثيرني على المعيشة بها ! الجملة الصادقة التي تصف
العزبة هي أنها « شيء لا يتصور بالخيال ولا يوصف بالكلام
المبتذل المعتاد ، وإنما تعرف وتدرك بالعينين ! »
هنا تبدو عظمة الريف المصرى وروعة بساطته !
لا في القرى الأخرى التي يشوه جمالها بؤس اليم وحياة
شقية ، ومساكن مظلمة بائسة !

هنا يتحقق مبدأ حضرة الرجل المصلح فؤاد أباطه بك
في أن الإسراف في الأناقة يجعلنا أصدق شعورا بالأم البؤس .
وأرق قلبا على التاعس المسكين .

هنا يتخلص الإنسان من آلامه ومتاعبه وينسى كل
شيء إلا روعة الجمال الذي ينكشف أمامه سافرا !

فئة الربيف كما تبدو في القرية النموذجية





هنا يحتقر الإنسان رياء المدن ، وتبدو عظمتها ضئيلة
تافهة أمام روعة الفطرة والبساطة .

أفى الريف نحن ؟ أجل ، ولكن فى أفن جنة به !
المباني لا ترتفع فى الجو ولا تحجب الهواء ، والطرق
نظيفة واسعة تسمح للشمس بأن تلقى أشعتها على الدور
طول النهار ، وتنتهى إلى ميدان متسع كأنه قلب القرية ،
والغرف صحية عالية الجدران يملؤها ضوء الشمس والهواء ،
والقرويون يمشون هنا وهناك ، وعلى وجوههم نضرة
الصحة والقوة والرضاء ! والأطفال يملئون المكان بهجة
ومرحا ، ويلوحون فى ثيابهم النظيفة البيضاء كالملائكة ...
دخلت فى أول دار قابلتني فأخذتني روعتها وبساطتها ،
هذا « الزير » فى الصدر محمولا على حامل ساذج من جذوع
الشجر ، وحظيرة المواشى والمرحاض الصحى النظيف إلى
اليمين ، والفرن إلى اليسار وفناء الدار رحب مكشوف
يتجدد هواؤه فى كل وقت ، وتغمره أشعة الشمس ، وفى
الصدر بهو يؤدي يمينا إلى غرفة نوم على أرضها قطعة حصير
وعلى المصطبة - سرير الفلاح - كليم مصرى زاهى اللون ،
وعلى الصندوق الخشبي وسادتان وغطاء ، ويؤدي يسارا

إلى حجرة واسعة أعدت للجلوس واستقبال الضيوف ،
أنيقة على بساطتها وبساطة ما فيها ، فقد صفت الأرائك
الحشيشية مغطاة بالأكلية ، وزينت الأرضية بقطعة حصير
نظيفة . واسترعى انتباهنا نقطتان من الأهمية بمكان ، الأولى :
كون الفرن بعيدا عن غرفة النوم ، والفلاح مولع بالنوم
فوقه عند ما تشتد قسوة البرد في الشتاء ! والثانية ، كون باب
حظيرة الماشية مطلا على فناء الدار .

وتمهلت قليلا أفكر ! لو أن الفرن وضع في غرفة
النوم لضاعت الفائدة الصحية التي ضحت الجمعية في سبيلها
بآلاف الجنيهات ، ولتصاعد الدخان مختلطا بهواء الغرفة
ليستنشقه أخونا الفلاح كما هو الحال في القرى الأخرى ،
ولو أبعدنا حظيرة الماشية عن الدار ، لفرقنا بين الفلاح
وبين ما يحب ! فللجاموسة عند المزارع منزلة الابن ، ولن
يهدأ في نومه ما لم تملأ الدار بصوتها المنكر ! ما العمل
إذن ؟ الجواب عند حلال المعضلات ، فؤاد أباطه بك
صديق الفلاح .

فأما عن الفرن فهو يرى أن خير وسيلة تحقق رغبة
الفلاح ، ولا تتنافى مع قواعد الصحة والاقتصاد ، هي أن

يخترق الفرن الجدار ، بين غرفة النوم وفناء الدار ، بحيث تكون فتحة في الفناء لتقذف بدخانها إلى الجو بعيدا عن الفلاح ، بينما يكون جسم الفرن في غرفة النوم ، حتى لا نحرم الفلاح ولا نحرم دليلنا عم الحاج أمين (وهو شيخ في الثمانين من عمره يتمتع بصحة جيدة) من نشوة الاستمتاع بنوم الفرن في الشتاء !

وأما عن حظيرة المواشى ، فالرأى عند سعادة حافظ عفيفى باشا ، أن يسد الجدار المطل على فناء الدار ، ويفتح لها باب آخر من الخارج تدخل الماشية منه وتخرج ، على أن نرضى لهف الفلاح عليها بفتحه صغيرة في الجدار « كوة » يطل منها على ما شئته كلما أحس برغبة في رؤيتها والاطمئنان عليها !

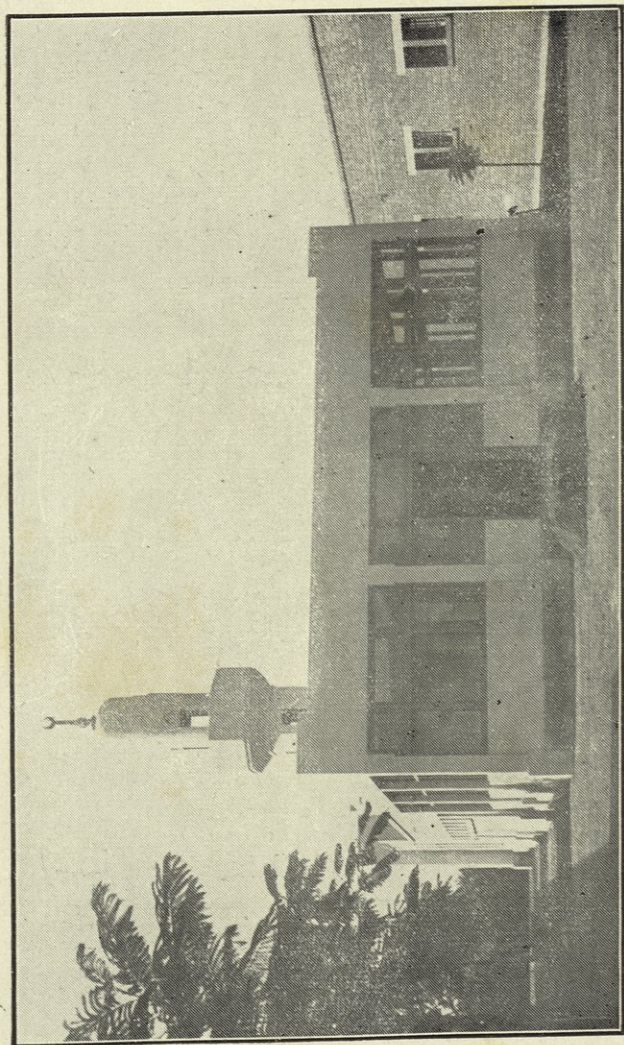
واقترحت أنا - العفو ! - أن يدق مسماران على جانبي إحدى زوايا غرفة النوم ، يوضع بينهما حبل من الليف يجذله العم أمين وتعلق عليه ملابس النوم والمناشف والجوارب حتى تجف من عرق أو بلل ، بدلا من وضعها رطبة في الصندوق .

وذهبنا إلى المدرسة حيث رحب بنا حضرة الناظر في

أدب جم غزير ، وأفرحتني بساطة ثياب الأطفال وتقارب
بيئة المدرسة من بيئة البيت ، وشاهدنا من ذكاء الأطفال
عجبا ! وفي قسم البنات راعتنا نظافة الطفلات وجمالهن في
الثياب الزاهية البراقة بقدر ما أعجبنا بطريقة المناقشة في
درس الحساب ، وحسن استعدادهن وتفكيرهن !

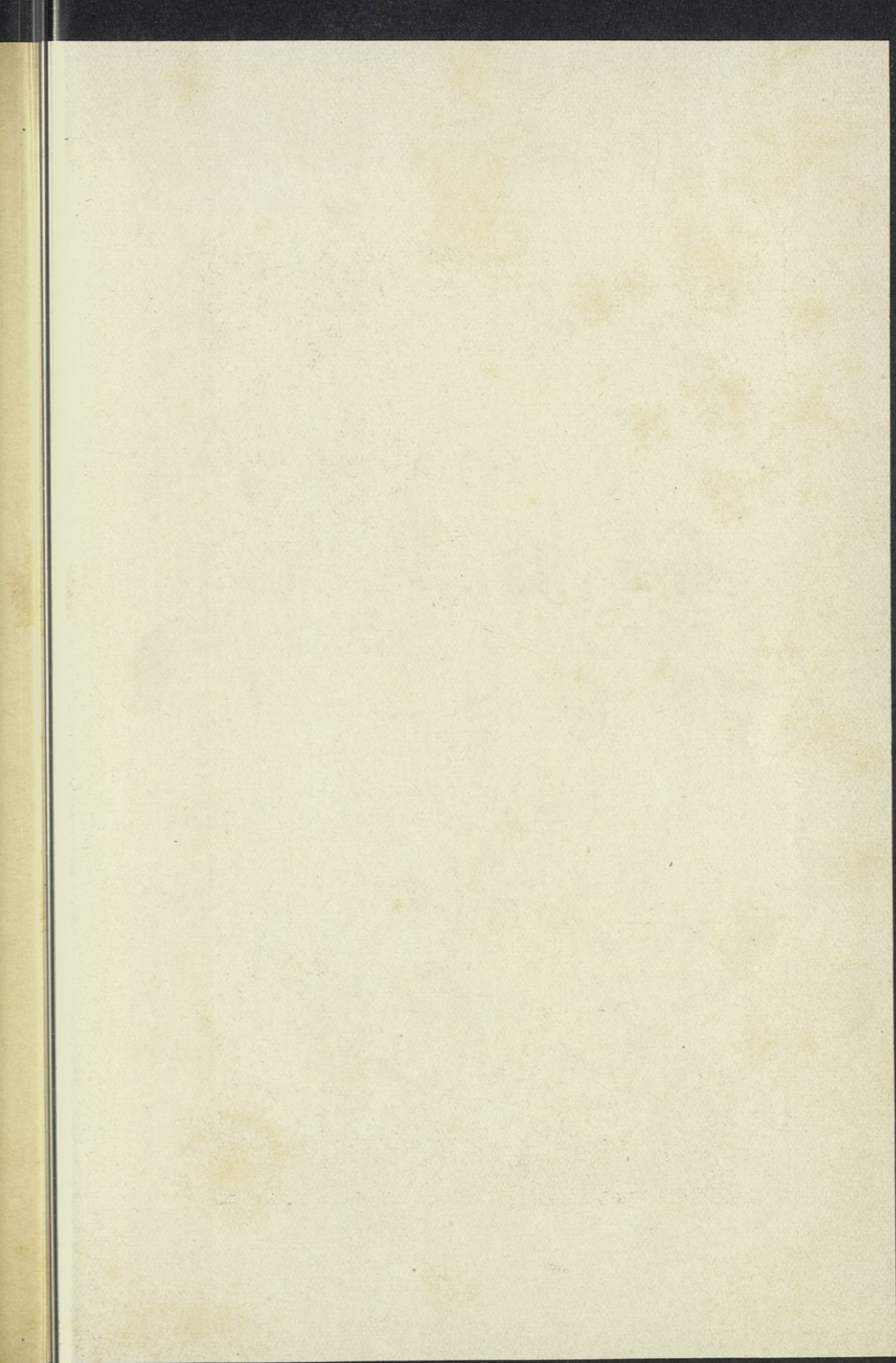
وهتفت وأنا أضحك ! إنهم أسعد حظا مني ! كنت
أجلس على أرض كتاب القرية وأنا أرتعد من (فرقة
سيدنا) التي أذاقتني هولا !

وانتهينا إلى المضيقة ! أين منها شرفة أنخم الفنادق ؟
إنها أشبه بالجوسق الذي يتوسط الحدائق الكبيرة عادة .
بناء رطب يسع نحو سبعين شخصا ، يغمره النور من
جوانبه المكشوفة ، ويتوسطه صفان من الأعمدة تزيد من
بهائه ، وإلى الجدران صفت الأرائك ليجلس عليها القرويون
ليلا يسمرون ويتناقشون ، ترى كم هي فاتنة في ضوء القمر
الفضي الهادي ، حين يهب نسيم الليل محملا بعطر الورد
وشذا الأزهار ! ؟ ترى كم هي فاتنة في المساء الساكن حين
تحيطها أسراب العصافير مغردة بلحنها الشجي الحنون ؟
وفي الجامع الجميل قرأت سورة الفتح ، ثم انتهلت إلى



بحال وجرال

مصيفة قديمة. رايتم ولفرها المسجر



الله أن يوفق رجال الجمعية ، فيما يبغون من خير للفلاح ،
يد مصر العاملة ، وخادمها المخلص القنوع ، ثم تركت الجمع
أسيراً في قيد الفتنة ، وجريت منفردة إلى دور القرويين !
كنت موقنة أنني سأحب نساء القرية فصيح منى اليقين !
إذ ما كدت أفاجئن حتى أحسست وأحسسن بأنى واحدة
منهن ! غلبت على نشأتي الريفية ، فأخذت أقفز وأصبح
أشد ما أكون سعادة وانطلاقاً ! وأبت كل واحدة إلا أن
تضيفنى ! فاعتذرت مؤكدة أنني لا شك سأعود ...

ونسيت نفسى ! ونسيت الزائرين والزائرات ،
ونسيت أعمالى ومشاغلى بالمدينة ! عميت عيناى عن كل
شئ إلا عن المكان الذى هو صدى لأحلامى منذ شاهدت
الشقاء الأليم الذى يغمر الفلاح !

سرعان ما اتلفت بكل من فى القرية ! لم هذا ؟ أ يكون
لأنى ريفية المنشأ والزعة ؟ أم يكون لأن فى قلبى جراحاً
دائمة من ذكرى شقاء الفلاح فتشبثت بالمكان الذى تسعد
فيه فئة من الفلاحين ؟

وفى الدور شاهدت مثال الحياة التى يجب أن تمنح

للفلاح ، وأفن ما راغنى صوت القرويات المرح ، يملأ
المكان جمالا و حياة !

سألت كلا منهن على حدة : أسعيدات أنتن ! فكان
جوابهن الواحد : وهل فى ذلك شك ؟ ثم تتجه كل منهن
إلى السماء بقلبها ، تسأل الله للمنقذ النبيل سعادة وتوفيقاً .
وأحاطت بى الصديقات مودعات ، يسألننى متى تكون
العودة ، قلت : قريباً إن شاء الله ، أقرب مما تتوهمن !
أفتحسبن أنى أجلد للفراق طويلا ؟

وتطلعت ورائى أسائل النفس : هل يمكن أن أنسى
اللحظات السعيدة التى قضيتها فى عزبة بهتيم ؟ هل يقوى
الزمان على طرحها فى زوايا النسيان ؟ وهتف بى قلبى أن
اطمئنى ، فلن تنسى مادمت أنبض فيك !

وخلفت العزبة ورائى ، واعتمدت رأسى بين يدي وأنا
أجتر الجمال الذى وعيته هناك فى زهول حالم ! بينما كانت
رائحة المانجو التى أتخفتنى بها الأخت السكريمة « السيدة
هانم » تملأ أنفى ودماغ ! وبينما كانت زهرة الفل المرتعشة
فى يدى الذاهلة ، توحى إلى أنى لا زلت فى جنة الريف !

موسى بنى الفراع

فى قسوة الظهيرة من شهر يونية ، حيث السماء تقذف
الأرض بالنار ، وحيث الهاجرة تغلى الدم وتصهر العظم ،
وقد احتسى الناس بالجدران من قسوة الطبيعة ولاذوا
بالبیوت فراراً من اللهب ، وقف الفلاح وسط الحقل ، عارى
الجسم إلا مما يستر العورة ، وعلى رأسه قبعة كبيرة من
الخوص ، يود لو تحميه من أشعة الشمس المحرقة ، وقد سال
عرقه فاختلف بالقمح الذى يحصده ! وكلما أنهكه التعب
وأدركه الإعياء ، ألقى نظرة على العمل الذى ينتظره بين يديه ،
وعلى الحقول الواسعة المترامية الأطراف تنتظر آلاف من
المزارعين أمثاله ، يشقون طول العام فى انتظار موسم الحصاد ،
وتساءل : ترى هل يشعر السادة المنعمون بالثمن الفادح
الذى يدفعه الفلاح فى إعداد طعامهم الفخم ؟ ترى كيف
يكون المصير لو مضى الزملاء يلتمسون الراحة ويحتمون
بالجدران ؟ ولا يصل به التفكير إلى هذا الحد حتى يشعر

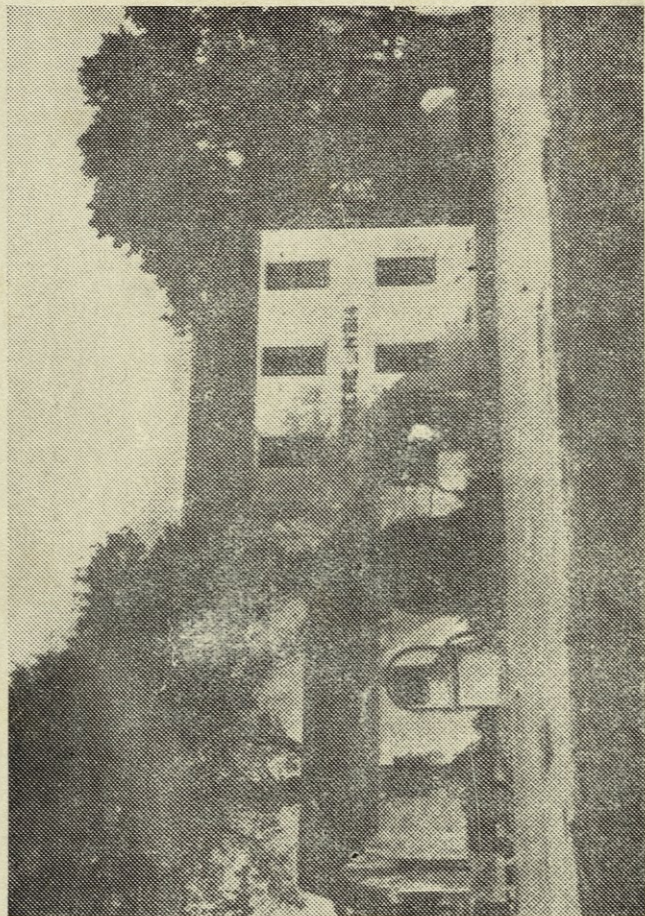
في ساعديه بقوة جديدة تطلب العمل ، وفي قلبه بنشاط
يصرفه عن التفكير في القصور وما تخفى جذرائها من
راحة ونعيم ! وربما حانت منه التفاتة إلى جاره الفلاح ،
فيرى أن ما قد حصده زميله أكثر مما حصده هو ، فتشور
في نفسه حمية أقوى ، ويظل في العمل المرهق إلى أن يدركه
المساء ، فيتراخى جسمه يطلب الراحة بعد الجهد الطويل
الشاق .

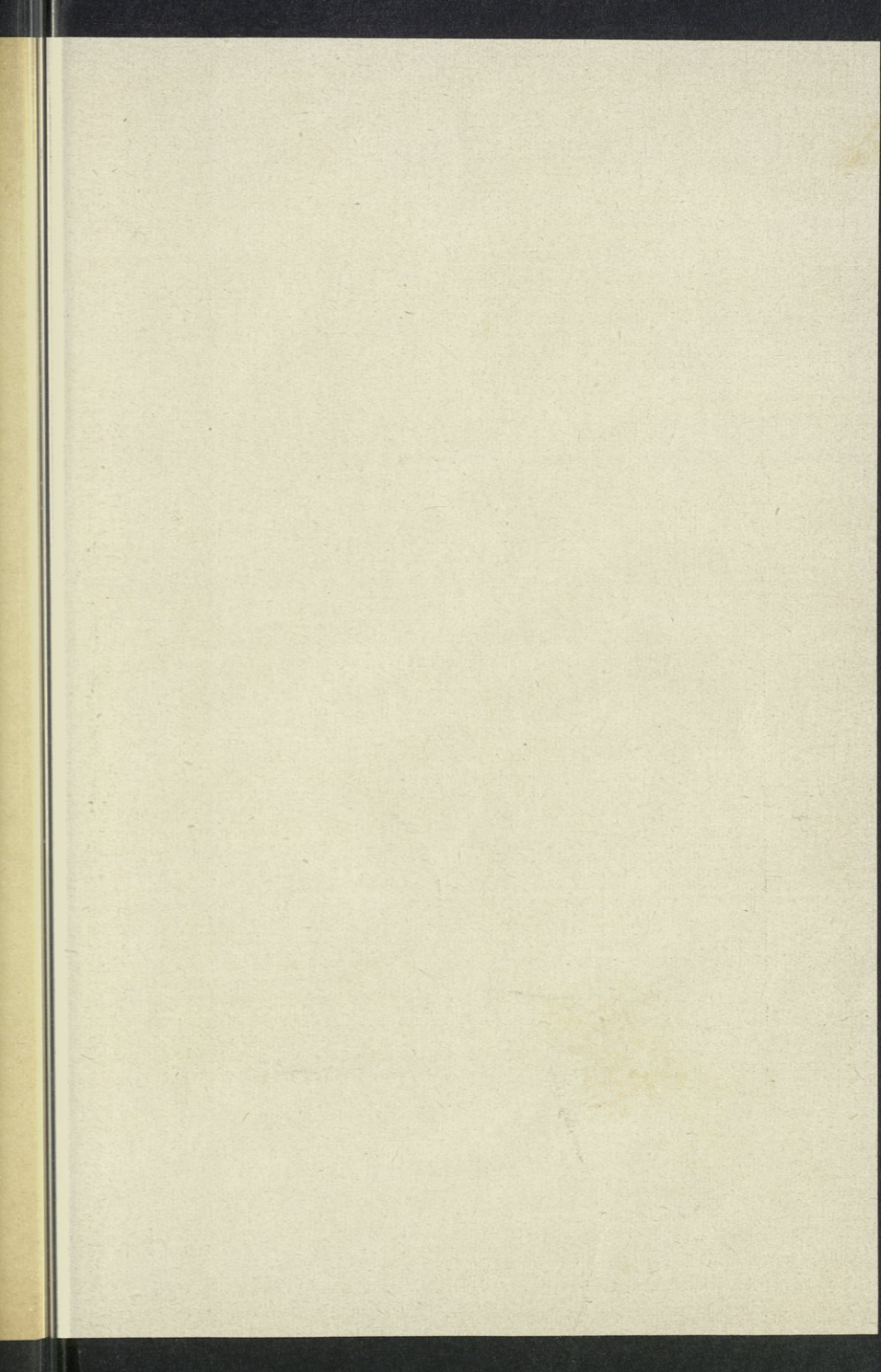
من الرجل ؟

إنه موسوليني ، زعيم إيطاليا وحاكمها الدكتاتور ؟
انسوا لحظة شخصية الجبار الذي قال عنه السير صموئيل
هور وزير خارجية إنجلترا ، إنه ينبغي الانتقام من الأحباش ،
لأنهم لم يقدموا بلادهم هدية لجشعه الاستعماري ، وانسوا
لحظة شخصية المستبد الذي يقذف بمعارضيه في مستعمرات
بلاد بعيدة عنه ، واذكروا في تلك اللحظة التي نكاد نسمع
فيها دوى المدافع ، موسوليني الفلاح !

لقد أراد موسوليني أن يرقب حال الفلاح الإيطالي
عن كשב ، ليقرر بشأنها ما يراه ، فاتخذ لذلك طريقا أشبه

منزل مزارع بمنطقة الاصح في إيطاليا





بطرق المربين ، الذين لا يدرسون طبائع الأطفال مثلاً ،
إلا إذا نزلوا إلى مستوى تفكير الأطفال ! وفي شجاعة جريئة
خلع ثيابه المثقلة بالأوسمة والنياشين ، وأمسك بالمنجل
والفأس ! وبحث الإيطاليون عن زعيمهم ، ليؤيدوه بهتافهم
ضد انكلترا واليابان في ثورتها على سياسته الاستعمارية
الفاضة الكفيلة بتقويض الاستعمار كله ، فإذا بهذا الزعيم
وسط الحقول ! يحصد القمح عارى الجسم تحت لهب شمس
الصيف المحرقة ، ووسط قفّة من الفلاحين المنبوزين !

هل قرأتُم خطبة المصلح الاقتصادي فؤاد أباطه بك
عن حركة الإصلاح الزراعى فى إيطاليا ؟ إذا كنتم قد
دهشتم لهذه النهضة الحاسمة العاجلة ، فاذكروا أن موسولينى
وضع خطة الإصلاح فى الحقل ، فبينما كان يمسك بالمنجل
ويحصد القمح ، كانت عيناه تدرسان حال الفلاح وشقاءه ،
وكان رأسه يدبر المشروعات ويرسم الخطط ، بعيداً عن
المكتب الفخم ! وما أحسب أن نابليون يضج فى قبره
إذا استعرت عبارته المشهورة ، وقلت : « إن موسولينى
الذى يمسك بالفأس فى يمينه ، يمسك بمصير العالم فى تلك
الآونة العصيبة فى يساره ! »

وإيطاليا ليست بلاداً زراعية ، ولا تعتمد على الزراعة في ثروتها العامة ، فالأقاليم الزراعية فيها لا تعدو حوض نهر البو حيث يستمد النهر ماءه من الأمطار شتاءً ومن الثلوج الأليية الذائبة صيفاً ، وحوض نهر أرنو وحول خليج نابولي ، ومحصولاتها الزراعية تنحصر في القمح والتوت والكروم والزيتون ، وفيما عدا ذلك ، فإيطاليا بلد صناعي تجارى ، ولكن من أفرادها آلافا يشتغلون بالزراعة ، وهم أعضاء من جسم الأمة ، يؤدون واجباتهم نحوها ، فلهم أن ينالوا حقهم من الإصلاح ، وراح موسوليني يدرس حالهم عن كثب ، بل تواضع واختلط بهم وقاسى مشقة عملهم ، فثارت نفسه كزعيم أمة مسئول عن توفير الراحة لكل فرد من أفرادها ، واستطاع أن يغمر الزراعة والمزارعين بفيض من الإصلاح العجيب !

والآن إلى مصر !

مصر البلد الزراعى المحض ، الذى قال عنه سعادة كامل ابراهيم بك وزير الزراعة « مصر بلاد زراعية ،

بل هي من أصلح أقطار العالم للزراعة بما وهبها الله من تربة خصبة ومناخ صالح ، وبما وهب فلاحها من صبر على العمل وقناعة في المطالب ، والزراعة في بلادنا ما تزال هي المنبع الأول للثروة »

ظل الفلاح المصرى قروناً عدة يرسف في أغلال البؤس والعوز والشقاء ، وكانت تتصاعد بين حين وآخر صرخات بعض الأفراد ، تهب بالحكومة أن تيسر للفلاح الشقى المجاهد ، حياة ممكنة ، وهذه الصرخات تحدث صدى خافتاً لا يلبث أن تتلاشى ، وأخيراً تشاءبت الحكومة بعد نوم طويل عميق ، نعمت فيه الحكومات السابقة بأحلام ذهبية لا صلة بينها وبين فئة الفلاحين التعساء ، فألفت لجنة التعديل الضرائب !

نفهم أن يتفضل أعضاء اللجنة بزيارة القرى ، ولكن كيف يلبسون شقاء الفلاح وهم في طريقهم إلى كفر المصيلحة وميت خلف ، يركبون السيارات الفخمة ويحيط بهم الموظفون المنعمون على حساب الفلاح المنكوب ؟ إن موسولينى رجل عصامى ، بنى مجده بيديه ، وذاق

فى طفولته ألواناً من الشقاء المرير ، وإذن فما كان أغناه
عن التجربة القاسية ، تجربة الفلاحة والحصاد ، وله من
حياته السابقة مقياس يفهم به درجة شقاء الفلاح ! ولكنه
أدرك أن إصلاح حال الفلاح لا يمكن تمهيده وإعداده بين
المقاعد الوثيرة ، وعلى الموائد الفخمة ، وأن كل إصلاح
يأتى عن هذا الطريق هو نوع من الزيف والرياء !

هى جرأة منى أن أطلب إلى كبارنا زيارة للريف ؟
مادام حسن النية متوفراً فلا بأس من الجهر بطلي الجرى
المتواضع !

حين يشرف السادة أرض القرية لن أتصنع الجنون
وأطلب إليهم أن ينزعوا ثيابهم الأنيقة ويمسكوا بالفأس
ويشتغلوا فى الحقل ساعة ، كما فعل زعيم إيطاليا ! ولكنى أرجو
أن تكون زيارتهم مجهولة المقصد والموعود ، حتى لا يحتشد
السادة الموظفون المنعمون فى استقبالهم ، وينشئوا بأناقهم
وترفهم ستاراً زائفاً أمام أعينهم ، يحجب عنهم رؤية شقاء
الفلاحين التعساء .
وستستقبلهم إذن جموع حاشدة من الأطفال ، حفاة

الأقدام عراة الأجسام إلا من ثياب مهلهلة لا تكاد تستر العورة ، وسيحملقون في الضيوف الكرام بأعين ذاهلة لم تتعود رؤية ذلك النعيم ، فسادتنا حكام الأقاليم يحرصون دائماً عند زيارة العظماء لأقاليمهم ألا تشهد عيونهم تلك الأجسام الريفية الخشنة القدرة ، وألا يلوثوا معدات الاستقبال الفخم ، بتلك المخلوقات التعسة التي تبدو كأنما هي غريبة عن البشر !

ويسرى الخبر في القرية فيجتمع الفلاحون على رؤوس حقولهم ، وقد حمل كل منهم فأسه أو أمسك بزمام دابته ، وضم ثيابه على كمية من الأمراض ، يطالعون السادة بوجوههم الصفراء وأجسامهم القدرة المهدامة وبؤسهم البادى الأليم .

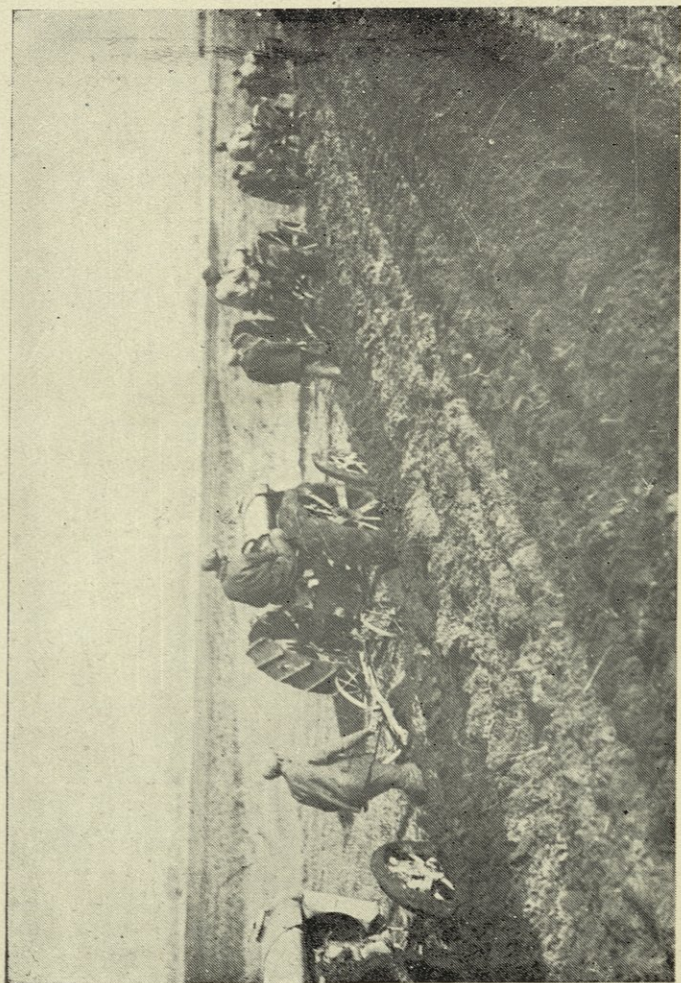
وحين يدرك التعب حضرات الزائرين ، أرجوا ألا يمنحوا شرف ضيافتهم للعمدة وحده ، فحضرتة قد يكون في غنى عن هذا الشرف بشرف عمديته ، وإنما ألتبس أن يدخلوا أى دار من دور القرية ، ليروا عن كسب كيف يحيا أخونا الفلاح وكيف يأكل وكيف ينام !

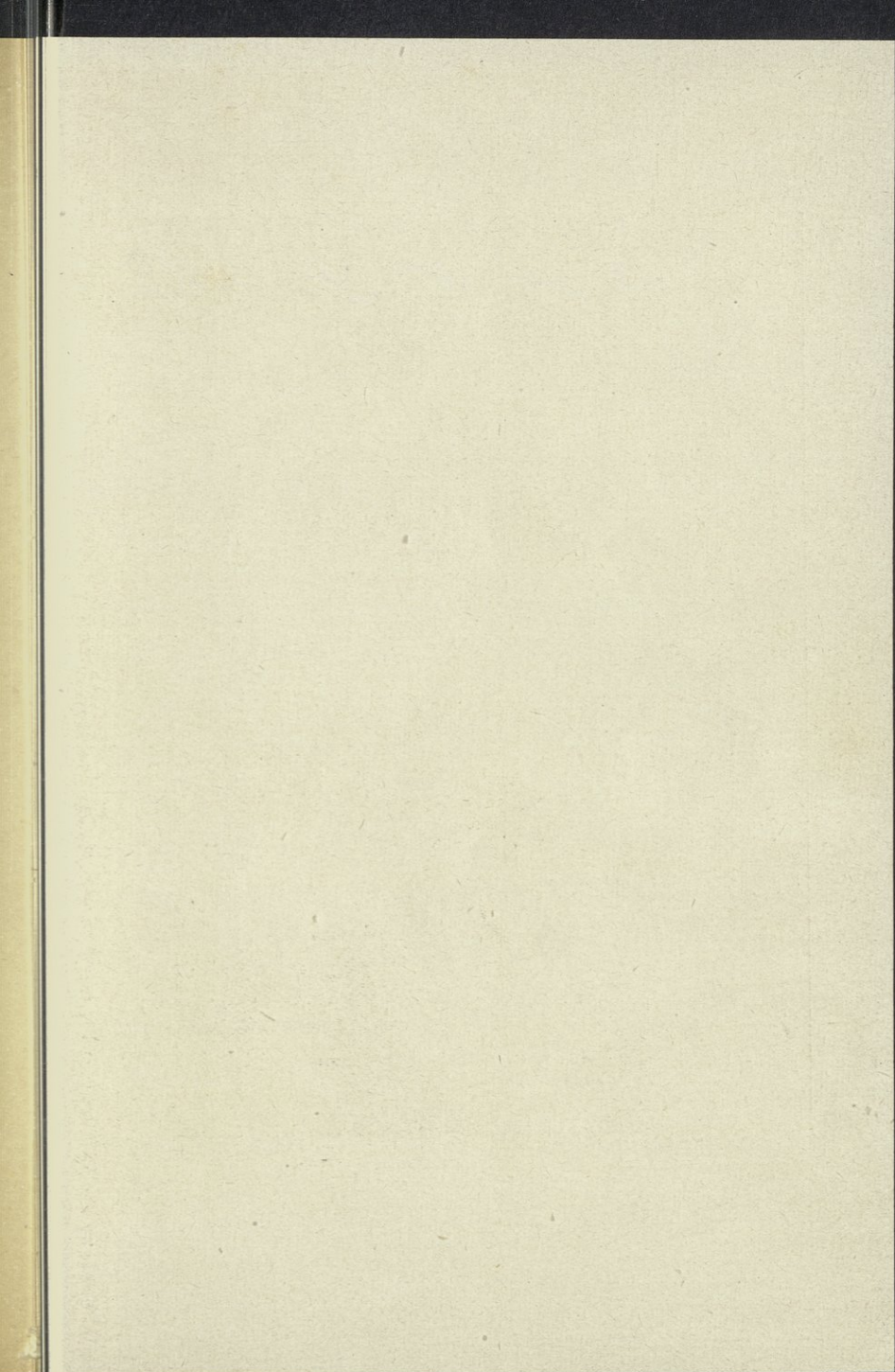
وفي فناء الدار بجانب حظيرة البهائم وأمام الفرن

وأكداس الخطب والغاب ، يجب أن توضح خطة
الإصلاح للقرويين ، الذين يحترقون ليضيئوا للناس وما
أحسب حضرات المسؤولين في حاجة إلى أن أنبههم إلى
أن الفلاح مهما طال زمن إضاءته ، فلا بد أن يحترق إذا لم
تمده بعوامل الحياة ، ولنا الله يوم يحترق ويتركنا تتخبط
في ظلمات المجاعة والشقاء .



موت الأرض بالآلات الميكانيكية في إيطاليا





والله .. هل يسمع المصربونه ؟

أرأيتم ذلك الشاب البريء الممتلئ بالحياة ، يحكم عليه
بالإعدام فينتظر الموت يسير إليه ببطء ولكن بالتأكيد ،
ويموت في كل لحظة من هول التفكير في الغد وعذاب
الانتظار ؟ لقد رأيت ذلك بعيني ، وكنت أسير مع صديقتي
القروية بجوار حديقة ليمون في القرية - ولحداق الليمون
في المنوفية سحر عجيب - فامتلاً أنفي برائحته النفاذة العطرة ،
وأحسست بنشوة ذاهلة أغمضت لها عيني وأنا أستنشق
الشذا في شهوة ونهم ، ثم تملكنتني رغبة جامحة في أن أعمل
لرأسي تاجاً من الزهيرات البيضاء !

وقلت لصديقتي : اسمعي ، هذه رغبة لا أقاومها ، سمها
ما شئت ، واختاري لها ما يحلو لك من أسماء ... ولكن
يجب تحقيقها !

وتقدمت أنغلغل بين الأشجار المحملة بالأزهار والأثمار
وتقدم مني صاحب الحديقة باسم مرحباً ، فألقيت عليه

نظرة عجلي ، ارتد إلى طرفي بعدها دامعا محزوناً .
كانت عيناه مثل كرتين صغيرتين من شدة الورم ،
وقد سال منهما صديد أزرق لوث وجنتيه الشاحبتين ،
وبدا على المسكين كأنه يغاني مجهوداً هائلاً ، ويستنجد بما
بقي له من قوة إبصار ضئيلة مولية ، كي ينظر إلينا ، ويرينا
في عينيه كرم الفلاح المصرى النيل ! كان يتسم لنا ، ولكنهما
ابتسامة باهتة ، أبلغ في الدلالة على الألم من الثورة ومن
البكاء . لقد جشمت كتلة لحمية منكورة فوق عينيه ، ولم يبق
له إلا شق ضيق ينظر به نظرات الوداع ، وقد تعتريه نوبة
إفراز الصديد فلا يرى شيئاً !

وحدثته ، فأيقنت أنه يعرف مصيره المحزن ، وهو
لذلك يود لو يقضى كل ما بقي له من وقت قبل أن يصير
أعمى ، فى النظر إلى زوجه وأطفاله ، وفى التهام جمال حديقته
التي ارتوت بعرقه ودمائه وقوته ، وهو يرى الزمن يلتهم فى
جوفه تلك الأيام القليلة الباقية ، وعماً قليل يسدل على عينيه
ستار أسود حالك السواد ، لا يتزحزح ولا يريم ، ولا
تجرى عليه سنة التطور والفناء مادام حياً ، وسوف يحجب
عنه رؤية أطفاله وهم قطع من قلبه وكبده ، ومشاهدة زوجه

البارة التي قاسمته حلو العيش ومرة سنوات طوالا ، ثم
ينكمش ذلك الفضاء السافر الرحب ، حتى يتلاشى ويكتنفه
السواد !

وقلت ما يردده رجال مصلحة الصحة : ما عذرك
والبلاد يحتلها جيش من أطباء الرمد ؟ وفيم السكوت
المستشفيات تملأ المدن ، وتقدم إليك العلاج مجانا ، وترد
إليك بمشيئة الله نور البصر ونور الحياة ؟ فأجاب وهو
يتسم ابتسامته الحزينة : لا طيب في القرية ، وحتى لو وجد
فلا طاقة لي بأجره وثمان ما يصف لي من دواء ، أما
المستشفيات ، فإن أستطيع أن أترك أطفالي وزوجي ؟
وأين أعيش في بنها ؟ وأنى لي ثمن طعامي وأجر مسكني
إني أفوض أمري لله ! عليه توكلت وإليه أنيب .

وكما يجتمع أشات الجند حين ينطلق في المعسكر صوت
صفارة القائد ، اجتمعت في دماغى من أغوار سحيفة ،
أشات أفكار مبعثرة ، لم يكن ثم سبيل إلى تجمعها وترابطها
لو لم ينطلق في رأسى صوت الرجل .
فلمصلحة الصحة جهود موفقة في خدمة الصحة ، ولكن

هذا التوفيق لا يمنع من الاعتراف بأنها جهود محدودة النتائج، لأنها قامت على سياسة خاطئة، فالمستشفيات كثيرة في المدن، حيث الطرق مرصوفة يسهر على نظافتها عمال مصلحة التنظيم والمجالس البلدية والمحلية، وحيث المياه نظيفة مرشحة موفورة، وحيث أحقر المساكن يعتبر قصرا بجانب أبنية القرى، وما أحسب أن في هذا مجالا واسعا لانتشار الأمراض المتوطنة، وإن وجد فما أحسبه بالخطورة التي هو عليها في القرى.

يقينا إن المدن بحاجة إلى المستشفيات، ولكن أما أن لنا أن نهتم بالقرية وهي أشد من المدينة عوزا، وأحوج منها إلى الرعاية؟ وأعرف أن مصلحة الصحة يرضيها ويقنعها كثرة المقبلين على مستشفيات المدن من القرويين، ولكنه عدد محدود نسبيا، استطاع أن يضحى بأرزاقه في سبيل الصحة، بينما الأغلبية الساحقة من القرويين، لا تبارح القرية مهما برح بها الداء، وإلا فهل يفرون من المرض إلى الجوع؟ إن القول بأن الصحة سبيل الكسب فيجب توضيحه في سبيلها، فلسفة تصلح لملء الكتب والنشرات الصحية، ولكن عقول الفلاحين الساذجة،

لا تستطيع هضم هذه النصائح السلبية العميقة .
وأعرف أيضا أن المصلحة تود لو أتيح لها تعميم
المستشفيات في القرى ، ولكن إذا كانت تلك رغبة صادقة ،
فبال مصلحة جادة في إنشاء المستشفيات بالمدن العامرة
بها حتى لتكاد تصيبها التخمّة ؟ إننى أرى - والرؤية أهم من
مجرد المعرفة - أنه بينما يقام في القاهرة مثلا ، مستشفى فؤاد
الأول ، وكان يغنى عنه مؤقتا مستشفى القصر العيني ،
والرمد بالجيزة ، والحميات بالعباسية ، والملك بالمنيرة ،
والأمراض الصدرية بالمنيرة أيضا ، والبلهارسيا
والانكلستوما والكلب بفم الخليج ، وبينما يقام مستشفى
الولادة بالإسعاف ، بجانب عشرات مراكز رعاية الطفل ،
بينما يقام هذا وذاك ، لا يبذل جزء من ألف من هذا المجهود ،
في القرى المفلسة ، التي يقابل هذه المستشفيات عندها
أنواع شتى من الأمراض ... الرمد والبلاجرا ، وفقر
الدم ، والبلهارسيا والانكلستوما ، والملاريا ؛ كما يقابل
مراكز رعاية الطفل ، ومستشفى الولادة ؛ حلاق الصحة
والقابلات الجاهلات .

إن تلك المنشآت جديدة بالتقدير والإعجاب ، ولكن

كان يجب أن يسبقها إنشاء مستشفيات متواضعة - ولو في خيام - في القرى . والنفقات الباهظة التي تبذلها الحكومة بسخاء في بناء مستشفى بالقاهرة ، يكفي لإيقاظ قري مديرية بأسرها ، ولست عدوة مثل هذا التجديد ، سيما في عاصمة البلاد ، ولندن ليس مما يشرف الحكومة ولا سمعة المصلحة ، أن تشيد أنخم المباني في المدن حيث يمكن الاستغناء عنها مؤقتا - وتضمن ببضعة جنيهات على كل قرية ، لإنشاء مستشفى متواضع ينقذ آلاف الأيدي العاملة والأجسام المريضة القادرة على خدمتنا .

وحسبك داء أن تبليت ببطنة * وحوالك أكباد تحن إلى القد .

كلما ذكرت أن مشروعى الطبيين المصلحين ، عبد الواحد الوكيل وشاهين باشا فى إصلاح القرى ، لا يزالان يتمتعان بالنوم العميق فى مكاتب المصلحة ، أظهر لى ضالة الأثر الذى قد تحدثه كلمات فتاة نكرة مثل - لافى العير ولا فى النفير - ولولا بقية من الصبر يتماسك بها الصدر

وشىء من الأمل يتعلل به القلب ، لحطمت قلبي واحترقت
فى صمت !

ولكن ألا يعزينا أن نعلم أن لجنة إصلاح مياه القرى ،
التي يرأسها سعادة وكيل الداخلية للشؤون الصحية ، تفكر
جدياً فى المسألة ، وأن المشروع قد اعتمد له مليونان من
الجنهيات فى خمس سنوات ؟ ترى هل تحقق الحلم وكان
لصرخاتنا صدى ، لعل وعسى !

فلنرغب عن كشف ما ستفعله اللجنة ، وإلى أن يتم لها
إنقاذ القرويين من الماء الملوث ، يجب ألا ننسى ضرورة
التعجيل بإنشاء المستشفيات فى القرى ، وردم البرك ،
وإصلاح المساكن ، ولمصلحة الصحة فى هذا كله الكلمة
الحاسمة ، فهى المسئولة أمام الله والوطن والتاريخ ، عن
حياة ٩١٥ ر ٢١٣ من المزارعين - الإحصاء الزراعى
الآخر - وما يقرب من مليون من القرويين غير المزارعين ،
فى أمة يبلغ عددها خمسة عشر مليوناً ، ومن حقهم أن يعيشوا
وآلا يبلغ بهم الشقاء إلى الدرجة المحزنة ، التى وصفها
الدكتور محمود عزمى القبطان بقوله : « الماء الجارى ،
والصابون ، والبشكير ، الذى لا يعد شيئاً فى نظر الخاصة

هو الترف بعينه عند الملايين من مواطنينا الفقراء! »

والآن إلى وزارة الزراعة ...

ما نصيبها من المسؤولية ؟

لأ كاد أفكر في هذا حتى تبدو لي حقائق تدفع اللوم
عن وزارة الزراعة في حرارة وإخلاص ... فهي رغم
كونها المشرفة على ثروة الأمة ، لا تنال من الميزانية إلا
٧٤٢٦٥٧ جنيهها وهذا لا يزيد عن ٢٣٥/ من مجموع
مصرفات الدولة . ويدخل في هذا الرقم التافه إيجار
المزارع التي تؤجرها الوزارة ، وغير ذلك من أبواب
المصرفات .

ولكنها رغم هذا المبلغ الضئيل تجاهد جهاداً ظاهراً
في محاربة الجراد والدودة وخدمة الزراع ، ولها في الريف
موظفون هم أكثر موظفي الدولة اتصالاً بالزراع .

ولكن رغم هذا كله ، فالقلا حون لا يزالون كما كانوا
يهيمون في شقاء أليم ، وهم باعتراف سعادة كامل بك ابراهيم
وزير الزراعة « أكثر الطبقات تأثراً بالأزمة ، لأنهم
يضطرون إلى الاستدانة ، ويعجزون في أغلب الأحيان

عن أداء ديونهم وفوائدها الفادحة ، وهم بعد هذا كله ،
آخر من يتخلصون من أثقال الأزمة وأضرارها . »
وفي هذا الشقاء المخيم على القرى ، دليل على أن أثر
الإصلاح لا يتناسب مع فداحة مجهود وزارة الزراعة ،
ويقينى أن هذا يرجع إلى أن العلاج بنى على تشخيص
خاطئ للمرض ، فالوزارة حين تصدر عدة مطبوعات ،
وصوراً رمزية للإرشاد ، تنسى أن القرويين جميعاً أميون ،
وأن تلك الصور الرمزية تحتاج إلى مستوى راق من الفهم
لا يتوفر حتى للعدد المحدود من القرويين ، الذين تعلموا
مبادئ القراءة والكتابة ، وتجهل أن الرأى فى الريف
المصرى لا يزال عند الاعتقاد بأن (فك الخط) هو العلم
الغزير !

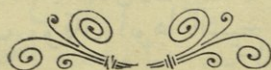
والوزارة حين تعتمد إلى المذيع والخيالة والصحف
لتبليغ رسالتها الإرشادية ، تنسى أن القرى على الإطلاق
لا تعرف من هذا الترف السكالى إلا اسمه وما يحيط به
من خيال مغر !

أما الموظفون الذين تعتمد عليهم الوزارة فى الإرشاد ،
فيجب أن نتركهم لتنفيذ القوانين وجمع الإحصائيات

وتحرير محاضر المخالفات ، ومن الإرهاق لهم أن نطالبهم
بإرشاد الفلاح ، ومن الحق منا أن نطلب إلى الفلاح
الوثوق بهم والركون إليهم ، وهو يراهم أداة إرهاق في
يد السلطة الحاكمة !

على أن مهمة وزارة الزراعة لا يجب أن تقف عند
حد الإرشاد ، فواجبها الأول ترقية حال الفلاح الذى
هو المنبع الأول لخزانة الدولة ، إن الضرائب الفادحة التى
تبلغ ١٧٠ قرشاً عن الفدان الواحد فى بعض الجهات
— المنوفية مثلاً — والتى تفرضها الوزارة على المخلوق
التعس الذى لا يكاد يجد ما يتبلغ به ، هذه الضرائب ليس
من الحق ولا من العدل بقاؤها ، فالفلاح المثقل الكاهل
بها ، هو آخر من يستفيد منها ، ألا ولتذكر الوزارة أن
إرهاق الفلاح بضرائب لا يستفيد منها شيئاً ، ولا تحملها
ميزانيته المحدودة ، وقسوة بعض محصيليها فى تنفيذ القوانين
الزراعية ، يدفعان بالفلاح إلى أيدي المرايين (وبنوك
الرهونات) يعتصران دمه وقواه ، ويتركانه بعد ذلك كتلة
ذليلة يغمرها عار الفقر والإفلاس ، وهو الذى يعمل
ويعمل حتى تخور قواه !

إن إعلانات البيوع الجبرية ، التي تحتل أكبر مكان
من الصحف الأهلية والصحيفة الرسمية ، دليل على تقصير
الدولة في حماية مواطنينا التعساء ، وإرهاقها إياهم إلى الحد
الذي تباع فيه مواشيهم ودورهم ، وتنزع اللقمة من
أفواههم ، فمتى يتحرر الفلاح من كابوس الشقاء الجاثم
على صدره يخنقه حتى ليكاد لا يسمح له باستنشاق الهواء ؟



مقائى عجيبه

سألتهأ فى ضراعه وابتهال أن تصحبنى فى جولة قصيرة ،
فى أنحاء القرية المتشحة بالسواد ، وكان سكون القرية فى
تلك الأمسية الحزينة يغرينى بالخروج ، ولو حرمت صديقتى
القروية من ساعة تعودت أن تستريح فيها وتخرج بالنوم
أثناءها من عالم الشقاء والأحزان ، كما قال شاعرنا أبو العلاء :
وفضيلة النوم الخروج بأهله

عن عالم هو بالأذى مجبول .

وكانت صديقتى نيملة حين تلفعت بخمارها وتبعتنى فى
صمت ثائر عجيب . وقال أبوها الشيخ : سأخرج معكما
ولكن إلى أين ؟ قلت إلى حيث تقودنا أقدامنا ، ترى كم
يخفى هذا الظلام من شقاء ؟ وكم من نفس تبیت فيه على
الطوى ! ؟ فرددت الفتاة : أنا أفهمك . وصمت لحظة ثم
قالت : ما أشقانا بحنانك ! كان لنا أن ننعم بقربك طويلا
لو لم تترشفقتك علينا ، ولو لم ينسك شقاؤنا جمال الريف .

وسرنا كأشباح تدثرت بأثواب الظلام ، ولم تتحدث
طويلا ، شغل كل منا عن الآخرين بأفكاره ! ولعل الشيخ
كان يفكر في دودة القطن تحتل في تلك اللحظة ضيافة
كارهة من حقله ، وتأتى في نهم على ثروته وثمره جهاده ،
ولعل الفتاة كانت تفكر في الأيام السعيدة التي قضتها في
ضياقتي ببلدتي الشاطئية الساحرة . أما أنا ففيم كنت أفكر ؟
لا أذكر بالتحديد فقد اعترتني ليلتئذ غيوبة ذاهلة .

بدا المكان صامتا في غير وحشة ، وخلا من كل صوت
إلا من همسات خافتة لاهثة كأنها أنفاس الملائكة أو حركات
أشباح غير منظورة تحتل المكان الوادع الجميل ، وكانت أمسية
فاترة تغرى بالخنول ، بينما وقفت أشجار السرو والجميز
الضخمة المعمرة كأشباح ، تئن في صوت هامس ويلبسها
الهواء فترتعش وتهتز ، ثم تتساقط أوراقها الذابلة الصفراء
على الأرض الداكنة في صوت مختنق أجش كأنه حشرجة
الموت .

وأدهشني أن أجد جمعا من صديقاتي القرويات ،
يملأن المكان حولي ويفدن من كل حذب وصوب ، وعلا

ضحكهن المرح في الفضاء الساكن ، وبدت في عيونهن رغبة
مخالصة صادقة في إشعاري بالراحة والاستمتاع .
وكان نقيق الضفادع يبعث في القرية الساكنة نوعا من
الحياة المجردة ، فجعل منها مرح الفتيات حياة مرحة ، فيها
قوة وفيها شباب !

ولم يكذب الشيخ حين أكد لي أن وراء ثياب القرويين
البالية المهلهلة ، نفوسا كريمة عفة ، وأن في الأبنية القروية
الحقيرة قلوبا رحيمة نبيلة ، تسكن في الهياكل الشاحبة
المريضة ، فما مررنا بدار إلا وألح أهلوها في إضافتنا لتناول
العشاء وقدح القهوة ، ولم يكن ينجينا من إلحاحهم وتشبثهم
أيماننا المخلطة بأننا تعشيننا والحمد لله ، وأن معدة الفرد منا
لا تسع عشرات « أقداح القهوة » وكان كل قروي يقول :
« شرفونا ياسادة ، الخير كثير والحمد لله » كم وددت لو أن لي
طاقة على تحمل ضياقتهم كلهم ، حتى لا يذلمهم على بعوزهم
وفقرهم !

فيم المرح ؟
لم أجرؤ على الجهر بسؤالى وتعكير صفو صديقتى

وهن يبعثن في حواشي الليل ، بأغانيهن المرححة الفتية ، روعة تنسى الإنسان ما هن فيه من بؤس . وحاولت ان أندمج معهن في أفراحهن وأشترك في الغناء الريفى الساذج . فأقعدنى عن ذلك عمق شعورى بعوزهن ، كنت أعلم يقينا أن إحداهن تركت دارها وما فيها شىء يؤكل ، وشاهدت أخرى متخفية فى بنها تبسع أقراصا للوقود صنعتها من روث البهائم ، بينما لمحت ثلاثة تسطو على لقييات قدرة وضعت فى حظيرة المواشى بأحد الحقول ، وتمسحها بطرف ثوبها ثم تلتهمها فى شهوة عجيبة ، فكيف لمن هذا الصوت الحنون ينطلق داويا رنانا فى سكون الليل البهيم ؟ وهمست فى أذن والد صديقتى أسأله إنقاذى من حيرتى ، فلمعت عيناه بريق الحزن وقال :

يظهر يا ابنتى أنكم فى المدن ان تلبسوا حقيقة ما نحن فيه من بؤس مستبد ، إلا إذا متنا جوعا وتراكمت جثثنا بجانب حقولنا ، وإلا فما دمنا نتحرك ونجىء ونروح ، فالفلاحون بخير ، وفيهم القوة على تعمير الخزانة وإنتاج الخيرات . للكثيرين منكم آراء عجيبة لا تجوز فى غير مصر . لقد شاهدت بعينى جميع الكبراء يسرون فى

جنازة المغفور له عدلى يكن باشا كما اجتمعوا فى تشييع
كل كبير من قبل ، وكما سيجتمعون من بعد ! رأيهم يتحدثون
ويتصاحون فنسيت الأقدار التى تلوث بعض الصحف
السياسية ، والفضائح التى تكال جزافا لكبار المصريين ،
وتساءلت لم لا يتحدثون هكذا فى إنقاذ مصر ؟ ولم لا تتفق
كلتهم على الإصلاح ؟

قلت وقد أخذت فلسفته الرائعة : ذلك حق يا أبى !
قال وهو يتأمل : والفلاح يا ابنتى ؟ أؤكد لك أنهم لن
يشعروا بحاجته إلى الإنقاذ العاجل إلا إذا مات الفلاحون
جوعا . إن شقاءنا ليس وليد اليوم ولسكنها وراثته مثقلة
يتوارثها الحكماء منذ آلاف السنين ، لقد لمست بيدك نوع
الشقاء الذى نهيم فيه ، ومع هذا تخدعك ابتسامة هؤلاء
الفتيات ويغرك مرهون فتتساءلين فيم المرح ؟ ولو كنت
ريفية صميمة لأدركت مثل أن وراء هذا الضحك نفوسا شقية
تجتر آلامها ، ويهد الجوع والمرض كيانها هدا . إنها رحمة
الله يا ابنتى ، تنزل فى قلوبهن ساعة يجتمعن حول الضيف ،
فتنسيهن إلى لحظة قصيرة ثورة الجوع ومرارة العيش ! إنه
الصبر يا ابنتى ، تعودناه منذ تفتحت عيوننا على القرية المهملة

المتروكة ، ولولا ذلك لهدمنا العوز والحزن ، ومن لم يهدمه الحزن انتحر بيديه !

قلت : إني لأعرف يا أبى أى بؤس تهيمون فيه .
إن أجسامكم المنهكة تعمل فى الحقل وتعمل فيها الأمراض ،
ولهذا أسالك السر فى تحمل أجسامكم . قال : الصلاة يا ابنتى
وعزاء الإيمان والتسليم لما كتب علينا ، والنوم المبكر
والاستيقاظ المبكر ، وشئ من القوة تمدنا به الشمس والهواء ،
والحياة العائلية الفطرية التى يتعاون كل فرد فيها مع الآخرين
فى تسهيل مشاق العيش ، ولولا ذلك يا ابنتى لما كان هناك
عيش أو كان ثم بقاء .

وسكت الشيخ ، فأطرقت فى ذهول أصغى إلى نغمات
صوته الحزين ، تتجاوب فى صدرى وقلبي حافلة باللوعة
والأنين ، وزميلاتى المخدوعات يحسبن أننى أصغى إلى
أصواتهن الحافلة بالجمال والفتون !

أتحسبون الفلاح الشيخ مبالغاً إذا فأنصتوا إلى الحقيقة
يعترف بها الدكتور أحمد حسين مفتش قسم التعاون فيقول
« إن الزراع المصريين - وغالبيتهم العظمى من صغار
الملاك - يعيشون عيشة لا تليق بشعب ناهض راغب فى

التقدم . وذلك رغم ظروفهم المواتية من جو معتدل ،
وتربة خصبة ، هذا إلى جلدتهم في العمل ، وقناعتهم باليسير
من مطالب الحياة »

لقد بلغت ضرائب الأطنان والقطن في سنة ١٩٣٣ ستة
ملايين من الجنيهات الإقليلا ، فإذا أضفنا إليها ما يقرب
من ستة ملايين أخرى ، وهي ما تكسبه الدولة من الفلاحين
بطريقة غير مباشرة في الرسوم الجمركية لغير الدخان البالغة
٧٢٤٢٧٤ ر ٧ جنهما مصرياً ، ورسوم الخفر البالغة مليوناً
ونصف مليون من الجنيهات ، كان مجموع ما يدفعه الفلاحون
اثني عشر مليوناً من الجنيهات ، وذلك من جملة إيرادات الدولة
التي بلغت ٣٧١٣٩٨٨١ جنهما مصرياً ، في ذلك العام ، وهذا
يقرب من ثلث إيراد الدولة ، فقيم إهمالنا للزراعة ،
واحتقارنا للزارعين ؟ أفيحسب البعض أن في استطاعة
مصر الاستغناء عن ثلث إيراد الدولة ، وعن قمح الفلاح
وقطن الفلاح وجهاد الفلاح ؟

كل ما أرجوه هو ألا يخذعنا تحمل الفلاح آلافاً من
السنين ، فقد يتحمل سنوات أخرى ، ولكنني أعتقد أن

قوة التحمل فيه قد تلاشت ، وأن الصبر على شقائه لم يعد
مستطاعاً ؟ وإذا ظننا غير ذلك فويل لنا منا ، فنحن نقتل
أنفسنا بأيدينا .

إن المسائل الزراعية تحتل مكاناً ظاهراً من اهتمام
المسؤولين ، ولكننا تعودنا أن نهتم بها على حساب الفلاح
المسكين ، وقد حان الوقت لنفهم أن إنباء ثروتنا الزراعية
لمن يكون عن غير طريق إصلاح القرية .



فتياتنا والتعالم الزراعى

فى كثير من المراتة والألم ، قرأت خبر رفض قبول
الفتيات فى كلية الزراعة ، وأذهلنى أن يحال بينهن وبين
المدرسة الوحيدة التى تحتم ظروفنا وبيئتنا الزراعية وجوب
قبولهن فيها .

وفى الحقيقة ماذا يغرى الفتيات بهذه الكلية ؟ هل
يتطلعن إلى وظائف ظفر بها زملاؤهن الطلبة ؟ أم تعجبهن
الحياة الريفية التى يرشح خريجو الزراعة للمعيشة فيها ؟
أما عن مستقبل طلبة الزراعة فليس فيه ما يغرى فى مثل
تلك الظروف العصرية ، التى بلغ من قسوتها أن عين بعض
حملة شهادة الزراعة العليا ، بأجر يومية يكافئ صغار العمال ،
وأما عن حياة الريف فليست فى حالتها الراهنة إلا حياة
قدرة أليمة يغمرها العوز والشقاء والظلام ، ويبقى بعد
هذين ، الميل الطبيعى وحده ، وهو الذى يدفع الفتيات إلى
صرف خمس سنوات - هى خير سنن حياتهن - فى تعلم الفن

الزراعى ، وهذا الميل القوى هو أقوى عوامل النجاح ،
وهو جدير باحترامنا وتقديرنا .

والأساس الطبيعى المعقول لإنشاء المدارس هو
أن تنشأ نتيجة لحاجة الشعوب ، ولست أعرف مدرسة
في مصر تلح الضرورة فى انتساب الفتيات إليها مثل
مدارس الزراعة .

الريف المصرى محروم من الروح النسوية الرقيقة ،
تهذب خشونة الحياة فيه ، وتنير ظلامه بنور الجمال والسلام ،
وتحيل حياته القاسية الفقيرة إلى حياة فنية فيها سلوى وفيها
عزاء ، وسيظل هكذا محروماً من تلك الروح ما دامت
الفرصة لا تتاح للفتاة كى تحب الحياة الريفية البسيطة
الساذجة ، مع أنها لو درست تلك الحياة ، لأحبت القرى
والمزارع وأسرفت فى ذلك الحب ، فإن الجمال الريفى إذا
أتيح له أن يتخلص من شوائب القذارة والفقر والمرض ،
لبدارائعاً جميلاً أخذاً .

الفتاة المصرية تفر من الريف وتعتبر نفسها شقية تعسة
إذا قدر لها أن تحيا هناك بعيدة عن المدن الحافلة بالمغريات

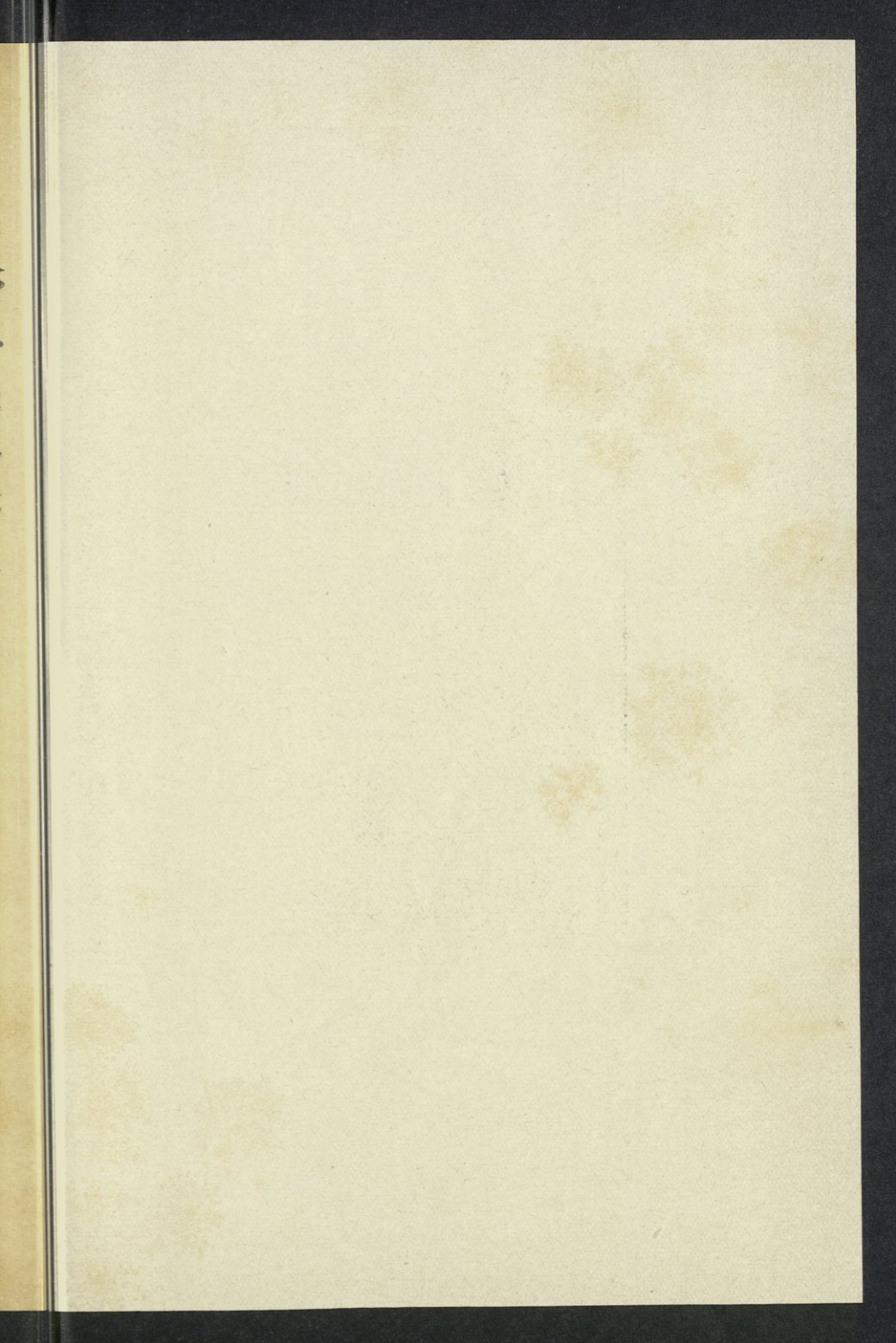
وترفض الزواج من ساكن القرية مهما كان له من ظروفه
وهو هلاته ما ينسبها مرارة التضحية التي تتوهمها ، وهذه
ظاهرة خطيرة لها ما بعدها ، فدامت الفتيات المتعلبات
يغضن الريف ، فسوف يظل مغموراً بما يتخبط فيه من
ظلام .

تكن في الريف المصرى أسرار جمال قوى يكاد يجعله
أشبه بالجنة ، لولا هذا البؤس المظلم الذى يغمر القرى ،
ويفرض على القرويين التعساء حياة وضيقة شقية ، ولقد
أتيح للجمعية الزراعية الملكية أن تكشف لنا عن جمال
الريف ، حين خلصت قريتها بهتيم من شوائب القذارة
والمرض الذى يغمر القرى عادة ، فبدت القرية النموذجية ،
جنة وسط المزارع والحقول ، وما أحسب الجمعية ندمت
على عشرة آلاف الجنيهات التى صرفتها فى إنشاء تلك الجنة
وحسبها أنها أنقذت مزارعيها من حياة ذليلة ، يحياها بقية
الزراع فى مصر ، وما أشك فى أن انتاجهم سيزيد ويعوض
الجمعية عما بذلته .

فلم لا نترك الفتيات يحملن الرسالة ، ويتمتعن بذلك
الجمال ؟

روعة الفن ، وسحر الطبيعة





دراسة الزراعة تحجب الفتاة فى الريف وتقر به إلى قلبها ، وتفتح عينها على الجمال المتغلغل فى المزارع والقرى ، وتثير فى قلبها نوعا من الرثاء للقرويين ، والرغبة المخلصة فى إسعادهم ، فإن كنا لا نحترم ميل الفتيات إلى الدراسة الزراعية ، فلا أقل من أن نصل بين الفلاح الوافر الشقاء ، وبين قلب الفتاة الممتلئة رقة وحنانا ، ولا أقل من أن نمهد السبيل لمعيشة عنصر نسائى مثقف فى القرى المصرية .

لو أتيح لنا أن نقوم بإحصاء شامل عن عدد الفتيات اللاتى رفضن الزواج من الموظفين فى القرى ، لهالتنا النتيجة ولروعنا أن يقف جهل الفتيات بجمال الريف ، فى سبيل إنشاء أسر متعلمة تبعث فى الريف شيئا من الحياة ، ولآلمنا أن يخسر الوطن تلك الأسر الجديدة النافعة ، كما آلم ولاية الأمور فى فرنسا ، حيث لاحظوا تلك الظاهرة الخطرة ، وهى فرار الفتيات من سكنى الريف ، وكان من المحال أن يجد المهندس الزراعى فتاة متعلمة تقبل الزواج منه ، وترضى بالحياة الريفية الجافة ، وكاد الشبان ينفرون من التعليم

الزراعي لولا أن تداركت الحكومة الأمر ، فأنشأت
مدرستين زراعتين للفتيات ، إحداهما للغنيات المثقفات
اللائى يردن دراسة الزراعة كفن مسل رابع ، يتعلمن فيها
فلاحة البساتين وغرس الفاكهة وزراعة الخضر والتكاثر
الخضرى ، وهذه الدراسة تعدهن لحياة ريفية سعيدة ،
فكانت النتيجة أن غمرت القرى هناك موجة من التهذيب ،
أتاحت للفلاح الشقى المجاهد حياة ممكنة ، فى المناطق التى
سعدت بوجود هذه العائلات المتعلمة الحريضة على النظافة
والجمال . والمدرسة الأخرى ، للقرويات اللائى يشتغلن
بالزراعة ويشاركن أزواجهن فى العمل الزراعى ، فيتعلمن
الطرق الصحيحة النظيفة لحلب اللبن وصناعة مستخرجات
الألبان وتربية الطيور والنحل والماشية ، فىكون للفتاة من
هذه الدراسة صناعة رابحة مضمونة الفائدة ، تخفف عن
أسرتها عبء الفقر وقسوة الحاجة .

وما أحوجنا فى مصر إلى هذين النوعين من المدارس ،
حتى نقرب بين القرية وبين الفتيات المتعلبات ، فلا يتفرن
من الحياة فيها ، وحتى تجد الفتاة القروية من دراستها عوناً
لها ولاسرتها على شظف العيش وقسوته ؟

إن نساءنا القرويات جميعاً يشغلن بالزراعة ، فلم
 لآنوجهن توجيهها صالحاً ولعل في استطاعتهم إنقاذ ذويهن
 من الفقر الأليم ، عن طريق الصناعات الزراعية الراجحة ؟
 لو أتيح لأحدنا أن يشهد كيف تحلب نساؤنا القرويات
 اللبن ، وكيف يجهزن الجبن والزبد ، لأنف من مجرد رؤيتهما ،
 فالفتاة تذهب أحياناً إلى البقرة وآثار روث البهائم لاتزال
 في يدها ، وتضعه في إناء قدر يعلوه التراب ، ثم تغطيه بقليل
 من حشائش الأرض ، بينما يشهد الإنسان فتاة سويسرية
 تحلب اللبن فيود لو يلتهمه من يدها دافئاً ، وينسى أمام
 روعة النظافة وإغرائها ، حكمة الإغلاء وأناقة الموائد .

لقد عارض الكثيرون في مسألة قبول الفتيات بمدارس
 الزراعة ، وكانت حججهم في ذلك أن الوظائف الزراعية
 التي يرشح لها خريجو الزراعة تقتضى جلدأً وقوة ليسا
 للفتاة ، وأن الدراسة الزراعية تتطلب مجهوداً شاقاً هو أكثر
 من أن تتحمله الأنوثة الضعيفة ، فاما عن مسألة الوظائف
 الزراعية فيدحضها كون الفتاة تلتحق بمدرسة الزراعة وهي

تعرف يقيناً أن الحكومة أن تتعهد بتوظيفها ، وليس يكفي أن نمنع الفتيات عن مدرسة ما ، لمجرد توهم أنهن قد يظالبن بوظائف لا تتقيد الحكومة بها .

وأما عن صعوبة الدراسة فقد أثبتت الفتيات في جميع الدراسات والأعمال التي قمن بها ، أن لهن جلدأ على العمل وتصبراً ، هذا إلى أن الفتيات لا يجهلن هذه الصعوبة ، بل يقدرن مداها حق التقدير ، قبل أن يطلبن الالتحاق بتلك المدارس .

على أن النساء قد اقتحنن على الرجال كل شيء ، فالتحقن بمدارس الطيران وفيها من الخطر على الحياة ما لا تقاس بمثله مشاق الزراعة ، والتحقن بكليات الحقوق مع أن القضاء لن يعطل يوماً ما لقلّة المحامين الرجال ، والتحقن بمدارس التجارة وللتجارة مفاجأتها الرهيبة ، ومواقفها الدقيقة ، وهن في كل هذه الحالات يجدن وسيلة للكسب ولكن على حساب الشبان ، ويشغلن وظائف لا تتفق وطبيعتهن وما يجب لأنوثتهن من حرص وحياء ، وكان يجب أن يشغلها شبان عاطلون الآن ، ولسكننا رغم هذا خضعنا للظروف الشاذة التي خلقتها الحرب العظمى ،

دفعتهن إلى حبسهن في السجون

وتركناهن يقتحمن على الرجال تلك الأعمال ، فلم نحول
بينهن وبين التعليم الزراعى الذى يتفق واستعدادهن ،
ويلائم بيئتهن المصرية ، وسيكون من ورائه إصلاح القرى ،
وإنماء الثروة القومية التى تعتمد على الزراعة كل الاعتماد ،
وإيجاد عمل مسل راجح لكثير من الفتيات ، دون المساس
بمصالح الشبان ؟

بعد هذا كله لا أتردد من الاعتراف بأن مدارس
الزراعة فى برامجها الحالية ، ونظامها الراهن ، لا تكاد تصلح
للفتيات ، ذلك لأنى لا أغفل الفرق بين طبيعتى الفتى والفتاة
واستعدادهما ، بل وألح فى التفريق بينهما فى برامج التعليم
بحيث يراعى فى هذا التفريق ، اختلاف مركزهما المستقبل
فى الحياة .

فى البرامج الحالية لمدارس الزراعة ، بعض مواد ترهق
الفتاة ، كعملية التدخين والحرق والعزق فى حقول التجارب ،
ولئن كان المستقبل للآلات الزراعية التى ستعفى الطلبة من
مثل هذا الاستعداد ، إلا أن مسألة تعديل البرامج أمر سهل ،
متى سلمنا جميعا بوجوب قبول الفتيات فى مدارس الزراعة

وما أحسب أن كلية الزراعة يعز عليها تأليف لجنة عاجله ،
تعد نظاما خاصا للفتيات بتحويل برامج الطلبة ، كما تم في
التعليم الثانوى هذا العام .

إنى أعتقد يقينا أنه متى توفرت لدينا الرغبة فى قبولهن ،
ومتى سلطنا بأهمية ذلك القبول ، فإن التعديل سهل ميسور
كما كان سهلا ميسورا فى التعليم الثانوى ، حيث تم فى فترة
قصيرة معقولة ، ولم يمنع اختلاف البرامج ، تساوى الجنسين
فى الشهادة العلمية والدرجة .

مدارس الزراعة هى المدارس الوحيدة التى يمكن أن
تتعلم الفتيات فيها علم أصول النبات والحشرات والبكتريولوجيا
والكيمياء ، والصناعات الزراعية وفلاحة البساتين ، وسوف
يكون منهن طلائع الإصلاح فى القرى ورسل النهضة بين
أهلها .

على أنى لا أطالب بقبولهن فى كلية الزراعة فقط ، وإنما
ألح فى إنشاء مدارس زراعية أولية ومتوسطة فى عواصم
المديريات ، فقد آن الأوان لى نهم بالتعليم الزراعى ونشر
ثقافته فى بلادنا الزراعية التى أقامت مجدها على أسنة الفؤوس .

فلنفسح الطريق للفتاة كي تتغلغل في الريف وترى
 بعينها أى نوع من الشقاء يتخبط فيه الفلاح ، وأية حياة
 ذليلة مريضة يحياها ، ولنتركها تدرس الزراعة لتؤدى رسالة
 الحياة في هذه القبور المهجورة التى طال اشتغالنا عنها ، ثم
 فلنذكر دواما أننا لا تنقصنا وسائل إصلاح القرى بقدر
 ما ينقصنا صدق الشعور بشقاء الفلاح ، وصدق التقدير
 لحاجتنا إلى الفلاح ، وأخيرا صدق الاهتمام بإصلاح
 الفلاح !



اقتراح جدى

ترددت طويلا قبل أن أكتب كلمتى هذه ، وتهيئت
البحث فى مسائل فنية ليس من الحكمة درسها على المكتب ،
وليس من السهل إيجاد حلول عملية ممكنة التنفيذ ، مهما
ترأت لنا حلول نظرية كثيرة .

فى وصف شقاء الفلاح ، لم أكن فى حاجة إلا إلى عين
تبصر ، وقلب يحس ويشعر ، وقلم يترجم ويعبر . وكانت
خبرتى العادية فى الشؤون الاقتصادية ، واتصالى بمعيشة
الزراع ، يسهلان على تلك المهمة ، ولكن مسألة وضع
الخطط الإصلاحية للريف ليست كذلك ، إنها تقتضى
خبرة فنية لا أجرؤ على ادعائها ، وتستلزم بحوثاً عملية
منقحة لا أنتحل إمكان القيام بها .

كان هدفى الوحيد فى بحوثى الريفية ، إثارة الاهتمام
بإصلاح القرى ، وكانت وسيلتى إلى تلك الغاية ، محاولة
وصف البؤس الأليم الذى يهيم فيه الفلاح والحياة المنحطة

التي يحياها ، فأما طريق الإصلاح فأنا أتركه للمسؤولين عن
شقاء الفلاح وللفنيين وذوى الخبرة .

ولكن كيف يضع الفنيون خطة الإصلاح ؟
في هذا فقط أستطيع أن أقترح اقتراحاً جدياً أرجو
أن يكون له صدى .

مسألة إصلاح القرية ورفع مستوى معيشة الزراع
الآشقياء ، تقتضى دراسة كاملة عاجلة لنواحى الانحطاط
الذى يهيم فيه الفلاح ، ويلزمها بحث شامل لحياته تشترك
فيه الهيئات المسؤولة جميعاً ، وفى مقدمتها وزارتا المالية
والزراعة ، ومصلحة الصحة وإدارة الأمن العام وقلم قضايا
الحكومة ، ثم الجمعية الزراعية الملكية وجمعية خريجي
مدارس الزراعة . فلو عقد مؤتمر زراعى عاجل يتوفر على
بحث الداء ووصف الدواء ، لتيسرت للفلاح الشقى المجاهد
حياة ممكنة معقولة ، ويقبنى أن الجهود الفردية الموزعة بين
الهيئات المختلفة بطيئة الأثر وإن كانت محققة الفائدة ،
والرأى عندى أن تتعاون هذه الهيئات جميعاً فى إيجاد خطة

منظمة حاسمة للإصلاح ، فتقوم وزارة المالية بتخفيف الضرائب التي ترهق الفلاح وتدفعه قسرا إلى أيدي المرابين الظالمين ، وتتكفل وزارة الزراعة بحماية الملكية الصغيرة في بلاد يقول عنها عميد كلية الزراعة إنها «عريقة في الزراعة والزراعة هي جل رأس مالها» والإرشاد المنتج الذي يسهل على الفلاح إدراكه أولا وتنفيذه ثانيا ، وفي الوقت نفسه تخصص مصلحة الصحة أكبر مجهود ممكن في إنقاذ الفلاح من المياه الملوثة والمساكل غير الصحية والبرك التي تحمل عوامل الفتك بالفلاح المسكين والقضاء عليه . بينما تتكفل إدارة الأمن العام وقلم قضايا الحكومة بالإشراف الفعلي على العمدة الظالمين وحماية الفلاح من استبداد بعضهم بقانون حازم صريح ، وإلغاء قانون العونة الذي لا يحترق بناره إلا الفلاحون الأشقياء ، ويأتي ذلك بتفسير قانون تحريم السخرة في صالح الفلاح وعدم التقيد بحرفية القانون ، والتغلغل في روحه لفهم أن قانون العونة ليس إلا نوعا من السخرة البغيضة ، وبجانب هذه الجهود المتكاثفة تنتفع الأمة بنشاط الجمعيات الزراعية في إصلاح الأراضي البور

وإنشاء مناطق زراعية تساعد على ترقية حال الفلاح وتخفيف الضغط الهائل على الأراضى المنزرعة الآن والتي يسكنها ٩٩ ٪ من مجموع السكان ، بينما لا تبلغ مساحتها أكثر من ١ ٪ من مساحة القطر المصرى ، وتمهد العيش الهنىء المنتج لعشرات الآلاف من العمال العاطلين والمزارعين البؤساء .

ثم فلأكن عملية إلى حد ما ، ولأتساءل مع المتسائلين . « أمن الممكن إنكار اللجان التى تألفت وتتألف فى سبيل الفلاح ؟ » فى هذا لا أعارض ! لقد اجتمعت لجان كثيرة ، أكثر مما أبغى وما أطلب ! ووضعت مقترحات عدة ، وتنفذ بعض هذه الاقتراحات .

ولكن ماهى الفائدة العملية التى اكتسبها الفلاح أخيراً ؟ هل ارتقى مستوى معيشته فأصبح يحيا كإنسان ؟ هل خف هجوم الأمراض المستوطنة التى تسكن له فى كل شبر من أرض القرية وفى كل قطرة من مياهها الملوثة ، وفى الهواء الذى يستنشقه متشعباً بأجرة البرك والمستنقعات ؟

هل صار يشعر بإنسانيته ويهتم بنظافة ثيابه وجسمه
ومسكنه ؟ هل زاد إنتاجه أو احتفظ بمستوى إنتاجه
العادى ؟ وإن كان فبأى ثمن ؟ هل تيسر له الغذاء الكافى
المتواضع والحياة الآمنة المطمئنة التى تحبب إليه العمل
والجهاد ؟

لست أجب على هذه الأسئلة . وإنما أطلب إلى أولى
الأمر أن يبسطوا للناس النتيجة العملية التى عادت على
الفلاح من عشرات اللجان التى كثرت حتى لم تعد
ذاكرتى تقوى على اختزان أسمائها ! ولست أحب أن نقرأ
الأسلوب الذى تعودناه من نحو (قامت المصالح المسؤولة
بنصيبتها من المسؤولية) . وإنما أحب أن تبسط القوائد
الجديدة المعقولة التى عادت على الفلاح من برامج الإصلاح ،
وإلى أن نظفر بهذا البيان لا بأس من الجهر بأنى
لا أعترف بسبق وجود برامج إصلاحية ، تمس حياة
الفلاح بطريقة مباشرة ، وكل ما تم منها كان يقصد به
زيادة الإنتاج ، لا بطريقة معقولة وإنما على حساب الفلاح
المسكين .

موقفنا من الفلاح ليس مسألة معقدة يحتاج إدراكها إلى بحث أو ذكاء ! إنه موقف بسيط لا يمكن تأويله بغير حالتين ، إما أن نكون لم نهتم برفع مستوى معيشته وإما أن نكون قد بذلنا الجهد في هذا السبيل . فإن كانت الأولى فقد حان الوقت إذن لنبدأ في الإصلاح بمقتضى خطة منظمة يرسمها المؤتمر الزراعى العام الذى ألح في الدعوة إليه . وإن كانت الثانية فإن هذه الجهود التى بذلناها قد ضاعت عبثاً لأن الفلاح لا يزال يرسف فى أغلال عوزة ومرضه وشقائه ، وإذن فلا بد من البحث فى أسباب فشلها ، ولا بد من تغيير خطة العلاج مادام الداء لا يزال كما هو قويا قاتلا ، وفى الحالين تبدو الضرورة ملحة قاسية إلى عقد مؤتمر عام يدرس حياة الفلاح فى مراحل ثلاث : أولاها ، حياته المستقلة التى يجب أن يتوفر فيها ما يقربها من الحياة الإنسانية المعقولة ، والثانية نوع الصلة بين إنهاض الفلاح وبين ثبات الميزان الاقتصادى فى الدولة ، والثالثة مسألة العلاقة بين الفلاح وبين المالك .

فاما حياته المستقلة فأحب أن ننظر إلى الفلاح كإنسان له حقوق بقدر ما عليه من واجبات ، يجب أن تتاح له حياة معقولة ممكنة، وعلى ضوء هذه النظرة ، تبدو لنا فداحة الشقاء الذى يغمر الفلاح الذى لا يعرف من الغذاء إلا ما يسد الرمق ولو لم يمد الجسم بحاجته من عناصر التغذية ، ومن الشراب إلا ما يطفىء لهب الظمأ ، ولو كمننت فيه جرائم امراض تقتله وتفتك به ، ومن اللباس إلا ما يستر العورة ولو لم تكن له النظافة الواجبة له كإنسان ، ومن المسكن إلا المكان الضيق المظلم الذى يأوى إليه وأولاده ودوابه جميعاً ، ولو لم يتوفر له ما يجب للساكن من ضوء وهواء نقي واتساع ، حياته الشقية الأليمة لن تصلح إلا إذا نظرنا إلى الفلاح كإنسان مثلنا تماماً ، وإلا إذا جردنا على التفكير فى مدى احتمالنا لو قدر لنا أن نحيا الحياة التى يحياها .

وأما الصلة بين إنهاض الفلاح وبين ثبات الميزان الاقتصادى فى الدولة فتلك مسألة فيها أنانية ، وإن كان فيها نظر ، مصلحة الدولة هى قبل كل شئ وفوق كل اعتبار ، ولكن دراسة حياة الفلاح وتأثيره القوى فى مستقبل الدولة

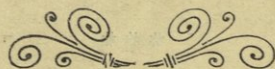
توضح لنا أننا ننظر إلى المسألة نظرة معكوسة ، فمن الخطأ
الفادح أن نمضى فى طريقنا إلى إصلاح ميزانية الدولة على
حساب الفلاح المسكين ، وأن نمضى ثروتنا الزراعية بإرهاقه
وإهلاكه ، ونحن فى هذا لا نفكر فى المستقبل يوم يهلك
الفلاح فتخرب الدولة ، ولا ننظر إلا إلى مدى محدود من
إصلاح يقوم على الفساد ، والوضع المعقول لصلة الفلاح
بالدولة هو أن نصلحه لتنمو الثروة ، وأن نهض بحياته
ليزداد إنتاجه ونقوى بذلك على مقاومة التنافس فى الأسواق
الدولية المضطربة ، ونحن بهذا نستطيع أن ننظر إلى المستقبل
نظرة الثقة والاطمئنان ، لأننا أقنأ نهضتنا الزراعية على
أساس متين من إصلاح الفلاح وهو يد مصر العاملة ،
القادرة على إسعادها .

وتبقى بعد ذلك مسألة العلاقة بين الزراع والملاك ،
وقد نهى إليها أحد كبارنا المشتغلين بالشئون الزراعية ،
فقد يكون من السهل أن نجد طريقة لإصلاح حال فئة
الزراع ، ولكنها غالباً تمس مصالح الملاك وهنا تبدو صعوبة

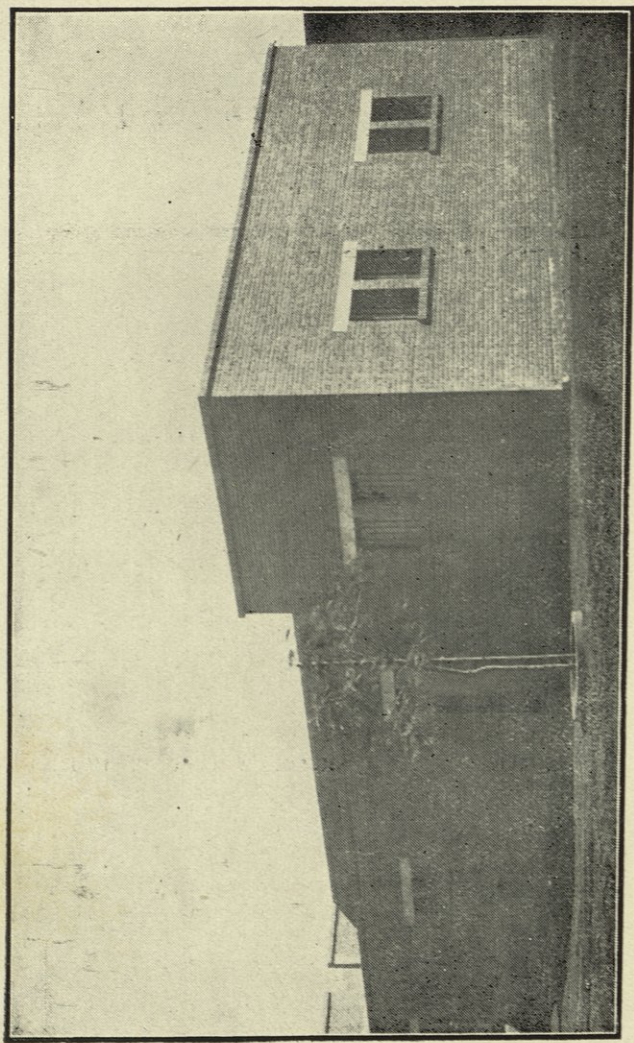
الإصلاح ، لأن الطرق العملية التي يؤخذ بها لا يصح أن تتعارض مع مصالح فئة أخرى .

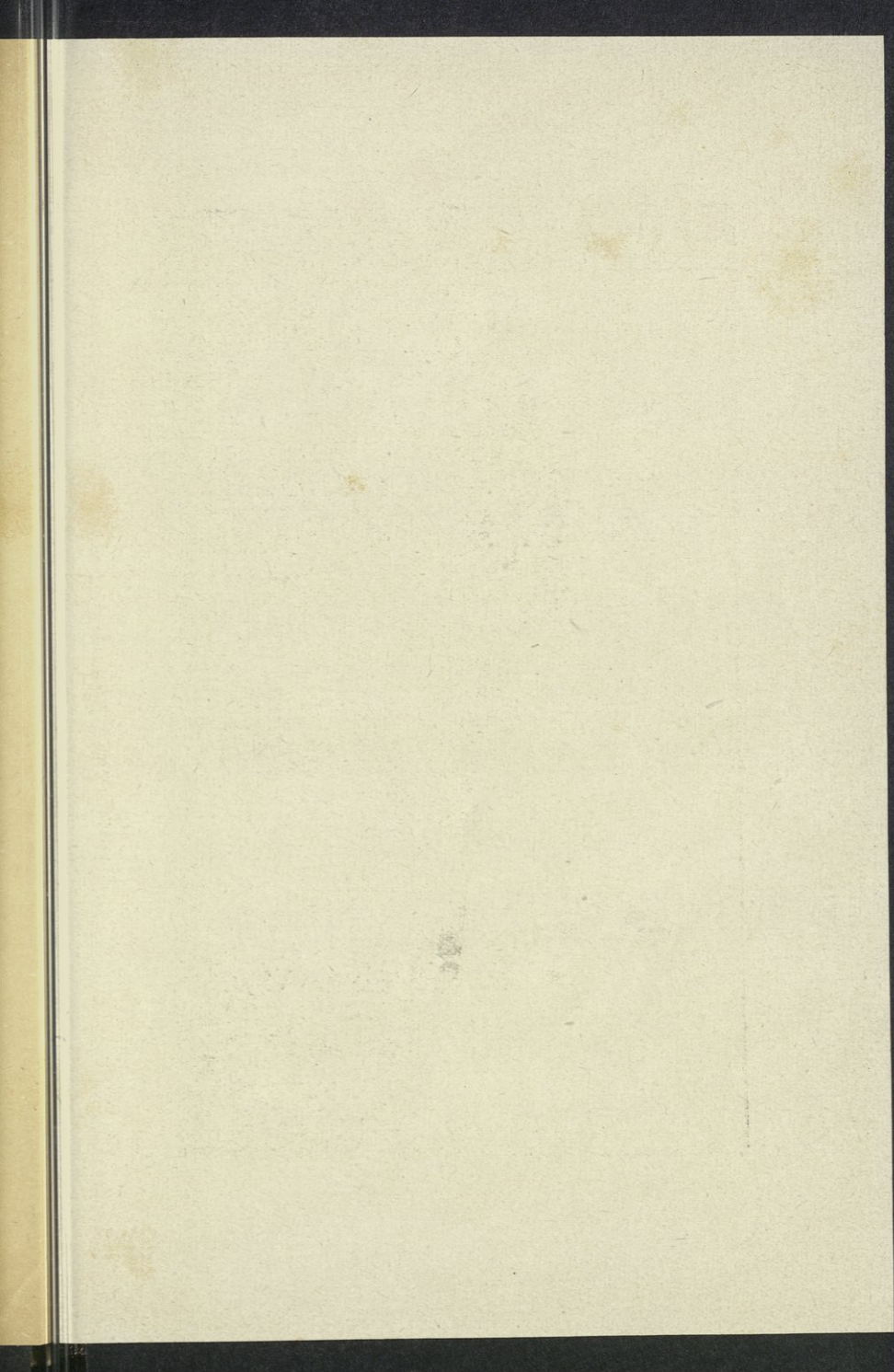
وأرى من ناحية أخرى أن مراعاة مصالح الملاك ليس معناها إرهاب الفلاحين التعساء ، وأن علينا أن نأخذ بحل أوسط نكفل به إيجاد التوازن بين مصالح الفئتين ، والمؤتمر الزراعي وحده هو الكفيل يبحث هذه المسألة وإيجاد الحل المنشود .

أخيراً . . . لقد ناديت بحماية الفلاح وألححت في النداء . . . والآن أخشى أن أصبح وأمسى فإذا بالظروف تلجئني إلى الإلحاح في المطالبة بإنقاذ الفلاح !



المنزل النموذجي للفلاح المجاهد





القسم الرابع

على هامش الريف

ذبول...

بقلم المؤلفة

وأخيراً اطمأن الشاب إلى صداقتي بعد أن كدت
أياس منه ، وزالت من عينيه نظرة الشك التي كان يطالعي
بها كلما حاولت التقرب إليه ، واختفى الاحترام المتكف
الذي كان يتكلفه أمامي . وحقيقة لقد كانت الهوة بيننا متسعة
لكني صبرت وثابرت . ومازلت به حتى وثق بي واطمأن
إلي ، وأصبح ينظر إلى في المستوى الأفقي لعينيه ، بعد أن
كانت كلماته تنطلق كأنما هي صاعدة من مكان بعيد الغور .

لقد كان موقفنا شاذاً مضحكاً ، فبالرغم من كوني
صديقة سيدته الهانم ، فقد كنت أحاول التقرب منه ، بينما
كان هو - هو البستاني البسيط - يفرمني ويأبى أن يخاطبني
بغير تلك اللهجة الرسمية الشديدة التكلف . وبدلاً من أن
تسير علاقتنا سيراً طبيعياً يتناسب ومركز كلينا ، بحيث

يتقرب هو إلى ، وأترفع أنا عن التحدث إليه ، كان يتهرب من محادثتي ويتجنب النظر إلى ، فإذا سألته عن شيء أجاب إجابة مقتضبة تتكرر فيها كلمة « سيدتي » بكثرة مملّة بينما يكون نظره عالقاً بالأرض دائماً ، كأنما كان يظن أنني لست بريئة في التحدث إليه ، وأنني لا أتنازل لمحادثته إلا سخرية به أو تهكما عليه ، فإذا أحسن الظن بي فلا أقل من أنه كان يعتقد أنني لا أمنحه كلماتي وعطفي إلا كما يمنح المحسن السائل دراهمه !!

وحاولت كثيراً أن أجعله يفهم أنني لست من الثراء كما يتوهم ، وأن صداقتي للعائلة الثرية ليست لتساوينا في المركز والثراء ، وإنما لأن لي فضلاً على سيدته الصغيرة الآنسة خديجة هانم أيام كنا نطلب العلم في مدرسة واحدة ، وكان لي حظ من التفوق أمتاز به عن بقية الزميلات ، وفي دور العلم حيث الجميع سواء ، صارت خديجة هانم وهي ربيبة العز والثراء ، صديقة لي ، أنا الفتاة التي لا حظ لها في مجد أو ثراء ! غير أن هذا لم يقنعه ، وازددت أنا تشبهاً بنيل ثقته لأعلم ماذا وراء تلك الشباب البالية ، ولأرى أي نفس تتعمق في هذا الجسم البادى

الشحوب ، وأى أسرار تختفي وراء تلك النظرات الشاردة العجلى ، فكنت أجلس بجانبه وأتناول الطعام من أمامه إذا مررت وهو يأكل ، فإذا لمحت قدارة فوق ثوبه الأزرق الباهت ، مددت يدي فأزالتها دون تكلف أو امتعاض ، وهكذا بدأ يطمئن إلى ، ويشق بي بعد طول تشبث وعناد .

كنت أتردد على قصر صديقتي كثيراً لشغفي بالجلوس وسط أحواض الأزهار واستلهاهم الخيال في هذا الهدوء الشامل ، ووسط ذلك الجمال الطبيعي الساحر الأخاذ ، فقد كنت محرومة من ارتياد الحدائق العامة احتراماً لتقاليد الأسرة ، ولأن حريتي ستكون محدودة ما دمت محتجبة حريصة ، ولهذا لذى أن أستعيض بجمال حديقة القصر عما فقدته .

وكان كوخ يوسف - الشاب البستاني - يكاد يختفي بين الحشائش الطويلة وشجيرات البرتقال ذات الرائحة النفاذة العطرة ، ولا يصل المرء إليه إلا بعد أن يمر على

أحواض منسقة بديعة من زهور البنفسج الزرقاء وزهور
العايق البيضاء ، كان الشاب فنانا يعرف سر مهنته ويتفانى
في عمله ، ويسرف في إرهاق نفسه كأنما كان ينشد في
العمل عزاء وسلوى عن شيء نجهله !

ذهبت إلى القصر في أوائل شهر يونيه الماضي حيث
اشتدت قسوة الحر في بعض أيامه إلى درجة كادت تصهر
فيها أبدان أبناء الطبقة الثرية المترفة ، وهي أجسام ناعمة غضة
لينة ليس فيها خشونة أجسامنا وليس لها تحملنا . وكان
طبيعيا أن تعجل أسرة خديجة بالفرار من القاهرة إلى إحدى
موانئ الاصطياف ، لأن لأفرادها أجساما يكاد يؤلمها
مرور النسيم ، إني لأذكر أن « حمدي » أخا خديجة شاكته
يوما شوكة الورد في إصبعه فاستدعى له طبيب العائلة !!
تري كم منا من لدغته العقرب ، أو أصابه صداع هائل ،
فاكتفى في الحالة الأولى بإسعافات ذويه الأولية ، وقنع
في الحالة الثانية بقرص من « الأسبرين » ؟ ذهبت لتوديعهم
فوجدت يوسف ينسق تاجا بديعا من الزهور البيضاء
والزرقاء ، أية فتنة وأى سحر في هذا التنسيق الفني
المنسجم البديع !! حييته فابتسم وصاحفني ، ثم جلست

بجانبه أناوله الزهيرات ليتفرغ هو للتنسيق ، فلما انتهى سألتى
عما إذا كان التاج قد أعجبني ؟ فتغاضيت عن الجواب وقلت :
ما أبدعها هدية تقدمها يا يوسف لخديجة يوم سفرها ! فابتسم
ابتسامة ساخرة وقال هامسا : ليست لها . فتساءلت مندهشة :
ولمن إذن تكون ؟؟؟ وهنا تبهم وجهه ، وغاضت تلك
الابتسامة الشاحبة التى كانت كقطعة من وجهه ، فحسبت
أنى آلمته وأردت أن أغير مجرى الحديث فقلت أسأله . .
ترى لماذا اخترت اللونين الأبيض والأزرق لزهيرات
كوخك وتاجك ؟ فصمت برهة وقال فى ذهول :- هذا
الزهر الأبيض الناصع البياض كبراءتها وحبها وطهرها ،
وهذا اللون الأزرق الباهت كجمالها وشبابها ، أو ليست
هى الأخرى زهرة شاحبة يكاد يصيبها الذبول ؟ كادت
الكلمات تفر من بين شفتى لتسأله (من هى ؟) لكنى
أدركت أن ذلك ربما أذهب عنه ذهوله فيصمت . ولذلك
قلت وأنا لا أفهم ما أقول : مسكينة ! لها الله ! لشد ما يهمنى
أمرها ! فقال يوسف وهو لا يزال فى غيبوبة مطلقة وكأنه
يخاطب نفسه : قذفوا بها وهى الزهرة الناضرة بين مخالب

الوحش المفترس ! باعوها بالمال وذهبوا يتمتعون بشمها
وهي وحدها تذبل وتموت ! ماتت أمها وهي في الثانية
عشرة من عمرها . قلنا لا بأس ، فستجد من عطف أبيها
ما ينسيها لوعة اليتيم . وهناك في الريف المصرى الساحر ،
حيث الجمال والفتنة والسكون ، نما حي لها ، فلما تزوج
أبوها - وهو عمى - بعد أربعين يوما من وفاة أمها الشابة ،
عولت على أن أحميها من قسوة زوجة عمى ! كانت هذه
الزوجة عقيما قاسية القلب متحجرة الفؤاد ، لا تتعفف عن
نيل ما تشتهى ولو خاضت في سبيل ذلك بحرا من الدماء !
فأصبحت (زهرة) الفتاة المدللة الصغيرة في جحيم من الشقاء
فهى لا تكاد تظفر براحة ولا طعام جيد ولا حنان ...
كان عليها أن تنقل - السباح - الى الحقل خمس عشرة مرة
فى اليوم على ظهر الحمار الأعرج الهزيل حيث تبخر الشمس
قطرات قواها وشبابها وجمالها . وكان عليها أن تجمع روث
البهائم كل يوم وتعدده أقرصا للوقود . فإذا أقبل الليل
وتراخت الأجسام تبغى الراحة ، تفرغت (زهرة) الطفلة
لخدمة الدار ! ولم تكن المسكينة تشكو ، لكنى كنت

أفر من عملي أحيانا ، مضحيا بأجرى كى أنتظرها على حافة
الترعة ، فأقوم بتوصيل الحمار إلى الحقل والعودة إليها ، وهى
جالسة محتبئة عند أمى ترتجف رعبا وفزعا ، وكانت تمنحنى
من عطفها الشئ الكثير ، لكنى فضلت أن أترىث حتى
تكبر وتنمو ، فمن الإجرام أن أفاجئها بحبى وهى بعد
طفلة ساذجة صغيرة .

كان شقاؤها يمينتى ، وكان أملى فى أنى سوف أسعدها
فيما بعد يميننى ، وما زلت بين إشفاق يمت وأمل يحيى ،
حتى فوجئت القرية بإعلان خطوبة (زهرة) . ممن ؟ من
(الشيخ متولى) فقيه كتاب القرية ! روعتنى الصدمة
وفجعنى التألم لها أشد من التألم لنفسى . (زهرة) الطفلة
الجميلة الصغيرة ، تزف إلى الشيخ نصف الأعمى ، الوحشى
الطباع الشرس الأخلاق ، الذى أربى على السبعين من عمره ؟
لم أبك ولم أثر ، وإنما تملكنى حزن عساف مستبد ، جعلنى
مطرقا ذاهلا أعمل كآلة صماء ، وكنت أتهيب الذهاب إلى
(زهرة) حتى لا تقتلنى رؤيتها حزينة ثائرة ، ولكنها
أرسلت تدعونى إليها فذهبت ، ولقد كنت أخشى أن يؤلمنى

حزنها فإذا بفرحها يقتلني قتلا . رأيتها فرحة مجنونة في
فرحها تقلب الشياح الحمراء التي أعدوها لها في غبطة ظاهرة
وفرح أحق ، سألتها : هل أنت سعيدة ؟ قالت ولم لا ؟ أو
ليس هو السيد المطاع في الحى ؟ انظر يا ابن عمى : لقد
أصبحت سيدة فلم أعد أذهب إلى الحقل وراء الحمار ، ولم
أعد أقوم بعمل الأمس المرهق ، وفي كل يوم يرسل لى
(الشيخ متولى) قطع الحلوى وبعض الفاكهة .

أما ثوبى المزمع الذى كان كقطعة من جسدى فقد
قذفت به بعيدا ، إذ ما حاجتى إليه وقد صار لى عشرة
أثواب ؟ ثم انظر . . هذا النحاس الأحمر البراق لى وحدى ،
وهذا الصندوق المزركش سيصبح مستودع ملابسى العزيزة ،
وهذه الحشية الناعمة سأنام عليها بعد الحصار البالى ! ما بالك
تبدو واجما لقد كنت أنت الشخص الوحيد ، الذى غمرنى
بجنانه أيام تعاستى ، فالיום حيث يذهب شقائى إلى حيث
لا رجعة ، لا بد لك أن تباركنى ! وفقزت من مكانها وأنا
حائر ، ثم طبعت على شفتى قبلة خرساء لا زلت أحس
بجاراتها حتى اليوم .

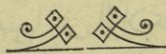
كانت كلماتها الساذجة تعذبني ، كم وددت لو أنها تنور !
ولكن لم أقل إنها طفلة ؟ طفلة تماما لا تهتم إلا بالحلوى
والثياب الحمراء ، وزوجة أبيها تمعن في تضليلها .

وتسأليني لماذا رضى أبوها ؟ لقد دفع الشيخ ثمنها ،
كم تظنين ؟ أربعين جنيها ، وهو مبلغ لا يحلم به الحاج
(سيد احمد) عمدة القرية ؟ ولقد زفوها إلى الشيخ وهي
حتى اللحظة الأخيرة تملأ الدار ضحكا وضجيجا ، وكنت
هجرت القرية شهرين ، فلما عدت تفقدت الطفلة الجميلة
بالعوب فلم أجدها ، وإنما وجدت مكانها امرأة ناضجة
متفجعة تعسة ، لا تضحك ولا تبكي ، ولكنها تبدو ساهمة
شاردة . . . دائما وفي كل وقت ، وقد فهمت المسكينة مدى
حبي لها لتزيد في شقوتها ، ولكنني خنقت حبي في صدري
وحطمت قلبي في الوقت الذي بدأت هي فيه تهتم بي . لم أجد
بدأ من مشاركتها محنتها ، سعادتها هي كل شيء عندي
فأما جسمي الفاني فلا شأن لي به ، وهأنذا أذهب إليها كل
أسبوع لأحمل إليها تاج الأزهار ، رمز الطهارة والجمال
الشاحب الذابل ، وهناك . . . في سجنها المظلم نجلس ساعة

صامتين لا تتكلم ولا تتحرك ، وهذه اللحظات هي النعمة
التي تبقت لي ولها من الأمس الدابر البعيد .

إني لا أعرف لحياتي نظاماً ، ولا لمستقبلي خطة ،
لا إرادة لي ولا رجاء . . . إني أمضي وسط تيار الحياة
إلى حيث يحملني ، وأما هي : فلها الله !

وسكت الشاب ، ثم أخذ يحملق في الجو ونظره عالق
بالأفق الهابط البعيد ، فقممت من مكاني تسوقني قدماي على
غير هدى في منعطفات الحديقة ، ولما عدت إليه بعد قليل ،
وجدته يعمل في الحديقة وعلى فيه ابتسامته الزاهلة الشاحبة
وفي عينيه نظراته الشاردة الجوفاء .



قصة ريفية واقعية

بين نارينه

بقلم المؤلفة

في كل مظهر من مظاهر الحياة قصة ، وفي كل ناحية من النواحي مسرح تمثل عليه هذه القصص الحقيقية ، ولو تلبس الإنسان حياته ونظر حو اليه لأدهشه أن يرى نفسه يمثل دوراً .

نشط التأليف وكثرت الروايات . وضائق مكاتبنا عن هذه الكتب الروائية الكثيرة ، وضائق وقتنا عن تحمل هذه القراءة المتتابعة مع أن في نواحي الحياة الكثير من هذا النوع . وما يخفيه عنا إلا ضجيج الحياة والتنافس المر والجري وراء المادة ، وهما أنذا اليوم أسجل قصة لم يسدل عليها الستار بعد ، ويغنيها عن البلاغة أنها ليست كمثيلاتها التي توضع للتسلية ، بل هي حقيقة تقع حوادثها الآن في ريف مصر ، وعلى المسرح تقف البطلة الصغيرة حيرى تنتظر إسدال الستار ونهاية المأساة . هي قصة حقيقية تمثل

جشع الآباء - أعنى البعض منهم - وضعف الفتيات ، وتحكم
المادة في الحياة تحكما مرأ مؤلماً ؟ .

مختار بك من أعيان قرية . . . بالقليلية في بسطة من
العيش وسعة منه ، يملك ضيعة تبلغ مائة وخمسين فداناً ،
ومنزله المبني بالطوب الأحمر وسط الأعشاش الصغيرة
بالبن ، يبدو كالقصر الشاخ الذي يضم بين جدرانها العالية ،
حياة غامضة لا يعرف عنها أهل القرية ولا أعرف عنها أنا ،
إلا الشئ القليل ، ومختار بك رغم عيشته في صميم الريف ،
يعيش عيشة المدن فملابسه وملابس أهله وأثاث بيته ونظم
معيشته كلها لا تمت إلى الريف بصلة .

رزق بانه متوسطة الجمال لكنها جذابة حسنة . في
عينها سحر ، وفي صوتها الرنان شئ من الصرامة والأمر ،
وفي فهمها الصغير الغليظ الشفتين ، كثير من الغموض
والإبهام ، ورزقه الله بعد اليأس ذكرأ يرثه ويخلد اسمه
العظيم الكبير سماه « يحيى » وهو اليوم في الثالثة من عمره ،
وكانت الابنة تركب عربة أبيها كل يوم إلى بنها ، حيث تتلقى
العلوم في المدرسة الابتدائية ، ثم التحقت بمدرسة المعلمات
الأولية ، وعلها التنقل والمشاهدة أن المال لا يكفي لسعادة

الإنسان إن لم يكن هادئ البال .
أفكارها في الحياة لا بأس بها ، وهى أرقى بكثير من
أفكار مثيلاتها الثريات المترفات ، وعجيب أن تشب الفتاة
ذات نفس رقيقة نبيلة رغم ما أعلمه من استهتار والدها .
رأيتها يوماً وقد وقفت تسألنى فى حياء جم أن أسمح
لها بالجلوس بجانبى ، لأن القطار - وكان ذاهباً من بنها إلى
ميت بره - لا يحوى سوى عربة واحدة للدرجة الثانية ،
فقبلت مرحبة وكان ذلك بدء تعارفنا .

وسرنى منها طيب وفأماً ، ووجهها الصياني الساذج
ونظراتها العميقة البعيدة الحائرة ، وبساطتها المدهشة رغم
ثرائها ورغم . . استهتار أبيها .

عائلة الشيخ دسوقي ، عائلة قديمة تسكن القرية نفسها
من أمد بعيد ، متوسطة الجاه ، يكدرها الكثيرون فى
الحقل طول النهار حتى إذا عادوا ، قنعوا بملابسهم التيلية
البيضاء المزهرة وجلسوا على المصطبة ، منتظرين والدهم
العم دسوقي ، فإذا حضر أخذوا يقصون عليه أحوال
أرضهم ، فيذكر أحدهم حالة الغنم ، والثانى اهتمامه بالرى

أثناء الدور ، والثالث حالة المزروعات ، وهكذا حتى يفرغوا ، وبعدئذ يدخلون إلى وسط الدار حيث تأتي - مشنات - الخبز وإناء اللحم المسلوق ، وأطباق الخضار ، التي لا لحم فيها ، فيوزع العم دسوقي عليهم اللحم ، كل رجل وزوجته وصغاره .

عيشة ريفية صميمة ، لكنهم كانوا سعداء بها ، يزيدهم استهتار جارهم الثرى قناعة واعتباطا ، وكانوا مشهورين بالكرم والنخوة لأن جدتهم - كما يقول العم دسوقي - كان من كبار الأعراب . وكان أصغر أولاد العم دسوقي ، واسمه حسين ، طالبا بمدرسة دار العلوم ، ولعله كان أسعد إخوانه ، فهو يجمع بين تحصيل العلم وبين الأصل المجيد والخير الوافر .

تعود حسين أن يقضى عطلة الأسبوعية بين أهله ، وكان يقضى الكثير من وقته في مضيقة جارهم الثرى المتمدين محتار بك ، محاولا أن يخترق ببصره تلك الجدران السميكة ليرى ما وراءها ، أو يسير متجولا في الخلاء ، ينشد الشعر والوحدة والالهام .

وكان الجار الثرى يرحب به ، لأنه الشخص الوحيد

في البلدة ، الذي يلبس (افرنجى) ويتكلم بلهجة مصرية
أرقى من لهجة الفلاحين (الأجلاف !)

وكانت نجية في الرابعة عشرة من عمرها ، صغيرة
حازمة ، ساذجة عالمة ، وكثيرا ما كان حسين يلتقى بها أمام
الدار وفي الحقول ، وعلى حافة التربة ، تشاهد حاملات
الجرار . وكان يحسبها مثالا للغرور والكبرياء مثل أبيها
المتعجرف ، ولكن أدهشه أن يراها كثيرا ، تساعد بعض
القرويات على حمل جرارهن رغم ابتلال ثوبها الحريري
الأنيق ، وحذاءها اللامع . ولاحظ أنها لا تأنف من محادثة
القرويات والإصغاء إليهن في ثقة وتواضع ، وهى ابنة
الرجل الفظ الكسول ! كانت ملاك القرية كما يسميها
الجميع ، وراع الناس منها أن تهجر القصر طول النهار ،
متقلة كالفراشة البيضاء ، حتى إذا ما أقبل الليل ، دخلت
البيت مطأطئة الرأس .

أحبها حسين حبا قويا غالبا ، وعلمت هى منه ذلك
فصمتت وإن لم تر فى ذلك غرابة أو شذوذا . وتجنبت
جهدا لقاءه ، لا ترفعأ منها ، بل حياء وإشفاقا عليه أن يذهب
ضحية أمل لا سبيل إلى تحقيقه ، وأن يقامر بحياته فى التعلق
بسراب كاذب .

وتحادثا طويلا ، وحاولت أن تقنعه أن أباه لا يطاق ،
ولكن الأمر كان قد خرج من يده ، وأصبح لا يفهم كيف
يبغض تلك الصغيرة النبيلة الجديرة بالحب والإعزاز .
وأوشك حسين أن يتم دراسته فتقدم إلى أبيه الشيخ ،
يكشف له عن حبه ، فهاه الأب وذكره بتقاليد الأسرة ،
التي تأبى زواج الشاب من غير بنات أسرته ضمانا للخلق
والبقاء ، وهناك بنات أعمامه كثيرات . لم يأبه الشاب
لغضب أبيه وتقدم إلى أب الفتاة يطلب يدها ، فزجر
الرجل وقال في احتقار :

يا إلهي ! ابنتي أنا ؟ من أنت ؟ مادخلك وماذا تملك ؟
ألا فاذهب إلى إخوتك في الحقل ، وانظر كيف يكون الفقر
والقذارة واعرف من أنت - أسمعني ؟

خرج الشاب يحرق قدميه جرا ولم يذكر لأبيه شيئا ، بل
ولم يتقدم على الفتاة وقاحة أبيها وقسوته ، واكتفى بما سمعه
من أن الفتاة غضبت وصرحت لأبيها أنها كانت تسعد مع
حسين رغم فقره وقذارته ، وأن الأدب كان يقضى عليه أن

يصرفه عنها في لطف واحترام ، فازداد لها حبا ، وعول في غضبة الرجل المحب أن يكون لها أهلا .

أخذ يدرس في مدرسته نهاراً ويتعلم اللغتين الفرنسية والإنكليزية ليلاً حتى أجادهما ، فالتحق بامتحان المعادلة في الشهادة الثانوية قسم ثان وكان من الناجحين .

حيثئذ ترك مدرسته أقرب ما يكون إلى إتمام الدراسة بها ، والتحق بمدرسة المعلمين العليا ، وقسا على نفسه في العمل والاجتهاد ، غم عذابه ولوعته ، معتقداً أنه بذلك يسير إلى أمله سيراً حثيثاً ، لقد عاهد نفسه أن يكون لها أهلاً... فليعمل ! وطالت الأيام ، ثم قصرت فجأة ، ثم إذا به يرى اسمه في طليعة قائمة الناجحين في الدبلوم فحمل أمله وثروته ، وركب القطار إلى القرية .. إلى أب الفتاة .

ضج العالم لنزول أسعار القطن واشتداد الأزمة ، وأصبح كل فلاح يحمد الله أن وجد كسرة وسترة ، ولكن رجلاً متمديناً مترفاً مثل مختار بك ، كيف يقنع بما قنع به

المزارعون البؤساء ؟ ! إن سحب الأزمة ستنقشع قريباً ،
فلماذا ينزل من علياء سمائه !

لقد يكفي نفراً كالعلم دسوقي مثلاً أن يزرع أرضه قمحاً
فيأكل ، وبرسيماً فتأكل غنمه وبهائمته ، فيبيع من الأولى
ما يكفي لدفع الضرائب ، ويأخذ من الثانية ما يأتدم به .
أما مختار بك الثرى الوجيه فلا يكفيه شيء من هذا ،
لا يكفيه إلا « البنك الألماني الشرقي » يغترف منه ما يتنعم
به ، وحوله أكباد تحن إلى الرغيف العفن . وبطون تتضور
جوعاً . وكان أطفال القرية كلها يقفون متحسرين دهشين
حينما يشاهدون أمام بيته ، بقايا عظام اللحم وقشور اللوز
والبنديق والفاكهة !

وضاق (البنك) عن مطالبه ، أو ضاقت أرضه عن
ضمانة البنك ، والأزمة متباطئة لم تنفرج بعد ! ووقعت
الكارثة !



ذهب حسين إلى القرية بعد أن هجرها أربعة أعوام ،
فراعه أن يجد شيخاً طاعناً في السن غريباً عن القرية ، يسكن
في بيت من أحبابها وأخلص لها الحب ، ولكن ساعة واحدة
كانت كافية ليعرف كل شيء !

غلى الدم حاراً فى عروقه . . . يجب أن يسدل الستار
على ماضى وينقذ الصغيرة النبيلة ! وللمرة الثانية تقدم إلى
أيها ، وعرفه بنفسه ومركزه الجديد ، ثم طلب يد ابنته ،
فذهل الرجل برهة ثم وعده بالقبول إن قبلت ابنته .

كتب حسين خطاباً إلى الفتاة وناشدها المروءة والنبيل
الآتطعنه فى صميم آماله . فأكبرت هى منه إقباله عليهم حين
أدبر الدهر منهم ، بينما أعرضوا عنه أيام عزهم ومجدهم .
وتقدم إليها أبوها ، لاليعرض عليها طلب الفتى وإنما طلب
المثرى العجوز الذى سكن بيتهم والذى ضجت القرية من
عربدته وسكره . . . ذلك الشيخ المدم الذى قضى عمره
الطويل متنقلاً بين الحانات والوجوه الحسان حتى سئمتها
نفسه ، فرأى أن يقضى مابقى من عمره - وإنه لقليل - مع
تلك الصغيرة الحسنة على أن يرد إلى أيها أرضه وشروته !

وبكى الأب مستعطفاً ، وبكت الأم والهة حائرة ، وبكى
الطفل مشجعاً إياها على قبول الصفقة وإنقاذ العائلة ، ومن
خلف الثلاثة ، ظهر شيخ حسين باكياً ! حسين الذى أخلص
لها الحب ، وهو بعد الفتى الشهم ، الكبير النفس ، المعذب
القلب ؛ حسين الذى تحمل له فى قلبها أظھر عاطفة وأصدق

حب ، والتي كانت تود أن تعيش لترعى سعادته فقط !
هل تتزوج منه لتكافئه إخلاصا بإخلاص ، رغم
ثقتها أنها غير أهل له ؟

ولكن . . . أبوها الذي رباها ، أمها التي حملتها ، أخوها
الطفل البريء ! هل تضحي بهم جميعا من أجل حسين ؟

إن أباهما لم يستمع لأنينها فيما مضى ، فهل تستمع هي
لبكائه الآن ؟ ولكن هل من الأب ينتقم إلا إنسان ؟ وكيف
إذن ينأ لها عيش وهذه عائلتها تهوى إلى حضيض التعاسة ؟
هل تتزوج العجوز السكير فتتخذ أسرتها وهم بعد
سيقدرتون تضحيتهما ؟ ولكن حسينا لاقى كثيرا ! عادى
أهله ، وهجر قرينه ، وتحمل إهانة أيها غنيا ، وغطرسته
فقيرا ، فهل تكافئه بالجحود والنكران محطمة قلبها وقلبه ؟
وهل تنأ بإنقاذ أهلها وهذا حسين الذي تحبه ، يقتله اليأس
أو يسقمه المرض ؟

إذا تزوجت حسينا فشبح عائلتها سوف يعكر عليها
العيش وسينذكرها دوما بأنها ملككت في يوم ما سبيل سعادة
أبويها وأخيها فأحجمت عن منحهم تلك السعادة .
وإذا تزوجت المثرى العجوز ، فشبح حسين سوف

يتبعها ، ويلاحقها في نومها ويقظتها ، ليذكرها في كل لحظة
بأنها قاتلة . . مجرمة !

هي حيرى فماذا تفعل ؟

هذه هي القصة ، لم أحاول تنسيقها أو ترتيبها ، خبرتها
بنفسي وأطلعني على الباقي صديقتي وسألتني في النهاية
« ماذا ترين ؟ إنني أنكر نفسي وأجمل سعادتها ، لكنني
لا أستطيع أن أنكر أبي أو أتسخر لحسين . . . إنني في حاجة
إلى السلوى والمشورة فماذا ترين ؟ »

وإنني إذ أبسط الآن الحل الذي رأيته لها ، أرجو ألا
يتهمني أحد بنكران التضحية في سبيل الآباء ، بل يجب أن
نقدر أولا الظروف التي وجدت فيها الفتاة . ولا يمنعني هذا
من أن أصبح بكل قواي ، بوجوب طاعة الآباء وبذل الحياة
في سبيل سعادتهم إذا كانوا أرحاما ، وإذا كانوا من جانبهم
يقدرون البنوة كما يقدرون الأبوة . . .

خاتمة القصة في رسالة

من المؤلفة الى البطلة

أختي

لك الله يافثاة . . . قذفت بك الأيام السوداء وسط
غمرات من الأسى والحيرة ، كأن لم يكفك ألم صامت ،
وثورة كامنة ، وحزن دفين تعمق في نفسك وأنت بعد
طفلة في المهدي !

ماذا يريد أبوك وصديقك ياتعسة ؟ أيضيرك أن
أسميك هكذا ؟ ولكن بكل مافي هذه الكلمة من عاطفة
ورثاء وحنو ، أتحدث إليك من قلبي ، وللقلوب ياتعسة
أحاديث !

وكانى بك تحسبين صمتى انشغالا عنك بالامتحان كما
تقولين ، وكأنك لم تحملقى في الأفق البعيد ، لترى أية فتاة
ثرة باكية قرأت كلماتك ، ولكم حاولت أن أكتب إليك
فمنعنى . . . لا أعلم ماذا ! إنها كتلة صغيرة تتكون من لاشيء
تقف في مجرى الهواء عندما لا يقدر الإنسان على كبج جماح

عاطفة البكاء ! سميها ماشئت واختارى لحالتى ما يلذك من
الأسماء . ولكن ، ألسنت ترين معى أننا نسير فى حياتنا إلى
غاية مجهولة يريد لها لنا غيرنا فيندفع بعضنا فى طريقها فى
جهل وعمى ؟ جهل فى القلوب وعمى فى الأبصار ، رغم
ما نشعر به من إرادة وحذر ، ورغم هذه الأعين الواسعة
التي فى وجوهنا وكأنها ما وجدت إلا لتحمل إلى قلوبنا
الضعيفة رسالة الهم والشجن ، وإلى عقولنا الظامئة ، قليلا
من المعلومات المهوشة والتجارب الجوفاء ، وما أردأ
التجارب من موصل لحرارة الحياة ؟

وهنا أتساءل : لماذا لم تشبى مستهترة كأبيك يافتاة ؟
إذن والله فما كان ألد لنفسك الباردة من مائة وخمسين
فداناً ، وهى ليست مائة وخمسين جنيهاً ، تقدم لك صداقا
وما كان أسعدك بتلك الأكوام الصفراء ، تعبت بها يداك
فى لذة واستهتار !!

ولكنك فتاة لامادية ... هكذا أعرفك ... أوتريدين
أن أذكر لك بعض ما أعرفه عنك ؟

أعرف فيك تلك الفتاة المليئة بحرارة الحياة ، ولو أنها
نفسها تتدمر من تلك الحياة وتنقم عليها ، بل كأنى أرى

بعينى النفاذتين ما تحت ثيابك من ثوران عاطفى ناظم على
الحياة وما فيها ، أعرف فيك ذلك الضال المهتدى الذى
يثور فى صمت ، ويبتسم فى مرارة ؛ وأحس بما فيك من
خواطر تحاولين جهدك إخفاءها ، حتى لا أرى فيك إلا
تلك الوداعة الهائلة ، التى تنعم بثروة أبيها ولا تفكر فى شيء
ولا تسأل عن شيء ؛ وأصارحك بأنه كان يحلو لى أن
أرقب وميض شعلة عواطفك عن كشب ، وأن أراها
تتأجج تحت رماد الحياء والمدارة كزبد الأفران العالية ،
يطفو فوق الحديد المنصهر ، فترى العين فيه سطحاً تريباً
أدكن خلواً من البريق ، حتى إذا غلى المرجل انفرج الزبد
ورأينا الحمم واللهب ؛ نرى لهب الحديد المنصهر يشوى كبد
ذلك الاتون العالى ، ولكنه لا يئن ولا يتوجع ؛ هكذا
أعرفك ، وهكذا تقدمت تستشيرين من تعرف عنك هذا
وأكثر ، فى أمر هو الحياة والمستقبل .

يا لله كم تؤلمنى ثقتك ؟ ؟ لماذا عرفتك ؟ ولماذا ذهبنا إلى
أبعد حدود الإخاء والثقة ؟ ألتحكيمنى اليوم فى مستقبلك
ولأكون فى موقف المسؤولة عن سعادتك ؟ إني لا أريد

أز كون لك جلاداً ، وأنا بعد لا أطيق إلا أن أراك سعيدة
تضحكين وتبتسمين ، ولو أنها ضحكات السريرة الباكية ،
وبسمات القلب الثائر .

على أنى لن أصمت ، بل وأذهب بعيداً فأدلى إليك
بري على سبيل الأمر والإلزام ، وأنت يا أختاه لا تحسنين
التصرف ، وأملك بجانبك تسيل دموعها ، وأبوك يبكي ،
والشباب يتألم أعماق الألم ، فدعيني إذن أرشدك إلى الطريق
الذي أراه ، فإن ظفرت بالسعادة وأنت سائرة فيه فما أسعدني
بك ، وإن غلبت عليك الشقوة فما أعماق ثقتك بحسن نيتي
وإذن فما أقربك إلى الصفح !

لن آمرك بترك أيك والخروج عن الواجب رغم
استهتاره ، ولكني أيضاً لن أجعل منك يدا مجرمة تخنق
قلب الشباب الذي أحبك لسمو نفسك . وقبل أن تغرقيني
باعتراضاتك ، أسألك لماذا لا تسألين أملك عن سبب إهمالها
في رعاية أيك أيام كان ثريا مستهترا ؟ ولماذا لا تسألين
أباك كيف ينفعه ثمنك الذي يدفعه العجوز السكير وقديما
لم ينفعه ما له ؟ ولم لا تسألين نفسك ، كيف تقبلين المجاعة
الروحية والدمار النفسى ولن يقول حسين والناس : مسكينة

ضحت بكل شيء في سبيل أبيها ، بل سيقولون : مستهتره
أغواها الأصفر الرنان ، وسوف تمهد لنفسها حياة مليئة
بالحرية والغواية ؟

ثم هل تظنين أن من البر والتضحية أن تفتحي لأبيك
باب الغواية والضلال بعد أن سدته في وجهه الحاجة ؟
وأن تضحي بنفسك وبالشباب البريء ، ليكبر لك أخ
متلاف مستهتر كأبيه ؟ وأن تقتلي نفسا بريئة لتضمني المال
لأملك التي أغمضت عينها عن مساوىء زوجها أو شاركته
فيها لست أدري ؟

لا يا أختاه . . لن ينطق المأذون بالكلمة التي تربطك
بهذا السكر ، إلا وفي ثناياها الحكم عليك بالشقاء ، ولن
ترقى إلى هذا المهدم المفسود إلا على أنقاض سعادتك ،
ولكن هل تفرين من أهلك في محنتهم ما دام قبس النجاة
يغريك من بعيد ؟ وهل تهترزين فرصة الضعف من والدك
المتنمر الجبار ، لتتركه في بسمه ساخره ؟ لا . . . أنا
لا أرضى بذلك وإذن فأنصتي إلى أوامري ، ولا يعميك
الحاضر عن مستقبل غاص بالشقاء والجنون ، أو حافل

بالسعادة والسكون ، واذكرى أننا فى يوم له ما بعده فلا
حكم غير العقل .

« تزوجى مبينا » ترى ماذا تحدثه تلك الكلمة فيك
من دهشة ، لأنك حاولت - ولكن عبثا - أن تظهرى
لى أن اهتمامك بسعادة أسرته أكثر من اهتمامك بأى شىء ،
وأنت مستعدة للحكم مهما قسا ؟

« وأنقرى أباك » من الضائقة المالية والخلقية ، قدمى
له صداقك وما تملكين من حلى ، وليكن الجميع مائى جنيه ،
ليكون رأس مال لمتجر متوسط يبيع فيه البقالة أو الأقمشة
والأولى أفضل لاحتياج الناس إليها دائما حتى فى الأزمات
الطاحنة ، وعليه أن ينشئ نفسه من جديد نشأة شريفة
رزينة ، وأن يكون بهذا المال وأراه كافيا - ثروة واسعة
يستعين بها على تربية ولده تربية مهذبة صالحة .

« واهمسى فى أذنه أمك » أنها مسئولة عن شقاء الأسرة .
قيما وحديثا ، رغم ما تعتذر به .

« وقرى أمك الطفل » ليملا فراغ بيتك الحديث

مضحكاته الرنانة ولتربيته التربوية الأولى الأساسية ، ريثما
يستقر حال أهلك .

يبقى بعد هذا ، رأى فى تنفيذ الحكم .
أما الشاب فسيقبل راضيا مغتبطا ، ولن يضره أن
تذهبي إليه بقلبك وحبك ، لا بحليك وأثاثك ، بل وستكفينه
عبء هذه المفرشات المكدسة التى تسبق العروس إلى بيت
زوجها لتحتل الهواء الطلق منه ، وإذا قبل فما أجدره بالحب
وما أحراك بالعمل على إسعاده !

وأما أبوك فيجب أن يقبل ، وإذا عز عليه أن يتحول
من غنى مترف إلى تاجر شريف ، فدعيه فى غوايته ،
وأشهدى الله والناس ، أنك فعلت ما فى طاقتك ، وأن أباك
لا يريد الحياة العملية الشريفة ، ولكنه يريد المال ، ليمهد
له طرق الشر والضلال .

وأما أخوك فسيمنحكما من السعادة أكثر مما تمنحانه
من رعاية ومال ، وستجعلينه رجلا ، وحسبك بعدئذ أن
ترى غرس يديك يسير فى معترك الحياة مجاهدا وشريفا .

هيه !! أليست قسمة بديعة تقومين بعملها وتحركك

في الخفاء يدي ويشاركك قلبي؟ لشد ما حاولت يا أختاه
بعد قراءة رسالتك الملتهبة، أن أتحرر من قيد كلماتك النارية
التي طوقني بطوق من دثارها المؤلم، وشبكة من خيوطها
الجمراء، وأن أنسى نزعة البكاء التي كانت تتواطأ على صفحة
خطابك كي أحكم عقلي وأخرج لك بفكرة يراها الناس
حكيمه؟ ولكني لم أفصح، فالناس يحبون المال في إسراف
وأنا لا أستطيع أن أقبل تضحية الواحدب والحياة في سبيل
هذا المعبود الأصفر، وليس ذنباً أن أرى ما لا يراه الناس
(فأى هكذا خلقت). فإذا نصحتك أحد برأي غير ما رأيته
لك فلا تنصتي، وثقي أن فراسة الإيمان والحب والإخاء
لا تخيب.

وبعد فأنا أنزهاك عن النظر إلى تلك الثروة الطائلة التي
أضعتها عليك ولا زلت أزيحها يدي بعيداً عنك...
لك من أشعة الشمس ساعة الغروب، تشهدني وفي
نفسك غبطة وفي قلبك حياة، ما يغنيك عن أكوام مكسدة
من الذهب، لا تستطيع أن تسكب في قلبك قطرة واحدة
من الحياة؟

لك من ضوء القمر الفضي اللامع، تستقبلينه في ظلام

الليل وأنت في غمرة من السعادة النفسية ، وفيض من جمال الحياة ، ما يغنيك عن كثير من المال ، تبيعين به حرارة الحياة وحياة الهدوء

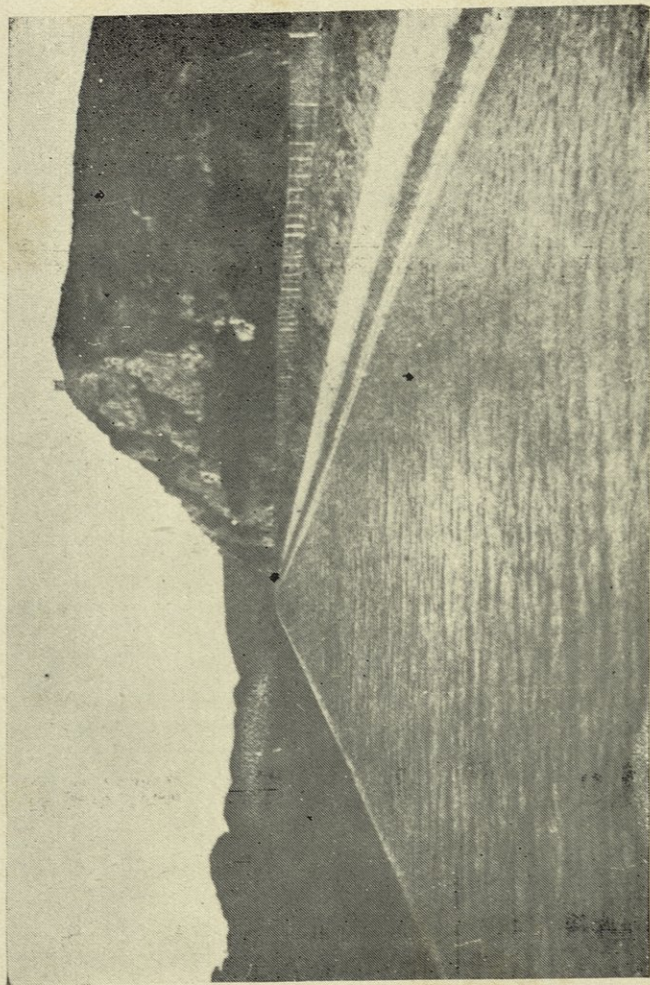
هي أكلات ثلاث يا عزيزتي ، لا طاقة لمعدتك على تحمل أكثر منها ، وهي سترة واحدة لا تتفاوت في تأدية الغرض سواء كانت من نسيج الذهب أو القطن ، فإذا وراء زواجك بالغنى يا أختاه ؟

ثقي أن مكانا عزيزاً يعده لك زوجك المثقف في قلبه خير من قصر فخم يشيده لك هذا السكير من ذهبه ، وأن زهرة صغيرة يهديها لك زوجك رمز إخلاصه وحبه ، أسمى من عقد من أثمن الجواهر ، يخنق به الآخر عنقك دليل إعجابه ، وثماناً لما تمنحينه من حياة .

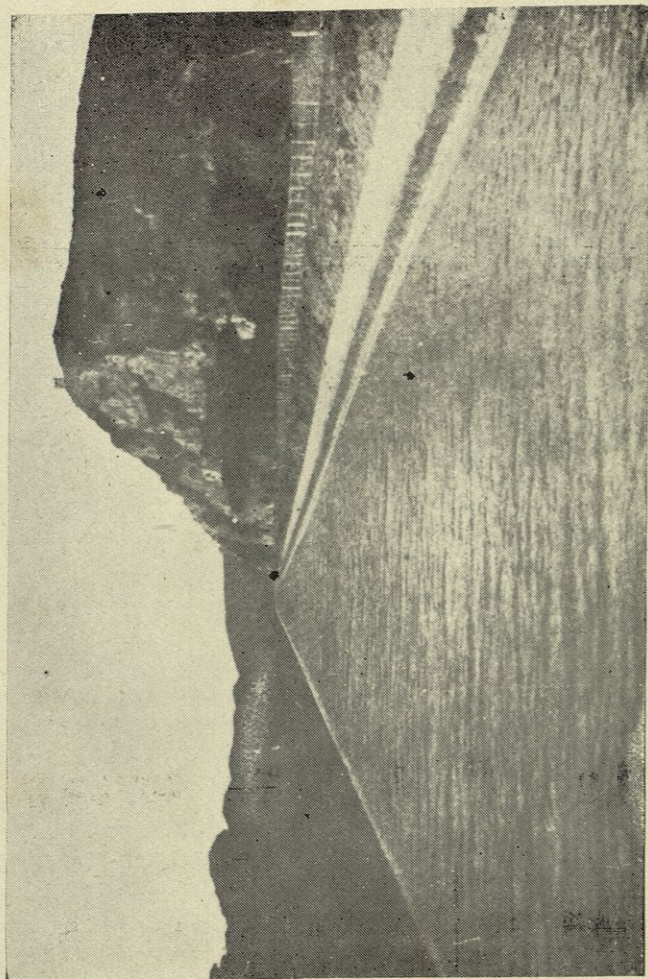
إن بريق عيني حسين ، المملوءتين حياة وطهارة ووفاء ، أعز من بريق الذهب ، ترينه لتذكرى في حسرة أليمة ، أنه أضاع سماعتك . وسلبك راحة البال وصدق اليقين .

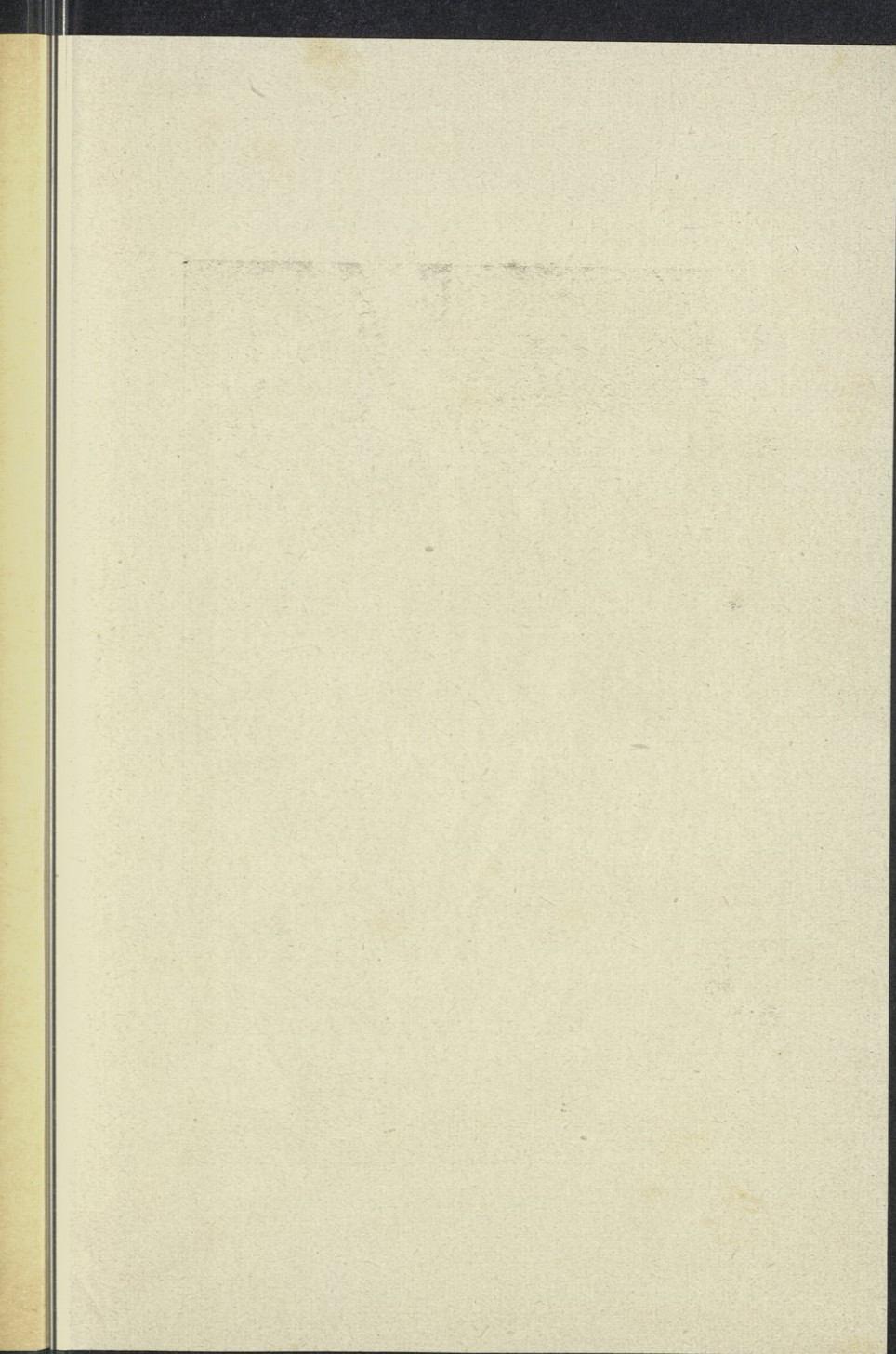
قال في نسخة بالان في بيتان في البيت الاول
في البيت الثاني
في البيت الثالث
في البيت الرابع
في البيت الخامس
في البيت السادس
في البيت السابع
في البيت الثامن
في البيت التاسع
في البيت العاشر
في البيت الحادي عشر
في البيت الثاني عشر
في البيت الثالث عشر
في البيت الرابع عشر
في البيت الخامس عشر
في البيت السادس عشر
في البيت السابع عشر
في البيت الثامن عشر
في البيت التاسع عشر
في البيت العشرون
في البيت الحادي والعشرون
في البيت الثاني والعشرون
في البيت الثالث والعشرون
في البيت الرابع والعشرون
في البيت الخامس والعشرون
في البيت السادس والعشرون
في البيت السابع والعشرون
في البيت الثامن والعشرون
في البيت التاسع والعشرون
في البيت الثلاثين

ترعة ری رئیس، مبطنة بالجر والاسمنت



ترعة ری ریمسیت ، مطنه بالبحر والاسمیت





القسم السادس

تعليقات

المال ... الداء والدواء

فى إصلاح القرية المصرية

مرحى بالجنس اللطيف يقف بين صفوف المصلحين . .
مرحى مرحى بهذه الحماسة المتدفقة من الجنس اللطيف
الذى لما أن أيقن أن تقدم الحياة المصرية لن يتحقق
إلا بإصلاح حياة الفلاح القروية ، قام متكاثفا مع
رجال الأمة فى تحسين حالة الفلاح العلمية والاجتماعية
والصحية . . . هذه هى - ابنة الشاطىء - نصح لها الطبيب
بالراحة فى القرية فدخلتها بأئسة تعسة ، وخرجت منها أشد
تعاسة وشقاء ، ذلك لأنها رأت أن بجانب فتنة القرية بؤسا
يبعث الحزن من مكمنه ويشير الأسى من أعماق القلوب .

هذه هى الحقيقة التى لمستها الأنسة ابنة الشاطىء ، فى
زيارتها للريف وكل ما رآته إن هو إلا القليل مما نراه نحن
أبناء القرى من أحوال أهلينا من الفلاحين الذين يعانون
من بؤس وشقاء .

ويؤلمنى، وأنا من أبناء الريف، أن هذه الحقيقة السوداء لم تندلع فى قلبى بمثل هذه القوة إلا منذ بضع سنوات قمت فى أثنائها بدرس حالة هذا الفلاح كما درسها غيرى من الأطباء، وكان لنا فى ذلك صيحات متتاليات رن صداها فى الجمعيات والمؤتمرات .. غير أن هذه الأبحاث وتلك الجهود قد تحطمت كلها وتلاشت أمام تلك العقبة الكؤود، ألا وهى المال .

عندئذ عدت إلى نفسى وقلت : مالنا نحن الأطباء وحالة البلد المالية ؟ بل ما شأننا وشأن تنفيذ ما يتعلق بأبواب المصروفات من مجموع الميزانية ؟ فالواقع إنى أعتقد أنى كطبيب إذا ما دعيت لعيادة مريض أقوم بالكشف عليه ثم أقرر العلاج اللازم له مراعيًا أنه يتناسب مع كلتا الحالتين : حالة المرض وحالة المريض ، أى قوته فى احتمال الدواء وباقى الوصفات العلاجية ، ولست بعد ذلك أعد مقصرا إذا كان أهل المريض لا يقومون بالواجب عليهم ودفع ما يلزم لمريضهم من المصروفات فى شراء الدواء وما تتطلبه حالته المرضية .

وعلى هذا القياس نفسه أرى أن حالة الفلاح الصحية قد غنى بها أكبر عناية من حيث فحصها ودرسها ووصف دواء يتناسب وحالة البلاد الصحية والعلمية والاقتصادية . ولم يبق إلا أن نرى عناية أولى الأمر بتنفيذ الإرشادات واعتماد ما تتطلبه من مصروفات لإتمام هذه المشروعات الصحية . بل أذهب في معتقدي إلى أكثر من ذلك ، أعتقد أنه لو اضطررنا إلى مراجعة المصروفات لمختلف المشروعات وإبداء ما عن لنا من أفكار وآراء ، ثم عولنا في طلب التعديل أو الزيادة على التوسل والاستجداء ، أقول لو اضطررنا إلى ذلك لسكانت هذه ظاهرة مخيفة أساسها عدم الاطمئنان إلى كرم المسئول من رجالنا الأوفياء .

وحتى تكون سيدتي الآنسة ابنة الشاطئ ، وغيرها ممن عنوا بحالة القرية على علم بهذه المجهودات التي بذلها الأطباء في هذا السبيل ، رأيت أن أسجل هنا مجمل ما قام به الكثيرون للتوفيق بين حالة البلد المالية ومطالب القرية الصحية .

طلب حضرة الأستاذ الدكتور عبد الواحد الوكيل اعتمادا بمبلغ ٢٠٠ مليون جنيه لمدة خمسين سنة أي أنه

قرر أن القرية المصرية في حالتها الراهنة بعيدة عن الإنقاذ والإصلاح ، ولا يوجد لها علاج حاسم أكيد سوى أن تزال جميعها رأسا على عقب لتخلفها قرى صحية أخرى في مساحات جديدة يشمل كل بناء منها ٦٤ مترا مربعا ، وهو لهذا يحتاج إلى مساحة قدرها ٧٦٢٠٠ فدان يبلغ ثمنها من ٨ إلى ١٠ ملايين من الجنيهات ، أما عدد المنازل فقد قدرها بمليونين ونصف مليون منزل بزيادة نصف مليون منزل على تعداد سنة ١٩٢٧ ، ورأى حسب مقايضة حضرة المهندس أحمد حسن أن المنزل يكلف ٧٥ ج فيكون جملة ما يتطلبه المشروع من وجهة التخطيط والمباني ١٩٠ مليون جنيه أى ما يقرب من ٢٠٠ مليون .

ويدهشك مع فداحة هذا المبلغ ثقة حضرة الدكتور الوكيل في تنفيذ هذا المشروع إذ يقول في ختام مقاله إن هذا المبلغ ما هو على ما نظن إلا تقديرا متواضعا شيئا ما ، ويضيف إلى ذلك أنه إذا فكرنا مليا في إمكان قيام الأمة المصرية حكومة وشعبا متكاتفين للتنفيذ ، لا استطعنا أن نقوم بهذا العمل فنخلق مصر جديدة في مدة خمسين سنة من اليوم ، بإنفاق أربعة ملايين جنيه في العام لهذا الغرض وهو

أقل مما ندفعه الآن لتسديد قسط الدين العام .
ويتلو مشروع الأستاذ الوكيل في ضخامة المبلغ ، المشروع
الذي قدمته مصلحة الصحة ونشرته « الأهرام الغراء في ١٩
من سبتمبر ١٩٣٤ ، وقد جاء تنمة للبرنامج الصحي الذي
وضعتة مصلحة الصحة سنة ١٩٢٧ وشمل المشروعات
العامة والخاصة بالوقاية والعلاج ، وبلغت جملة تكاليفه
٤٢ مليون جنيه ، خصص منها الجزء الأكبر لإصلاح حالة
القرى التي عنى بها سعادة الدكتور شاهين باشا عناية كبرى ،
كما يتضح ذلك في قراره المقدم لوزير الداخلية إذ يقول
فيه : « وبما أن الحاجة أصبحت في أشد مساس إلى إصلاح
حالة القرى وتحسين شئونها الصحية ، وكذلك إلى مكافحة
الأمراض المتوطنة بالبلاد ، رأت المصلحة أن يكون لذلك
النصيب الأكبر في برنامج مشروعاتها الصحية للسنين المقبلة ،
وقد أفردت لها مبلغ ٢٢ مليوناً و ٦٠٠ ألف جنيه أي
مبلغ ١٨٦٠٠٠ ر . ج . م في السنة الواحدة ، على أن
يتناول التحسين مساكين ١٠٥ من القرى سنوياً بواقع
١٥ قرية في كل مديرية كل سنتين »
ويتلو ذلك في ضخامة المبلغ ، المشروع الذي قدمته

المؤتمر الطبي في يناير سنة ١٩٣٤ والذي جاء مشابها بعض الشبه لمشروع الدكتور ولیم سلیم حنا ، وفيه قسمت دورة العلاج إلى مراحل ثلاث تستغرق ثلاثين سنة وتتكلف ثلاثين مليون جنيه، أى بواقع مليون جنيه في السنة الواحدة، ففي المرحلة الأولى نعمل على إنهاء الحالة الاقتصادية وتنوير الرأى العام من الوجهة الصحية ثم نقوم بالتمهيدات اللازمة للإنشاءات الأولية كإيجاد موارد للشرب نقية وتعميم الإنارة ودورات المياه .

وإتمام هذه الوسائل يؤهلنا لتتقدم للرحلة الثانية، وفيها يكون قد رفع مستوى الحالة الصحية والمادية في القرى فلا يرضى الفلاح بقريته القديمة، وعندئذ تقوم الحكومة بتعيين المناطق المجاورة لانتقال القرى الحالية إليها بعد ضم القرى المجاورة في صعيد واحد، ويستعيز أصحاب هذه الأرض بأرض القرى القديمة دون شراء أرض جديدة ، وفي الوقت نفسه نقوم بالأبحاث الهندسية في اختيار المواقع وتنسيق القرى .

بعد هذا نتقدم إلى المرحلة الثالثة والعملية وفيها تقوم الحكومة بتوزيع المساحات على القادرين على الانتقال

للقرى الجديدة مع اشتراط البناء بطريقة صحية خاصة ،
وتستطيع الحكومة في هذه المرحلة أن تبدأ في إعانة فقراء
الفلاحين في بناء مساكنهم ، من المال المجتمع لها من مبلغ
مليون الجنيه سنوياً على أن تعمل ١٥٠ مسكناً في مبتدأ
الأمر ونحو ٥٠ كل سنة .

وما كنت أحسب يوماً أن أولى الأمر يرضون على
الفلاح بمبلغ مليون جنيه كل عام ، لاسيما وأنى أعتقد أن
ذلك في مقدورهم حتى في سنى الأزمة الحالية هذه . . . ففي
العام الماضى مثلاً ، كانت زيادة الإيرادات على المصروفات
مليونى جنيه ضماً إلى الاحتياطى وكان في إمكانهم تخصيص
مبلغ مليون منها للفلاح . كما كانت الزيادة هذا العام
أربعة ملايين جنيه ضمت أيضاً إلى الاحتياطى العام ، وكان
من السهل المستطاع إسعاف الفلاح بمليون منها لتحسين
حالته الصحية . وهذه ظاهرة إن دلت على شيء فهى لا تدل
على العجز في الاقتصاد والتوفير — ولكن أخاف أن
تكون برهاناً يسجل علينا عدم التقدير « تقدير حالة ذلك
الفلاح المعوز الفقير » وإلا فما كان أجدر هذا المشروع

بآلاف الجنيهات التي تصرف بسخاء في تزيين المدن
وتجميل الشوارع ، أو الملايين تهدر في إتمام مشروعات
في هذا القطر أو في خارجه ويعلم الله مبلغ نفعها لهذا البلد
المنكود ..

أما ماتم من مشروع إصلاح القرى فهو ما قامت به
مصر حكومة وشعبا وتكاثفت على بكرة أبيها مع مختلف
أحزابها لإنشاء قرية واحدة هي محلة زياد ، التي نكبتها
النيران . فجمعوا الأموال من أكف المحسنين وسلموها
إلى الحكومة التي اعتمدت مبلغا آخر للتنفيذ فحمدنا للأمة
هذا المجهود الصغير وظللنا نرقب إنشاء هذه القرية شهراً
بعد شهر وعاما بعد عام ، حتى فوجئنا من بضعة أيام بقرار
رسمي جاء فيه « ترى اللجنة العدول عن فكرة إنشاء القرية
النموذجية بجانب محلة زياد المحترقة والاكتفاء بفتح
شارعين متقاطعين في القرية الحالية . . »

وهكذا سجلت الأمة على نفسها العجز ، ليس في
إنشاء آلاف القرى الصحية المنشودة بل حتى في تجديد
قرية صغيرة محترقة منكودة !

وفي مقال قادم قريب سأذكر لك يا سميدتي « ابنة
الشاطئ » بياناً تفصيلياً عن مبلغ تقديرنا لإصلاح
قرانا ، مقارنة به تقدير أمم العالم المختلفة الغربية منها
والشرقية .

دكتور أبولس بولس



القبور المهجورة الكئيبة

لم تترك الأنسة الكريمة في الواقع قولاً لريفي ابن ريفي
 مثلي وهي الريفية الصميمة من جهة الأب فقط . والظروف
 الحاضرة كذلك غير مستعدة فيما يظهر لاستساغة الحديث
 عن الريف ، أو على الأقل - عما في قبور الأحياء المجاهدين ،
 أو على أقل من الأقل - الحديث عن القبور المهجورة
 الكئيبة ! وإنما هي تستسيغ وتشجع أيضاً الحديث عن
 الحرب والسلام ، وعن الدستور والحرية ، وعن الصداقة
 والعداء ولكن .. هنا نقف : من يدخل الحرب إذا كان هناك
 حرب ، ومن يصطلي بنارها وتتناثر أشلاؤه تحت قنابلها ؟
 من ينتظر الفرج من فوهة المدفع ؟ ! من يمد يده للصداقة
 والولاء ، أو يرجعها إعلاناً بالعداء ، من يطالب بالدستور
 ويهفو إلى الحرية ، أفى الأمة غير الفلاح ، والفلاح الغالب
 بعدده ومجده ؟ ؟

لا أحد غير الفلاح المصري ، ولا صوت غير صوته

إنه كما يعبرون — الكل في الكل ، وهو الجدد الدؤوب
والنبيل الصموت ، والروح القوية العليا . هو الفلاح لا أقل
ولاً أكثر وإذا فيجب أن نستسيغ ، دائماً ، الحديث عن
الفلاح أو بالحرى عن قبوره المهجورة الكئيبة .

أعرف وتعرف معنى أن الأرض ، سواء المستغلة منها
أو البور تطلب حارثاً ؟ فلم يهجرها الفلاح إذن ؟ ؟

هو جاهل وهو قنوع ، ولكن ليس إلى هذا الحد من
الرضوخ للجور والاستنامة إلى الموت البطيء الفظيع .

هو جائع منهوك ومحطم ومهدم ، ولكنه أخيراً بدأ
ينزح إلى المدن وبدأ ينفذ إلى الوجود أحياء تنهات بدورها
على النزوح إلى حيث العزة — ولو مع الجوع .

هو إذن مستضعف مظلوم فهل آن أن نرحمه وننصفه
ونشعره بمتعة الحياة ونعيم الوجود ؟

ابراهيم عبد اللطيف

صوت فلاح !

سيدتى الأنسة ابنة الشاطىء .

طالعت فى الأهرام الغراء كثيراً من مقالات الكتاب
فى الريف المصرى ، ويؤسفنى أن أقول إن كثيراً منها لم
يصدر عن عاطفة حققة نحو الفلاح المسكين . ولم تكن كلها
فى الصميم وجلها كتب ذراً للرماد حتى يتوهم الفلاح أن
أسياده ينادون بإصلاح حاله . وما ذلك إلا من قبيل تخدير
الأعصاب .

وكنت أحسب أن كتابات (ابنة الشاطىء) من هذا
النوع حتى دفعنى فلاح مثلى إلى أن أقرأ مقالك (موسولينى
الفلاح) المنشور فى أهرام ٤ من أغسطس سنة ١٩٣٥ فما
قرأت المقطع الأول منه حتى التهمت باقيه بسرعة البرق .
وراقنى كثيراً وأثلج صدرى قولك :

« ظل الفلاح المصرى قروناً عدة يرسف فى أغلال
البؤس والعوز والشقاء (والظلم) وكانت تتصاعد بين حين

وآخر صرخات بعض الأفراد تهيب بالحكومة أن تيسر
للفلاح الشقي المجاهد حياة ممكنة . وهذه الصرخات تحدث
صدى خافتاً لا يلبث أن يتلاشى »

الفلاح الصغير في حاجة ملحة إلى حمايته من اضطهاد
حضرات العمد ومشايخ وأعيان البلاد .

فدافعوا أجور الخفر هم الفلاحون الفقراء ، وخفراء
النيل أو بعبارة أصح (حراس مساكن وأطيان حضرات
الأعيان من طغيانه) هم الفلاحون الفقراء . ورجال تنقية دودة
القطن في زراعات العمد والأعيان والباشوات ، هم الفلاحون
الفقراء . وواضعو فوانيس الإنارة أمام منازلهم في القرى
هم الفلاحون الذين لا يتمكنون من إنارة داخل مساكنهم .
بله قيامهم بمطالب معيشتهم .

وبعد وقبل فالفلاح في حاجة إلى قانون يحميه فهل
بذلك يأسد قى تنادين وبهذا الخصوص تكسبتين ؟
إننا لما عمليناه لمنتظرون والله لا يضيع أجر المحسنين
ويكفي يأسد قى أن تعرفى أنى أنا ...

الفلاح المسكين

من الريف المصرى

إلى الأنسة الفضلى ابنة الشاطىء

روح من الخلد قد جاءتك بالنور
يا (ريف مصر) فأودت كل ديجور
فاضت عليك بآيات محبة
(بنت الشواطىء) من نظم ومشور
وحى من السحر (بالأهرام) يبعثه
قرآن صدق له شوقى وتفكيرى
أبدت من الألم المدفون علقته
(مثل الأشعة) لا مثل العقاقير
إن الطبيب الذى تحيا النفوس به
من يكشف الداء فى سهل وميسور
من يخلع الداء من أقصى أرومته
ويبعث البشر بين الناس كالنور

نشرت فى الأهرام فى ١٢ من نوفمبر سنة ١٩٣٥

عطر من الشكر تسديه أزاهره
نحو التي أحسنت في خير تعبیر
والبر بالوطن المحبوب مفخرة
تبقى على الدهر رغم الظلم والجور
فاقوس العبد روسی العباسی



لبنصر الامر أولو الامر

ذكرت الآنسة ابنة الشاطيء في مقال سابق ، حديثا مع
فلاحها المريض بإحدى القرى المجاورة لبلدة بنها ، وطلبت
منه أن يسرع إلى الطبيب لمعالجة ما ألم بعينه الرمد اويتين .
أنحت عليه باللائمة لإهماله في معالجة نفسه ، لا سيما
والمستشفيات الرمدية وغيرها منتشرة في أنحاء القطر ترحب
بالعلاج المجاني للجميع . . فكان رد هذا الفلاح المريض ،
« إنه لا يوجد طبيب في القرية وإذا وجد فلا طاقة لي
بأجره وثمان ما يصف لي من دواء . . أما المستشفيات فلن
أستطيع أن أترك عملي وأرحل إلى بنها وهي على مسير
ساعتين من القرية ، ولئن أترك أطفالي وزوجي وأين
أعيش في بنها وأنى لي ثمن طعامي وأجر مسكني . . الخ »
وخرجت الآنسة من هذا الحديث بأن وجهت نظر
مصلحة الصحة إلى تعميم العلاج في القرى بعد أن أنشأت

نشرت في الأهرام في ٢٨ من أغسطس سنة ١٩٣٥

الكثير من المستشفيات في المدن حتى لتكاد تصيها التخمّة .
وتعميم العلاج للفلاح أو العامل ، مشروع قديم له
تاريخ حافل في أوربا ومصر . أما في أوربا فيرجع عهده
إلى سنة ١٣٨٣ عندما سنت ألمانيا قانوناً يضمن للعامل
المعالجة المجانية ، بل ويتقاضى مرتباً يومياً أثناء المرض
— وقد أصدرت النمسا قانونها سنة ١٨٨٨ ، وتبعتها المجر
في سنة ١٨٩١ — وفي سنة ١٧٩٣ صدر قانون مماثل في
فرنسا .

وهذا القانون ينص على العناية « بجميع الفقراء المعدمين
الذين لا مورد لهم »
وفي سنة ١٩١١ صدر في إنجلترا قانون التأمين الأهل
الصحي .

وهو يطبق على الأشخاص بين سن ١٦ ، ٦٥ الذين
يقل دخلهم السنوى عن ٢٥٠ جنيه — ويتعاون في تدبير
المال اللازم لهم ، العامل وصاحب العمل والحكومة ، وقد
كان دخل هذا المشروع في سنة ١٩٢٦ مبلغ ٣٧ مليون
جنيه — وفي سنة ١٩١٢ صدر في إنجلترا الأمر المنظم

لمعاهد قانون الفقراء المعدمين ، ويقوم على تنفيذه لجنة « الأمناء » ومن أعمال هذه اللجنة أنها تقوم بفحص وعلاج الفقراء المعدمين في منازلهم ، وتصرف لهم الأدوية مجاناً ، وتبحث عن عمل للقادرين منهم وتدفع الفقراء من الموتى وبلغ مقدار ما صرفته هذه اللجنة من الإعانات سنة ١٩٢٧ مبلغ ٤٩٥٠٠ ر ٥٠٠ جنية

عدا ذلك توجد في إنجلترا « الجمعيات المعتمدة » التي اعترفت بها الحكومة بموجب قانون يرجع تاريخه إلى سنة ١٧٩٢ وغرض هذه الجمعيات هو تدبير العلاج لأعضائها ولعائلاتها . وقد بلغ عدد هذه الجمعيات في إنجلترا ألف جمعية تقريبا تحت مباشرة وزارة الصحة . أما في مصر فيرجع تاريخ الاهتمام بتعميم العلاج في القرى إلى سنة ١٩٢١ عند ما اجتمعت الجمعية الطبية المصرية ، وقام حضرة الدكتور سامى كمال مطالبا بوضع قانون الإسعاف الطبي المجانى الإيجابى بالقطر المصرى . وقد تألفت لجنة بالفعل تحت رئاسة الدكتور على باشا ابراهيم ولكنها لم تسعد بوضع هذا القانون .

تلا ذلك مشروع الدكتور محمد عبد الحميد بك المسمى مشروع التعاون الصحى ، والذي حاضر به المجتمعين فى الجمعية الصحية فى مستشفى الملك سنة ١٩٢٧ ، وأساس هذا المشروع هو ما رآه حضرة الدكتور من أن الطبيب فى مصر يسير على نظام غير عادل من حيث توزيع الأطباء لأنحاء القطر ، وكذلك توزيع المرضى على الأطباء ، إذ أن أهل القرى والكفور وهم الأغلبية الساحقة ، مغبونون غنيا فادحا ومظلومون ظلما بينا - ولقد نهج فى مشروعه على النظام المتبع فى شارون بكنساس . فقد أسس أهلها جمعية سموها « جمعية التعاون الصحى » شعارها « لا تبخل على صحتك » ونظام هذه الجمعية أن يقوم الطبيب بعلاج سكان شارون بمرتب سنوى قدره ثلاثة آلاف دولار ، على أن يقدم له السكان محل العيادة ويدفعون له نفقات النور والغاز والتليفون . . . ويقوم الطبيب من جهته بتأثيث العيادة ونفقات سيارته - وقد نجح هذا المشروع منذ سنة ١٩٢٤ إلى الآن - وبعد أن شرح حضرة الدكتور عبد الحميد بك المواد العشرة لقانون هذه الجمعية ، اقترح أن يتبع هذا النظام فى مصر مع بعض التصرف .

وفي سنة ١٩٢٧ درست مصلحة الصحة طويلا هذا الموضوع ، ثم أصدرت برنامج الإصحاح الصحى لمصلحة الصحة والمصدق عليه من المجلس الاستشارى الصحى بجلسته المنعقدة فى ١٦ من أبريل سنة ١٩٢٧ - وقد رأت أن تستغنى عن هذه المشروعات لتعمم بدلا منها المستشفيات المركزية والقروية وتزيد فى الأقسام الأخرى كإعانة الطفل والأمراض الجلدية والزهرية ومستشفيات الأمراض المستوطنة - وقد بدىء فى تنفيذ برنامجها فعلا فى سنة ١٩٢٨ إلى أن قابلتها الأمانة المالية الحالية . فتباطأت بعد أن طفرت طفرة كانت موضع فخرنا وإعجاب الغربين بنا .

ومضت فترة طويلة على مشروع تعميم العلاج بالقرى منذ ذلك التاريخ حتى فبراير سنة ١٩٣٤ ، حين أثار الأستاذ الدكتور خليل بك عجاج البحث بعد درس طويل مرهق ، فبذل فى ذلك مجهوداً مشكوراً محموداً . وللاستاذ خليل بك من طبيعة عمله وتغلغله فى القرى ونتائج أبحاثه الكثيرة ، ما يوجه نظره لسوء الحالة الصحية . . كما أن له من خبرته ونشاطه بإحدى القرى المصرية ، حافزاً قوياً دفعه للتفكير فى إصلاح حالة الفلاح الصحية ، وفى ٢١ من فبراير سنة ١٩٣٤

تقدم الدكتور خليل بك بمشروعه عن الالتزام العلاجي وأساس المشروع أنه يوفر للفلاح الذى يملك أقل من عشرين فداناً أو لا يملك شيئاً ، الفحص والمعالجة له ولأسرته مع بعض إصلاحات أخرى تتلخص فيما يأتى : —

١ — الفحص والعلاج بواسطة طبيب لكل عشرة آلاف نسمة من السكان .

٢ — يصرف الدواء مجاناً .

٣ — يخصص أطباء الصحة فى المراكز كل أوقاتهم للأعمال الصحية .

٤ — تعالج المستشفيات المرضى الذين يحولون عليها من أطباء مشروع الالتزام فقط .

٥ — يقوم أطباء الالتزام بالتبليغ عن الأمراض الوبائية .

٦ — يحرر أطباء الالتزام شهادة الوفاة بعد معالجة المريض .

وخوفاً من إرهاب الطبيب بلا داع ، رأى حضرة الدكتور أن يدفع كل مريض خمسة مليات رسوماً وهذا المبلغ الزهيد يكون له من الإيراد مبلغ ٥٠٠ ر ١٧٢ جنيه فى العام باعتبار ثلاث زيارات لكل مريض ، ويعطى للطبيب

ثلاثة قروش صاغ عن كل شخص في منطقته سواء مرض أو لم يمرض ، فيكون متوسط دخل الطبيب ٣٠٠ جنيه في السنة أى ٢٥ جنيه شهرياً — أما عدد السكان الذين يستفيدون من هذا المشروع فهو ٠٠٠ ر ٥٠٠ ر ١١ نسمة وعدد ما يلزم للمشروع من الأطباء هو ١١٥ طبيباً وجعل ما يتطلبه المشرع من مصروفات للأطباء والمفتشين وكتابة فى الإدارة المركزية والدواء وتجهيزه والعيادات وخلافه ، ٥٢٠ ر ٠٠٠ جنيه يحفض منها إيراد رسوم خمسة المليمات وهو ١٧٢ ر ٥٠٠ جنيه ، فيكون جملة المطلوب للمشروع هو ٣٤٧ ر ٥٠٠ جنيه .

وقد اقترح حضرة الدكتور عدة اقتراحات لتدير هذا المبلغ اللازم للمشروع ، منها أن تجبى رسوم إضافية قدرها ٤ ٪ من المال المربوط - فالفلاح الذى لا يملك شيئاً سيغتبط لها لأنه سيعالج مجاناً - ومالك الخمسة أفدنة سينال علاجه هو وأولاده وهذا بلا شك مبلغ تافه زهيد ، ومالك العشرين فداناً فأكثر سيدفع هذه الرسوم الإضافية لفائدة عماله وأهاليهم فيزيد إنتاجهم فى أرضه مما يعوض عليه أضعاف ما دفع — على أن عدد هؤلاء الملاك ليس بالكثير فهو

٣٤٢٠٥ نسمة من سكان القطر كله . وهناك اقترح آخر هو أن يزيد عدد الأشخاص في مركز العلاج لكل طبيب فيصبح ١٥٠٠ ر. نسمة بدلا من عشرة آلاف نسمة ، ويدفع المريض قرشين بدلا من خمسة مليمات ، وبهذا تخفض المصروفات إلى ٥ ٪ . تتحمل مجالس المديریات ٣ ٪ منها وتتحمل مصلحة الصحة ٢ ٪ . وذلك نظير الوفر المنتظر في اعتماداتها المالية كنقص كمية الدواء الذي يصرف في المستشفيات والاستغناء عن أكثر أطباء الأوبئة - وبهذا النظام لا يحتاج الأمر لتقدير ضريبة خاصة لهذا المشروع . وقد وضع حضرة الدكتور خليل بك هذا المشروع للنقاش ، فكان له معضدون ومعارضون ، أما المزايا التي ذكرها المعضدون فجملمها أن هذا المشروع من الوجهة الصحية مشروع علاجي يقضى على سلطان الحلاق الذي دفعه كلوت بك منذ مائة عام ليهيء الطريق لعصر الطبيب - ومن الناحية الاقتصادية يدبر عملا لألف ومائتي طبيب - ومن الوجهة الوقائية تحسين في الطرق التي تكتشف بها الأوبئة الآن - ومن الناحية العلمية يعطينا إحصائية موثوقة بهام من الوجهة الطبية ، فتقل الحالات الجناية التي لا تكتشف

وكذلك الدفن السرى - ففي تدوين شهادة الوفاة بوساطة الطبيب مايرفعنا إلى مستوى البلاد الأوربية التي يمنع فيها إعطاء تصريح بالدفن ، بدون شهادة وفاة من طبيب معالج باشر علاج المتوفى لمدة ثلاثة أيام على الأقل ، قبل تاريخ وفاته ، وإلا فإنه يمتنع عن تحرير شهادة الوفاة وتتولى النيابة العامة نفسها الحالة والتحقيق فيها .

أما المعارضون فقسمان : قسم يحيز تخصيص هذه المصروفات إذا وجدت لإتمام مشروع البرنامج الصحى لإنشاء المستشفيات وحجته فى ذلك أنه بينما يوجد لسكان لندن وعددهم ثمانية ملايين نسمة ، ١٤٤٧٠ سريراً أى بنسبة اثنين لكل ألف من السكان - وفى الولايات المتحدة مليون وأربعة عشر ألف سرير أى بنسبة ٨ فى الألف ، فإن الموجود فى مصر مع كثرة أمراضها المتوطنة وغيرها ، لا تتعدى نسبته سرير الكل ٤٨٠٠ نسمة من السكان - ولهذا يرى هذا الفريق أنه يجب أن يزداد عدد الأسرة لتصبح النسبة سرير الكل ألف من السكان على الأقل .

ولإتمام هذه الغاية يجب أن ينشأ ٢٠٠ مستشفى مركزى جديد على أن يكون عدد الأسرة ٤٥ سريراً

فى كل مستشفى ، وتعمم المستشفيات القروية ليصبح لكل ثلاثين ألفا من السكان مستشفى قروى .

أما الفريق الثانى فرأى أن الوقاية خير من العلاج ، وأن أساس تحسين حالة الفلاح هو ولا شك العناية بتحسين القرى وحسن تخطيطها ، وبناء المنازل الصحية ، وتحسين غذاء الفلاح وملبسه وتوفير المياه النقية وما أشبه . وأعطى أحدهم لذلك مثلاً فى قوله . ما قيمة الفائدة التى تعود على الفلاح المصاب بالنزلات الشعبية أو التهاب الرئة من إعطائه جرعة المزيج المنفس عندما يعود ليعتكف فى غرفته التى لا ترى لها منفذا للهواء والشمس والملاصقة لحظيرة الحيوانات وما يحيط بها من آلاف الحشرات والجراثيم ؟ ؟

هذا مجمل ماتم بخصوص تعميم العلاج القروى فى مصر . ولست راغباً فى هذا المجال أن أتصر لفريق دون فريق ، فكلها مشروعات نافعة للفلاح . . على أنى أحبذ كثيراً أن نبدأ بالمشروعات الخاصة بالوقاية ، أعنى بإصلاح القرية نفسها وتوفير ماء الشرب فيها وغير ذلك مما جاء مفصلاً فى مقالى السابق — وإلا فإننا إذا غنينا بالعلاج قبل الوقاية فنكون قد وضعنا المركبة قبل الحصان كما يعبر المثل الانجليزى . وبعد فلا أجد ما أختم به هذا المقال أحسن من ذلك

القول المأثور لحضرة صاحب الغزة الدكتور عبد الرحمن بك عمر « من العار أن تكون قرانا بالحالة التي هي عليها الآن، وأن يكون أهلونا في الظروف غير الصحية التي يعانونها. ولا أمل في الإصلاح قبل أن يشعر القرويون بحقوقهم في الحياة وقبل أن يتقى الله أولو الأمر في أهلنا وذوينا »

وليت شعري هل آن لنا بعد هذه المجهودات أن نتساءل متى تستيقظ مصر من نومتها لتقوم قومة واحدة، مطالبة بتقوى الله في أهلنا وذوينا من الفلاحين الذين حملوا هذه الأمة على أكتافهم أكثر من أربعين قرنا من الزمان، وهم يسفكون دماءهم يوما بعد يوم ليهبوا لنا الحياة رخيصة هادئة ويضيئوا لنا بأجسامهم المحترقة البالية طريق السعادة الناعمة الهائلة ؟ ..

وسواء عندي عرف أولو الأمر هذه الحقيقة أو تجاهلوها فإني على يقين مما تقوله الآنسة ابنة الشاطيء : « إنه مهما طال زمن إضاعة هذه الأجسام المحترقة فلا بد أنها واصلت إلى النهاية المحزنة إذا لم تدعها عوامل الحياة — ولنا الله يوم يحترقون ويتركوننا نتخبط في ظلمات المجاعة والشقاء » ؟

الدكتور أبو موسى بولس

في الريف المصري

أُتيح لي التجول في بعض قرى الريف القريية من القاهرة لا لغرض التنزه أو الترويح عن النفس ، بل لأستطلع حال الفلاح المصري على مدى ما كتبتة الأدبية الفاضلة « ابنة الشاطئ » على صفحات الأهرام الغراء ، ووصفت فيه حال هذا الفلاح البائس ، مناشدة أولى الأمر معاوته بقدر المستطاع ، تخفيفاً لما يعاينه من ضيق وعوز ، وما يقاسيه من شقاء وألم !! .

شعرت بالآلم يحز في جوانب نفسي حينما طالعت مقالات الكاتبة الفاضلة ، ولكنني شعرت بأضعاف هذا الآلم حينما شهدت الريف بنفسى ، ولمست الحال فيه عن كسب ، وليس الخبر كالعيان !!

خيمنت على الريف سحابة سوداء حالكة الظلمة ، فأظلمت الدنيا في أعين أهله من جراء ما يقاسونه في حياتهم من فقر مدقع ، وعوز شديد ، وليت الضنك انتهى عند

هذا الحد ، فقد شاء إلا أن يقضى على الفلاح قضاء عاجلاً
سريعاً ، فرماه تحت عبء ثقل من الديون وفوائد الديون
التي اضطر إلى استدانها ليدفع الضرائب ، والضرائب في
الريف سيف مسلط على الرقاب ، فأصبح الفلاح بعد أن
باع أرضه ومواشيه مدين يزداد يوماً بعد يوم ، وهو
بجانب ذلك لا يجد ما يسد حاجته هو وأطفاله العساء ،
الذين يشاركونه نصيبه طيلة اليوم في أشق الأعمال ، وتكاد
الشمس تذيب لحمهم وعظامهم ، يعيشون عيشة ضنك
ويذوقون الشقاء ألواناً !! .

فأية حياة هذه ؟ ! . . .

نحن هنا في المدن نلهو ونمرح والفلاح يئن ويتوجع .
نحن في المدن نحيا حياة البذخ والإسراف ونعيش من
عرق الفلاح ، نأكل أطيب الأنواع ونشرب القراح ،
والفلاح في الريف لا يجد ما يسد به جوعه . نحن في
المدن نحيا حياة صحية تتمتع بالهواء والشمس والفلاح في
الريف تفتك به الأمراض والحميات ! ! ! ! .

عيسى منولى

الى ابيته الساطي

لا يسع فلاحا مثلي يطيعه القلم قليلا إلا أن يشكر من
صميم قلب القرية فيها نحن هؤلاء كما تعلمين صائرون إلى الفاقة
بل أصبحنا فعلا في مجاعة شاملة ، نرى آثارها في تلك
الأجساد الهزيلة ، والقوى المهدامة التي تعمل الآن في القرية
والتي يمنعها من الزوح للبدنية ، ما بقي في النفس من عزة
وحياء سوف لا يلبث أن يزولا تحت ضغط هذا الفقر
اللعين .

الحقيقة يا آنسة أن الأرض هي هي ، ولكن الذي
أشقنا هو أن نفقتها أصبحت أكثر من دخلها ، حتى
أسمينا لاستفيد منها شيئا فجعلنا وعجزنا عن الخدمة الصادقة
فكثرت الآفات ، وضعفت الأرض ، واشتد الكرب ،
والأمر لله .

وقد عرفنا في أحد مجالس أجران قريتنا المتواضعة ،
عرفنا الداء وصورناه ، فإذابه على حد إدراكنا معقول .

الداء ياقوم هو الغلاء فكل شئ في هذا البلد غال ، ولا سبب في ذلك إلا الضرائب الفاحشة التي فرضت على مختلف الوارد والإنتاج ، فانظروا إلى ثمن البذرة والسماد والتقاوى فإذا بها لا تتناسب مع غلة الأرض ، ثم انظروا إلى حاجات الفلاح نفسه ، فالمنسوجات والبقول بأنواعها غالية ولا سبب لذلك إلا الضرائب التي أضافها التاجر بدوره على الأثمان ، فأصبحنا أمام الحقيقة والمعنى الصحيح ، وهى أن تلك الضرائب فرضت على الفلاح .

قد تأثرت كل الميزانيات كبيرة وصغيرة خلال الأزمنة الطاحنة إلا ميزانية الحكومة فهى تحمد الله على هذا التوازن الذى جاء عن طريق الضرائب ، على الجمارك ، على الإنتاج ، على كل الموارد ، حتى صيرتنا فى ما نحن فيه من بؤس وشقاء .

فإذا لم تفكر الحكومة فى تخفيف هذا العبء الثقيل واستمرت على هذه الفروض لتسد المطالب المختلفة ، تلك المطالب التى لا تحفى على كل وطنى غيور ، فعلى الدنيا السلام .

(ابن القريظة)

صورة ريفية

إلى الآنسة الفضلى ابنة الشاطيء

لم أنس تلك الساعات التي قرأت فيها مقالاتك الحزينة
عن الريف الجميل المغبون ، تلك المقالات التي أثارت في
نفسى ذكريات دفينه ما زالت تتجدد كلما خلوت بنفسى
وجمعت أشتات حسى .

منذ أعوام ثلاثة ، كنت قد خرجت من أحد الامتحانات
العامة مكدودا متعبا . فزين لى أحد الأصدقاء أن أسافر إلى
الريف ، حيث هواء الحقول المنعش البهيج يتضوع بشذا
أزاهير القطن الصفراء التي تحمل إلى مرضى القلوب
والأجسام رسالة الشفاء .. رسالة العزاء والسلاوى .

وكان الوقت ليلا حينما ركبت القطار لأول مرة إلى
الريف المصرى الساحر ، وجاء صديقى يودعنى ، وكان
وداعا حارا مؤثرا فدهشت وقلت له متعجبا :
- مالك تودعنى هكذا وكأننى ذاهب إلى حيث لا رجعه ؟

نشرت فى الأهرام فى ٢ من يوليو سنة ١٩٣٥

فقال - لأننى لن أراك قبل مضى شهرين !

قلت - عجباً .. ومن أنباك بهذا ؟ .

قال - الريف يا صديقى ، الريف .. إنه كريم مضياف .
سوف يحتويك بين ذراعيه ويطوف بك ليريك لونا جديدا
ساذجا من ألوان الحياة ... سوف يسمعك من حفيف
الأوراق الذابلة المتساقطة وغناء الرعيان وبكاء النواير
وأهازيج عذارى القرية أروع موسيقا علوية شجية تذهب
كوامن الآلام والأشجان من النفوس المكدودة الخائرة .
فقلت - حسنا يا صديقى ... هذه بداية طيبة ، إلى
الملتقى .

وتحرك القطار واختفى وهو يلهث فى جوف الليل
البهيم .

وفتحت لأول مرة نافذة حجرتى المطلة على الحقول
المنبسطة كالبساط النضير ، فداعبنى هواء الليل المبكر
وأرسل فى نفسى رقة وحنينا ، وأفاض فى ذهنى أحلاما
غامضة لذيذة هى آمال الشباب الواثق الوثاب .. ورحت
أستشوق نسيم الليل بنهم شديد ، وبين حين وحين أرفع
بصرى إلى القمر الفضى الساطع الذى أخذ يظهر تارة

ويختفي أخرى بين طيات السحاب المتناثر .
وأخذت أنطلع إلى الأفق البعيد فأرى غابات النخيل
الباسقة تتراعى لي عن بعد بأغصانها المدلاة كشعور العذارى
وكأنها أشباح من الجن تتراقص .

وطرق سمعى صوت غناء خيل إلى أن نفسى المضطربة
قد تلاشت تحت تأثير سحره . . . وأن تلك النبرات العذبة
الحنون التي يحملها إلى نسيم الليل ، والتي تنساب في هدوء
وسكون إلى أذنى المرهفة ، قد طغت على روحى فأفتتها ،
وأغلقت النافذة وقد عزمت على الذهاب إلى مصدر الغناء ،
وبادرني صوت أجش مكدود :

- من هناك . . . ؟

فقلت - ضيف .

فأجاب الصوت على الفور وقد أخذته نحوه العروبة :

- يا مرحبا بالضيف يا مرحبا . . . تفضل .

وكان مضيفي شيخا اشتعل الشيب في رأسه ، جالسا إلى
منتصفه في حفرة من الطين ، منحنيا على طنبوره يديره
بسرعة غريبة ليرفع به الماء من النيل إلى الحقول العالية
المنزرعة .

قال - مرحبا .. أمن القاهرة . ؟

قلت - أجل .

قال - أنعم بك وأكرم .

قلت - شكرا .. وأنت ؟

قال - من هنا .

قلت - ألم تر القاهرة ؟

قال - كلا ، ولم أخرج من بلدتي قط !

قلت - كيف ؟ أليس عندك متسع من الوقت لتزورها ؟

وضحك الشيخ الريفى ضحكة جافة . خيل إلى أنها

أشبهه بقهقهة أمواج النيل المتلاطم بجانبه ، ثم قال :

متسع من الوقت .. نحن قوم كتب علينا الشقاء فى

لوح المقادير من ضجعة المهد إلى رقدة اللحد .

قلت - ألهذا الحد . ؟ !

قال - نعم وأكثر من هذا الحد .

قلت - إن من كانت نفسيته هكذا لا يرفع عقيرته

بالغناء ؟

قال - كم ترى من ابتسامات مشرقة تلوح على شفاة

بدية لكن القلوب تزخر بالزفرات والآلام .

قلت - حدثني عن نفسك . . . عن عملك وعن قطنك ؟
قال - أما عن نفسي فكما ترى . . . فقر مدقع وعيش
كفاف وقوت بقدر البلاغ ، أما العمل فهو كفاح دائم
مع قوى الطبيعة فتارة مع الماء والهواء ، وتارة مع الأرض
المغلة . . فالريفى منا يستيقظ قبل أن يبرز النهار ، يستقبل
فأسه مع صياح الديكة ، ويثوب معه إلى بيته وقد جنبحت
الشمس إلى المغيب . . هى حياة متشابهة مملّة ياسيدى تمضى
على نسق واحد مرير .

أما القطن الذى أقام الفلاح بيته وأداره على هذا
الحاصل ، فلم يعد له وواسفاه تلك القوى السحرية . . فنحن
نأكل حبوب الأرض ونرصده وحده لقضاء الدين وأداء
الضريبة وسداد العوز . . فإن بنحست قيمته تزعزع البيت
فألحف الدائن فى الطلب ، وأعنف الصراف فى التحصيل ،
وأسرف البنك فى الحجز ، فزلنا لهم عن قوتنا ورضينا نحن
بالكسرة الجافة والماء الآسن .

قلت - كم أنتم بائسون
فقال بصوت متهدج : أرايت ؟ !

ورأيت عبرة تتألق في ضوء القمر وتنحدر في بطن
مرير على لحية الشيخ البيضاء .

فقلت بصوت حزين - أتبكي يا شيخ . ؟

فاجاب الشيخ بنبرة فيها رنة البكاء .

« أبكى . ! ؟ كلا ، إنما يجب على الرجل الذى يستحق

أن يعيش فى هذه الحياة أن يتعلم كيف يتألم . »

وتنهّد الشيخ بصوت هادىء غريب أشتم منه رائحة
الآلم الدفين .

(عبد الخالق سبر أبو رابطة)



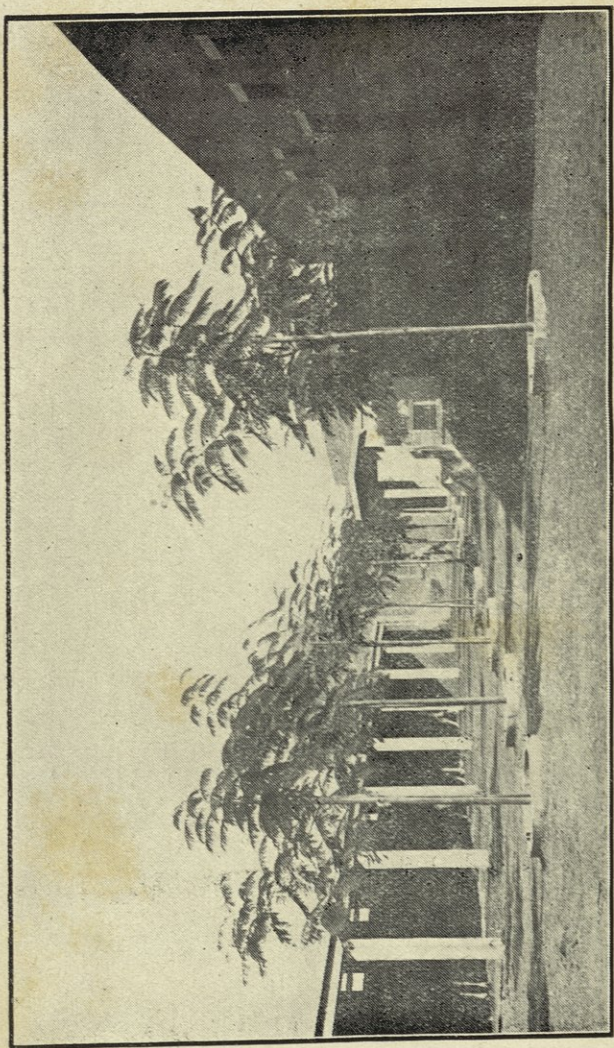
ميزانية الإصلاح وصحة الفلاح

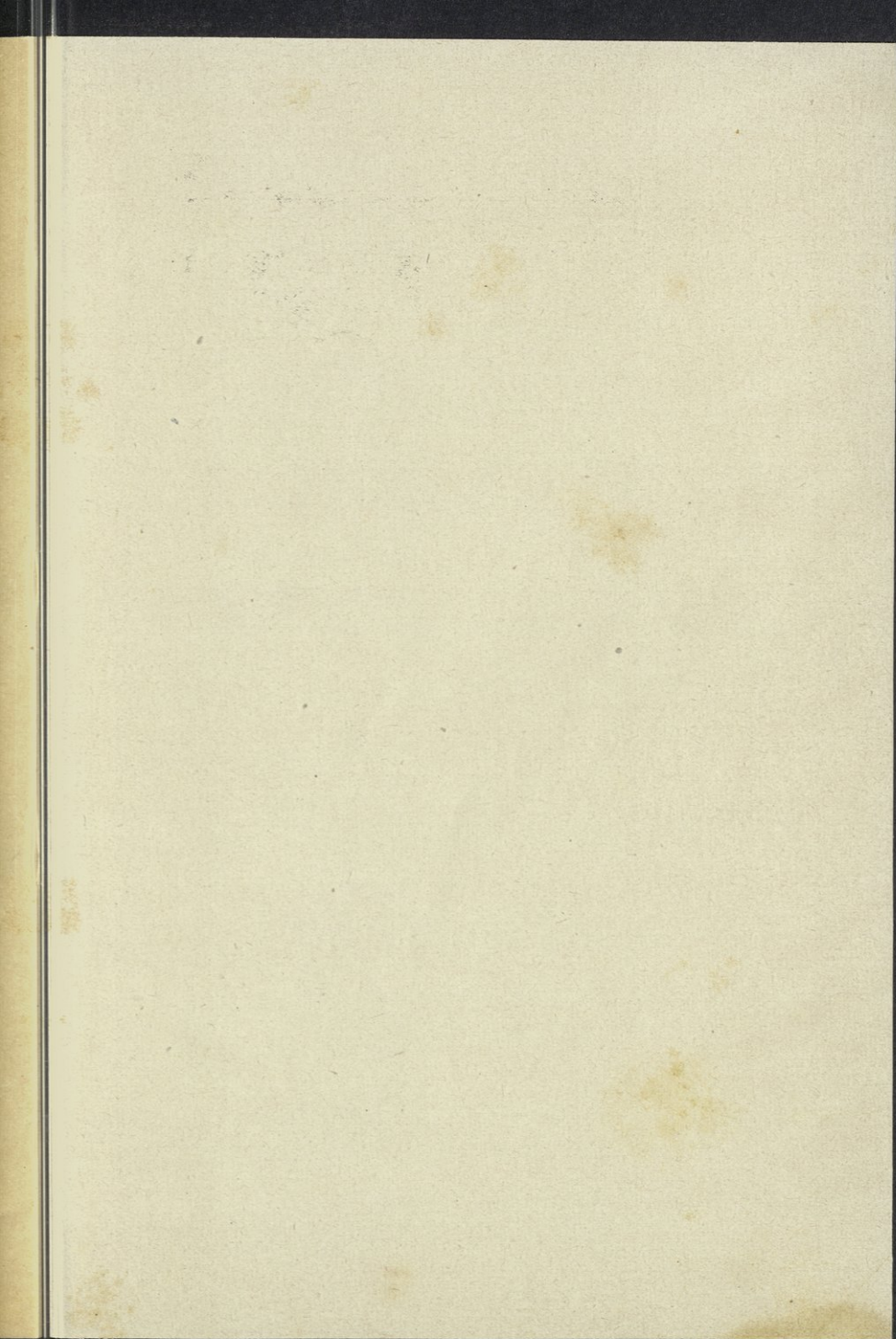
هل آن لنا أن نستيقظ ؟

« هل آن لنا أن نستيقظ ؟ .. من يدري !! »
بهذا انتهت الآنسة « ابنة الشاطئ » من مقال لها .
ولقد أعدت السؤال على نفسى مراراً وتكراراً وجلت
جولة واسعة راجعت فيها مجهودات الماضى القريب ، وما
بذلت فيه هذه الأمة الكريمة حكومة وشعباً لإنهاض حالة
الفلاح الصابر القانع . فما وجدت قياساً أصدق على مبلغ
تقديرنا لإسعاد فلاحنا من ميزانية الإصلاح وما اعتمد
منها خاصاً بصحة الفلاح . وعقيدتى فى ذلك أن هذا المبلغ
الذى اعتمد لإصلاح حالة الفلاح ونسبته إلى المبالغ الطائلة
التي خصصت لمختلف مرافق الدولة ومشروعاتها ، إن هو
إلا الدليل الدقيق على صحة التقدير فى إنهاض مستوى
الفلاح . وهو فى الوقت نفسه جواب واف لسؤال الكثيرين :

نشرت فى الأهرام فى أول أغسطس سنة ١٩٣٥

مظائر صهيونية في مزارع الجمعية الزراعية الملكية





هل آن لنا أن نستيقظ ؟ أم لانزال عن فكرة الإصلاح
بعيدين وفي نومنا فقط غارقين !! .

وجدير بنا ، ونحن في مستهل الحديث عن ميزانية
الإصلاح وما يتعلق منها بصحة الفلاح ، أن نعطي لكل ذي
حق حقه وأن لانغمط لرجل المالية حقوقه التي يستحقها
عن جدارة وإخلاص . هاهو ذا واقف يلقي كلمة لرجال المال
والأعمال من الإسكندريين في صراحة واضحة مأوها
الشجاعة وعنوانها الوفاء « أن دونكم أيها السادة ظلم الفلاح
فلقد أجمعت مختلف الطبقات من أصحاب البنوك والتجار
إلى السامسة وشركاء الكبس ووكلاء الشحن وبقية من لهم
الشأن في تداول القطن في مختلف مراحلها ، على إرهاب هذا
الفلاح البائس المسكين ، ولا أدل على ذلك من أن معظم
المصروفات بقيت على حالها بينما تدهور سعر القطن إلى
٥٠ ٪ أو أقل .. بل أسوأ من ذلك ، إن بعض التجار قد
وصل بهم الجشع إلى أن يجعلوا فوائد التأخير ٩ ٪ فضلا
عن الفوائد العادية ، وهكذا اتخذوا من إرهاب الفلاح موردا
للربح بعد أن عجزوا في الحصول عليه من الترف بين أسعار
الشراء والبيع . » وهناك لسعادة الوزير صرخة مخلصه

محمودة جاءت مدللة مبرهنة على مبلغ إخلاصه للبلد عامة
والفلاح خاصة . قال :

«إن من مصلحة كل مقيم في هذه البلاد أن يكون الفلاح
بعيدا عن أحضان اليأس ، وأن لا تبدو عليه علام السخط ،
إذ أن جهود الفلاح هي وحدها مصدر الخير والبركة
للكثير من وطنيين ، وأجانب ، فمن حقه إذن أن ننحى
العطف وأن نهبه العناية الكفيلة برفاهيته ورخائه »

ولعمري إن رجلا كسعادة وزير المالية هذا شعاره
وهذا شعوره ، بل هذه مجهوداته في سبيل رقي الفلاح لجدير
بأن يلقي منا كل تبجيل وتقدير .

غير أنني لو راعيت الصراحة في التعبير ، لقلت إن نشوة
الطرب التي علتي عندما علمت بهذه المجهوات لم تدم طويلا ،
إذ سرعان ما خلفها الكثير من روح اليأس والقنوط عند
ما اطلعت على القرار الخاص بذاكرة مصلحة الصحة التي
قدمتها للاعتماد في ميزانية الإصلاح للسنوات الخمس ، إذ
جاء هذا القرار معولا هادما لصرح الآمال التي أملناها في
سبيل رقي الفلاح منذ أن تبوأ هذا البحث المقام الأول في
الصحف والجمعيات والمؤتمرات ، ورعنا به الكثير من المقالات

والنداءات . وإليكم نص هذا القرار حرفيا : « بحثت اللجنة طويلا في برنامج مصلحة الصحة وتبلغ تكاليفه ٢٦ مليون جنيه وانتهت إلى القول بأن أهم ما تضمنه هو توفير المياه الصالحة للشرب وتحسين حالة المساكن بالقرى ، وذكرت أن لمشروع المياه المقام الأول ، وتقتصر تكاليفه على مليونين من الجنيهات وقد اقترحت اللجنة البدء في تنفيذ هذا المشروع على أن ينفذ شطر منه مع برنامج الخمس السنين والشطر الآخر في السنوات التالية . »

كان هذا قرار اللجنة المعسول ، ورغم بلاغته الظاهرة وبيانه الرائع فقد سجلت فيه هذه الحقائق المريرة . . أما أولها فإن اللجنة لم يعنها حالة الفلاح ، فكتمت عليه بالبقاء على ما هو عليه في زرائب هـى أشبه بالكهوف أو بالقبور ، يعيش فى مستوى حيوانى بين أكداس القاذورات وروث البهائم والقمامات ، وفى وسط قرئته الحالية وكل ما فيها باعث على ضعفه وسقمه بل موته وهلاكه ، لولا مسكة فيه من الايمان والصبر وبقية من الجلد والثبات . . أما ثانيها فإنها وجهت نظرها إلى مشروع المياه فوجدت أنه يتكلف مليونين من الجنيهات وكأني بها وقد هالها ضخامة

هذا المبلغ أيضاً يصرف للفلاح في خلال خمس سنوات ،
رأت أن ينفذ شطر منه في برنامج الخمس سنين ، والشرط
الآخر في السنوات التالية ، أما مبلغ هذا الشرط الأول فقد
ترك دون تحديد حتى طلعت علينا المذكرة التفصيلية
للمصروفات فكان جملة ما خص وزارة الصحة في
الخمس سنوات هو ٨٠٨٠٠٠ جنيه من جملة المطلوب
وهو ٢٦ مليون جنيه »

وتغنيك النظرة الواحدة إلى نسبة العديدين عن التعليق
على مبلغ تقدير هذه اللجنة إلى ضرورة تحسين حالة
الفلاح المكدود المرهق ، الذي تعلم أنه يموت جوعاً
ليسعد أمته ، والذي يبذل كل ما أوتيته من نشاط وقوة وهمة
ليفيض بخيره وفضله على أفراد هذه الأمة ، ويشقى بين
المحراث والفأس فيحطمه المحراث ويفنيه الفأس ، وتقوم
على عظامه النخرة وجسده الهزيل ثروة هذا القطر فتسعد
به نحن ناكري الجميل ، نعم فأى مظهر لنكران الجيل أشد من
أن نأخذ منه ماله لنضع بين يديه بضعة آلاف من الجنيهات
لإصلاح قرى القطر المصرى كله ، بينما تتمتع مصلحة
التنظيم بالقاهرة وحدها بأكثر من المليون من الجنيهات !!

وينال الري وحده ٢٠٠٠ ر ٢٦١ ر ٢٠ من الجنيهات ،
فإذا ما قيل لى إن فى تحسين حالة الري إصلاح الأراضي
البور وتوسيعا لرزق الفلاح ، أجبنا على ذلك أن
الضرورة تحتم إصلاح صحة هذا العامل مع إصلاح
الأرض ، ودليل على ذلك ما رآه بعض الاقتصاديين من أن
السكان الذين يشتغلون بالزراعة يقفون على شفا الخطر
إذا عاش ثمانمائة منهم فى ميل مربع . أما فى مصر فقد بلغ
عدد الذين يشتغلون فوق الميل المربع الواحد ، ١٠٤٥ نسمة
حسب تعداد سنة ١٩٢٧ ، وهو الآن أكثر من ذلك . غير
أن هذا الخطر لم تدرك بعد حقيقته ولا ينتظر أن تزول نكبته
مادامت صحة الفلاح كما هى عليه ترزح تحت عبء
الأمراض والأسقام فتذهب بالكثير من قوته بل وتودى
بحياته وحياة أفراد عائلته . .

إذن فكل خطوة تخطى فى سبيل تقدم حالة الفلاح ،
لا بد وأن تتناسب وحالته الصحية ، وهذه النظرية تنطبق
على كل نواحي التقدم حتى فى نهضة التعليم ، وإليك رأى
سعادة وزير المعارف فقد قال : « إن نهضة التعليم لا تكون
مجدية إلا إذا صحبها إصلاح اجتماعى وخاصة فى الشؤون

الصحية ، فقد ظهر من التقارير الطبية عن الفلاحين
وأبنائهم أن الأمراض تنهك قوى أجسامهم وعقولهم
فتؤخر نموهم وتقلل من ذكائهم . »

ولقد عرفت هذه الحقيقة أمم العالم فوضعت نصب
عينها راحة الفلاح أو العامل البسيط وإنهاض حالته الصحية
كأساس أولى من أعمال حكومتهم . فاية أمة تريدون أن
أقدم لكم مثلاً ؟؟ انجلترا وقد صرفت أربعائة مليون جنيه
في عشر سنوات لتحسين مساكن الطبقة العاملة في المدن
والقرى وهم مع ذلك غير قانعين بهذا القدر ، فقد ألقى
السيد هلتوبونج وزير الصحة في ٢٦ من نوفمبر الماضي خطبة
خطيرة طالب فيها الحكومة والشعب بالإكثار من المباني
للفقراء ؟ .

أم فرنسا التي صرفت نيفاً ومليارين ومليونين من
الفرنكات في خلال ثلاث سنوات للغرض نفسه ؟ . أم
ألمانيا التي شيدت حكومتها ملايين المنازل لفقرائها وعمالها
وفلاحها . . وما أن قدم شهر مايو المنصرم حتى هرع
وزراؤها وكبار الرجال فيها وعلى رأسهم المهر هتلمر على متن
طياراتهم يجوبون مختلف القرى ليقفوا بأنفسهم على سعادة

أهلها ويشاركوهم في عيد الفلاحة، حتى إذا ما وصلوا إلى بلدة
جسلار، وهى قاعدة الفلاحين الألمان، تقدم بعض من
فلاحهم وأهدى للزعيم صندوقاً جميلاً من الفضة المأخوذة
من جبل رامليبير يحتوى على وثيقة انتخابه فلاحاً وطنياً
في بلدتهم. وإليك رد الزعيم الدال على مبلغ تقديره الفلاح،
«إني أشكركم الشكر كله على هذا الشرف الذى أوليتمونى
إياه وأؤكد لكم فى اغتباط كلى أن أحسن لقب يمكننى
حمله هو لقب فلاح ألماني». - قارنوا هذا التقدير للفلاح
بتقديرنا له، ونحن إذا ما أردنا أن نصف أحداً من الناس
بكل نقيصة موجهة قلنا له فى هزء وسخرية «أما إنك
فلاح!!»

بل مالى أقسو على هذه الأمم الغربية فاقارنها بأمتنا!
لنتركها فالبون بيننا شاسع والفارق أعظم من أن يقارن،
دعونا نيمم نظرننا نحو أمم الشرق فترى تركيا التى أمدت كل
فلاح يهدم بيته القديم بمال يبنى به بيته الجديد، وقسطت
السلفة التى قدمتها له على مدة طويلة تسمح له بسدادها
من غير فائدة، وأنشأت فى كل قرية، البيت النموذجى الذى
يجب أن يقوم البيت الجديد على مثاله.

وهاهي ذى العراق وقد جاء في أنبائها أن دور الفقراء
التي قررت أمانة العاصمة تشييدها لسكنى الفقراء ، على وشك
الانتهاء ، ولهذا أوعزت إلى مأمورى الأقسام بتسجيل
الأسر الفقيرة ، وتقديم قائمة بها إلى أمانة العاصمة .
بل انظروا إلى الصين وتعجبوا ، ها قد قام زعماءها
المحكىون فوازوا بين جميع وجوه التقدم فى نواحي الحياة
القروية ، فحللوا مشا كل الريف إلى الجهل ، وقد تولاه
المستثيرون ؛ والضعف الجسماني ، وقد تولاه الفسيولوجيون ؛
والجشع ، وقد تولاه الأخلاقيون ؛ والفقر وقد تولاه
الاقتصاديون ؛ ثم قاموا متكاتفين فبدلوا الكثير من
مجهوداتهم وأموالهم لإنهاض حالة قراهم ، وإن ما يبدونه
من الشجاعة فى هذا السبيل لجدير بالتأييد وداع إلى الإعجاب .
ولو أننا منذ قيام نهضتنا خصصنا نشاطنا لإصلاح قرانا
لأننا الدليل للعالم كله على أننا أمة تعنى بإصلاح نفسها بنفسها ،
ولجاءنا بعد ذلك الاستقلال طائعا مختارا ، ولما كان هذا
الاستقلال وطيدا متينا ثابتا لا ترزعه العواصف ولا
تعبث به الرياح .

(دكتور أبوالس بولس)

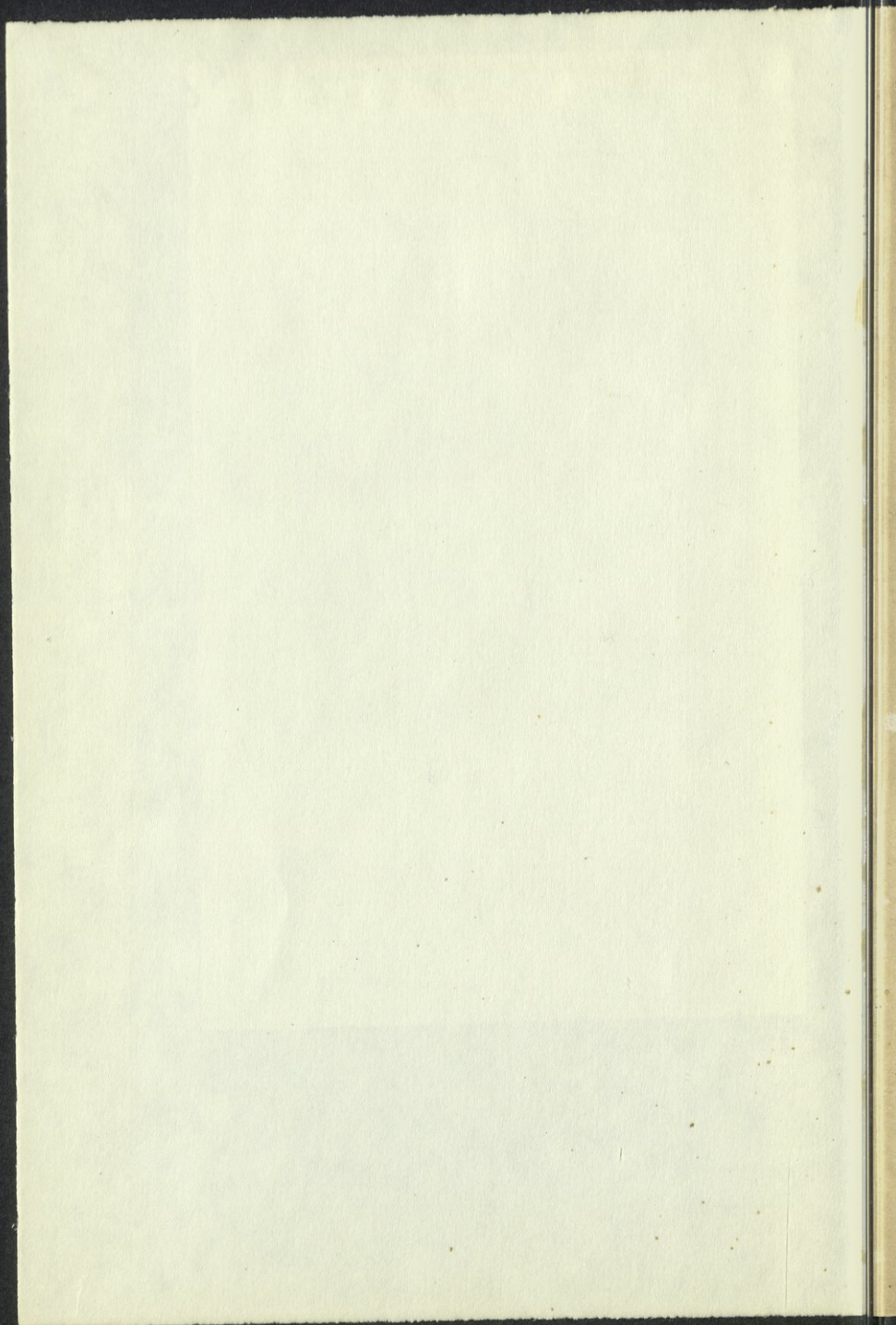
فهي أختها

كلمة اخيرة

كلمة أخيرة

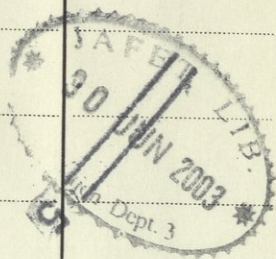
تحدثت طويلا عن شقاء الفلاح ، ولكن هناك أشياء أخرى لم أتحدث عنها ، أقسى وأشد إيلاماً ، يخفيها عن عيوننا ضجيج الحياة ، وانشغالنا عن الريف بمشاغلنا المعروفة .
إن الفلاحين في مصر ، ضحايا ، نلهم عنهم وهم يهيمون في شقائهم ، ويتخبطون في ظلام أليم .

مشاكل القرية متعددة ، وهي تقتضي إصلاحاً متشعب النواحي ، وأعرف أن المال هو العقبة التي تعترض سبيل الإصلاح ولكن هل من العدل والرحمة أن نسكت مطمئنين عن شقاء الفلاح ، لتشعب نواحي الإصلاح ولقلة المال ؟ لقد تغافل السابقون عن الفلاح ، فلو تغافلنا نحن أيضاً ، كان معنى ذلك أن الفلاح قد قضى عليه بالموت ، وكتب له أن يرسف إلى الأبد في أغلال شقائه ومرضه وفقره .
نحن لا نقصنا المال متى توفرت لدينا العزيمة الصادقة على الإصلاح ، ومتى شعرنا بشقاء الفلاح .



DATE DUE

LIBRARY



AUB LIBRARY

عبد الرحمن ، عائشة
الريف المصري

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01013340

